جامعة قاريونس		كلية الآداب

الدراسات العليا

قسم التاريخ		شعبة: التاريخ الإسلامي

الدولة الطولونية في مصر والشام
(254-292هـ/867-904م)

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الإجازة العالية (الماجستير)
بكلية الآداب قسم التاريخ بتاريخ 2010/07/26م

إعداد الطالبة:

نعيمة سالم عاشور المصراتي

إشراف:

الأستاذ الدكتور: علي حسين الشطشاط

أستاذ في التاريخ الإسلامي

كلية الآداب – جامعة قاريونس

تاريخ المناقشة: 2010/07/26م

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

صَدَقَ اللهُ العَظِيم

سورة التوبة، الآية (108)

الإهداء

أهدي ثمرة جهدي إلى من كان لهم الفضل في إنارة دربي، إلى من وفروا لي سُبل الحياة الكريمة،

إلى من كان لهم الفضل في وصولي إلى هذه المرحلة، إلى النجم الساطع أبي... إلى القلب النابض بالحب والحنان ... أمي.

إلى من كان قلبها يدعو قبل لسانها، إلى من سهرت بجانبي طيلة إعدادي هذه الرسالة، إلى من وفاها الأجل قبل أن تنظر إليها ... إلى جدتي، أسأل الله أن يرحمها برحمته.

إلى روح جدي ... ادعو الله العلي القدير أن يتغمدهُ برحمتهِ.

إلى إخوتي وأخواتي...

الباحثة

الشكر والتقدير

أتقدم بجزيل شكري وبالغ امتناني واحترامي الكبير إلى الأستاذ الدكتور "**علي حسين الشطشاط**" الذي كان لي الفخر بإشرافه على هذه الرسالة، فلم يبخل عليّ بإعطائي النصح والإرشاد، وما يتميز به من صدق النصائح، فأسأل الله أن يجزيه عني خير الجزاء.

كما أتقدم بشكري وتقديري إلى أعضاء هيئة التدريس بقسم التاريخ لما يقومون به من أجل نشر العلم وإنارة الطريق أمام الباحثين.

كما أخص بالشكر والتقدير كل من قدم لي يد العون والدعم لإكمال هذا المشوار العلمي وإظهاره على أكمل وجه.

والشكر أيضاً موصول إلى صديقاتي ورفيقات دربي، وأخص منهن "عزيزة إقجام" التي رافقتني طيلة هذه السنوات، وإلى آمنة وعائشة الرطب ونجاة العبار وجميلة الجنزوري.

الباحثة

المحتويات

مُقَدِّمَة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله (r) وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين، وبعد ...

كان أقصى امتداد شهدته الدولة العربية الإسلامية أيام الوليد بن عبدالملك من تخوم الصين شرقاً وحتى الأندلس والمحيط الأطلسي غرباً ومن جبال طوروس في شمال سوريا شمالاً وحتى بلاد النوبة جنوباً، ولكن شهد النصف الأخير من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي تطورات مهمةً في التفكير السياسي والحياة الاجتماعية والاقتصادية منها: خروجُ بعضِ مركزية الأمصار الإسلامية عن مركز السلطة التي كانت متمثلةً في المدينة المنورة في عصر الراشدين وفي دمشق في عصر الأمويين وفي بغداد في عصر العباسيين.

ومن أهِمِ مَظاهِرِ الخروجِ عن الدويلات مركزية الدولة هو توريثُ المُلك والاستقلالُ المحلي، الذي اتضح بقيام بعضِ الدويلات نتيجةً لما شهدهُ المشرق الإسلامي آنذاك من انقسامٍ سياسيٍ ومذهبيٍ، ومن هذه الانقسامات ظُهُور الدولةِ الصفارية بسجستان (254-290هـ/867-902م) والسامانيون في بلاد ما وراء النهر في سنة (261-389هـ/874-998م)، والطولونيون (254-292هـ/867-904م) في مصر والشام، الذين استطاعوا الانفصال عن الخلافة العباسية، إلا أنهم حرصوا على التبعية الاسمية للخلافة وكسب ودها.

هذا وقد ساعد ضَعفُ الخلافةِ العباسية الطولونيين على تحقيق مشروعاتهم وتوطيد سلطانهم، فقد كانت الخلافة دائمة التخوف منهم، الأمر الذي جعلها تلتمس عصبية جديدة، قُدر لها أن تلتهم ما بقي للخلافة من نفوذ، فقد ضيّع العباسيون العرب ليستعينوا بالترك، الذين استبدوا بهم وسيطروا على كافة مقاليد الحكم فنتج عن هذا الأمر خضوع العباسيين لهؤلاء الترك، الذين امتد سلطانهم إلى الوظائف الإدارية وفي مقدمتها منصب الوزارة.

وبظهور الدولة الطولونية واستقرارها وتوسعها يبدأ عصر جديد في تاريخ مصر الإسلامية، حيث شهدت مصر نهضة حضارية شملت النواحي العلمية والاقتصادية والاجتماعية، إضافة إلى الاستقرار في الأوضاع السياسية في زمن أحمد وابنه خمارويه مما كان له انعكاس إيجابي على الحركة العلمية في البلاد. ويعتبر الجامع الطولوني ذخيرة للفنون في هذه الفترة من تاريخ مصر، ولا يزال الجامع شاهداً على تلك النهضة، وكان لموقع مصر الجغرافي الأثر الكبير في ذلك، وبنهاية هذه الدولة عام (292هـ/904م) التي استمرت ثمانية وثلاثين عاماً، عادت مصر ولاية عباسية من جديد.

1- أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة إلى محاولتي تسليط الضوء على فترة مهمة من تاريخ مصر والشام ألا وهي الدولة الطولونية، التي نشأت في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، حيث أنه من الموضوعات التي تستحق الدراسة، بما تميزت بهِ هذهِ الدولة من نشاط حضاري واسع النطاق في تلك الفترة شملت النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية وغيرها من النظم الأخرى.

2- أسباب اختيار الموضوع: ما يلي:

1- أنهُ من الموضوعات التاريخية المهمة التي تستحق الدراسة والتنقيب.
2- أن أغلب الدراسات السابقة حول هذه الدولة منصبة حول شخصية أحمد ابن طولون وابنه خمارويه وسياسة العداء والوفاق مع الموفق.
3- إبراز الدور الكبير الذي ساهمت به هذه الدولة في ازدهار الحضارة الإسلامية، ما جعلها منارة للعلم والعلماء.

3- أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى:

1- معرفة كيف نشأت هذه الدولة، وأبرز خلفائها؟.
2- التوصل لمعرفة العلاقة السياسية بين الدولتين الطولونية والعباسية.
3- إبراز النظم الإدارية والمالية والعسكرية والقضائية التي اتبعها الطولونيون في حكمهم لمصر والشام.
4- تبيان أهم المظاهر الحضارية والمدى الذي بلغته هذه الدولة من قوة وتوسع.
5- توضيح العلاقات التي ربطتها مع باقي الدول الأخرى انتهاءً إلى سقوطها.

منهج الدراسة:

أما بالنسبة للمنهج الذي اتبعته في دراستي هذهِ، فهو المنهج التاريخي السردي والمنهج التحليلي الذي يسرد الأحداث التاريخية ويحللها ويقارنها بنظائرها الأخرى.

هذا وقد اعتمدت على مجموعة متعددة من المصادر والمراجع في تدوين بحثي هذا، ومن أهم تلك المصادر:

1- **كتاب سيرة أحمد بن طولون "لأبي عبدالله محمد البلوي"** (لم تُعرف سنة وفاتهِ): يُعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي تناولت الحديث عن سيرة أحمد ابن طولون ابتداءً من ظهور أبيه إلى ظهوره ووصولهِ لمصر، كما تحدث عن صفاته، وأهم الأعمال التي قام بها مثل بنائه لجامعهِ والبيمارستان ومقدار النفقات التي أنفقها، كذلك جيشه وقطائعه، كما تناول الكتاب الحديث عن خلافاته مع الخلافة العباسية، وتمرد غلمانهِ عليه ثم وفاته، وقد استفدت من هذا المؤلف في جميع فصول البحث.

2- **كتاب المقفى الكبير لمؤلفه "تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي"** (المتوفى سنة 845هـ/1441م): الذي تحدث فيه عن أحمد بن طولون وابنه خمارويه حيث اعتمدت على الجزئين الأول والثالث. أما الكتاب الثاني لهذا المؤلف فهو "**المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**"

المعروف بالخطط المقريزية، حيث ذكر فيه صاحبه حياة الشعب المصري، والمواسم والأعياد ومواكب الخلفاء والأمراء والولاة وطريقة احتفالهم بالمناسبات الدينية، كما تناول الحديث عن عواصم مصر الإسلامية، فتحدث عن الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة ووصف هذه العواصم وصفاً شاملاً، وقد استفدت من هذا الكتاب بجزئيه الأول والثاني في أغلب فصول هذه الدراسة.

3- **كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لمؤلفه "جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي"** (المتوفى سنة 874هـ/1469م): تناول فيه صاحبه تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي حتى عصرهِ أي القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، كما خصص ترجمة خاصة لكل خليفة أو حاكم أو أمير حكم مصر، كما ذكر أخبار العالم الإسلامي على عهد صاحب الترجمة مرتبة حسب السنوات، ولقد استفدت من الجزء الثالث في هذه الدراسة.

أما فيما يخص المراجع ومن أهمها:

1- **كتاب أحمد بن طولون للدكتورة سيدة إسماعيل كاشف**: وهو من أهم الكتب التي تناولت الحديث عن الدولة الطولونية، حيث تناولت فيه الحديث عن شخصية أحمد بن طولون،وألمّت في دراستها عن هذه الدولة بمظاهرها الحضارية، والنظم الإدارية والمالية والعسكرية المتبعة، كذلك تطرقت إلى علاقة هذه الدولة بجيرانها من الدول الأخرى، فكان من الكتب القيمة التي أفادتني في دراستي هذه.

2- **كتاب حضارة مصر الإسلامية (العصر الطولوني) لمؤلفه "حسن أحمد محمود"**: وهو من ضمن الذين شاركوا سيدة كاشف في الحديث عن هذه الدولة، فقد ضم كتابه الحديث عن قيام هذه الدولة، وازدهارها، وانحلالها ومن ثمَّ سقوطها، كما تناول العصر الطولوني من حضارة مصر

الإسلامية، وقد اعتمدت على هذا الكتاب في توضيح أهم ما وصلت إليه هذه الدولة وأهم ما امتازت به بين الدول الأخرى.

3- **كتاب دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور "علي حسين الشطشاط"**: احتوى هذا الكتاب على عدة فصول تناول خلالها مفهوم الحضارة ونشأتها، وأسس الحضارة الإسلامية، كما تطرق إلى دراسة أهم النظم الإسلامية المتمثلة في النظم الإدارية والمالية والعسكرية والقضائية، وقد كانت استفادتي من هذا الكتاب استفادة كاملة في الفصل الثالث عند دراسة النظم الإدارية والمالية والعسكرية للدولة الطولونية.

4- **كتاب مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني لمؤلفه "علي إبراهيم حسن"**: حيث يحتوي هذا الكتاب على سبعة أبواب تناول فيها مصر منذ أن كانت ولاية رومانية، ثم تطرق إلى الفتح العربي، وحالتها في عهد الخلفاء الراشدين وعهدي الأمويين والعباسيين كما اختص الحديث عن الدولة الطولونية والأخشدية والفاطمية والأيوبية والمملوكية، وأهم مظاهر حضارة هذه الدول ومنشآتها، ويُعد هذا الكتاب من الكتب القيمة التي استفدت منها في جميع فصول بحثي هذا.

تقسيمات الدراسة:

أما فيما يتعلق بتقسيمات الدراسة، فقد قسمت بحثي هذا إلى خمسة فصول ومقدمة وخاتمة.

ففي الفصل الأول الذي بعنوان "**قيام الدولة الطولونية**" فقد خصصتهُ لترجمة حياة ابن طولون وكيفية وصوله إلى حكم مصر وبسط نفوذه عليها، وأهم الصعوبات التي واجهته، وكيف استطاع القضاء عليها، وأهم الأعمال التي قام بها أحمد بن طولون من عمران ومنشآت.

أما الفصل الثاني فقد جعلته لدراسة **خلفاء أحمد بن طولون**، واستمرار علاقاتهم مع الخلافة، وإلى ما آلت إليه الأمور، ومن ثم كيفية تدهور هذه الدولة بعد ثاني خليفة، وبداية النهاية لهذه الدولة.

وكان الحديث في الفصل الثالث عن **أهم النظم الإدارية** من دواوين وكاتب سر وحجابة ووزارة وبريد، كذلك النظم المالية المتمثلة في الخراج والمكوس والضرائب والعملة، والنظم القضائية وكيفية تعيين القضاة وأشهرهم في هذه الدولة، والنظام العسكري من الأسطول البحري والأسلحة التي تم استخدامها في تلك الفترة.

وبالنسبة للفصل الرابع فقد جعلته لدراسة **المظاهر الحضارية في عهد الدولة الطولونية**، وتناولت فيه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وأهم العلوم المتداولة في هذه الدولة وأشهر العلماء.

ثم اختتمت البحث بفصلٍ خامس تناولت فيه **العلاقات الخارجية للدولة الطولونية**، حيث سأتناول علاقاتهم مع جيرانهم البيزنطيين والأغالبة وكذلك علاقته مع الخلافة العباسية، وأخيراً الخاتمة وما توصلت إليه من نتائج.

والله ولي التوفيق.

الباحثة

الفصل الأول

قيام الدولة الطولونية

أولاً: أصل طولون لغةً واصطلاحاً.

ثانياً: مولد أحمد بن طولون ونشأته.

ثالثاً: ولاية أحمد على مصر وبسط نفوذهِ.

رابعاً: الصعوبات التي واجهت أحمد بن طولون:

1- ثورة العلويين.

أ- ثورة بغا الأصغر.

ب- ثورة ابن الصوفي.

ج- ثورة العمري.

2- ثورة العباس بن أحمد بن طولون.

خامساً: أهم أعمال أحمد بن طولون:

1- القطائع.

2- جامع ابن طولون.

3- المارستان "البيمارستان".

4- إنشاء القناطر والبئر.

5- قصر أحمد بن طولون "الميدان".

6- حصن الجزيرة "الروضة".

7- مسجد التنور.

8- وفاة أحمد بن طولون.

أولاً: أصل طولون[*]:

ينتمي طولون إلى الطغرغر، وهو من ضمن الذين يقيمون بين تركستان وسيبريا، وينحدر من أسرة كانت تقيم في مدينة بخارى، حيث نشبت بينهم وبين العباسيين حرب، وقع على إثرها طولون أسيراً، فجيء به إلى نوح بن أسد الساماني عامل بخارى من قبل المأمون (218-227هـ/833-841م)[1].

وقد جرت العادة في ذلك الوقت على أن يرسل الولاة إلى الخلفاء جزية من المال والرقيق، فقام نوح بإرسال طولون ضمن الرقيق المرسلة إلى المأمون عام (200هـ/815م)[2]، ويذكر ابن كثير أن طولون تم إرساله إلى الرشيد في عام (190هـ/805م)[3] واستطاع طولون أن ينال على إعجاب الخليفة، لما يتميز به من صفات عديدة كالشجاعة والذكاء والفطنة، جعلته يرتقي، بالإضافة إلى ما قام به المأمون من إغداق العطايا عليه، جعلته يصل إلى منصب "أمير الستر" أي قائد الحرس الخاص[4].

استطاع طولون أن يصل إلى هذا المنصب الذي ظل فيه عشرين عاماً بفضل ثقة المأمون في أمانته وإخلاصه طيلة عهد المأمون وعهد المعتصم (218-227هـ/833-841م)[5].

أما عن تاريخ وفاة طولون فقد اختلفت المصادر في سنة وفاته، فيذكر ابن كثير

(*) طولون: بضم الطاء المهملة واللام المضمومة بين الواويين، وفي آخرها النون هذه النسبة إلى ابن طولون، ويعني اسم البدر الكامل في اللغة التركية = أبو سعد عبدالكريم السمعاني: الأنساب، تحقيق محمد عوامة، مطبعة محمد هاشم الكتبي (دمشق، د.ت) 266/8. كذلك سمير فراج: موسوعة التاريخ الإسلامي "الدولة الطولونية" مركز الراية للنشر والإعلام (القاهرة، 2007) ص62.

(1) تقي الدين أحمد المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار "الخطط المقريزية"، دار صادر (بيروت، د.ت) 313/1. كذلك علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1993) ص65.

(2) سيدة إسماعيل كاشف: أحمد بن طولون، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر (د.م، د.ت) ص17. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص65.

(3) أبو الفداء الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، (بيروت، 1966) 45/11.

(4) إبراهيم الشريقي: التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرناً منذ العهد النبوي حتى العصر الحاضر، مؤسسة نوفل للطباعة والنشر، ط2 (د.م، 1971) ص165. كذلك عبدالله محمد جمال الدين: في تاريخ مصر الإسلامية، دار الثقافة للنشر والتوزيع (الفجالة، 1992) ص54.

(5) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص66.

أنه توفي في عام (230هـ/844م)[1] بينما يذكر المقريزي أنه توفى في عام (240هـ/854م)[2] بعد أن أنجب عدداً من الأولاد من بينهم أحمد بن طولون الذي يُكنى بأبي العباس، ويعود إليه الفضل في تأسيس أول دولة حكمت مصر حكماً مستقلاً بعد الفتح الإسلامي[3].

ثانياً: مولد أحمد ونشأتهِ:

هو الأمير أبو العباس أحمد بن طولون، صاحب الديار المصرية والشامية[4] والثغور[*]، ولد في 23 من رمضان عام (220هـ/834م) في بغداد[5] غير أن المقريزي وابن خلكان[6] يذكران بأنه ولد في [سامراء]، غير أنها لم تُشيد إلا في سنة (221هـ/835م) أي بعد مولد أحمد بسنة، من جارية تُسمى هاشم وقيل قاسم[7]، كما قيل إن طولون تبنى أحمد، ولم يكن ابنه[8]، ويصحح البعض ذلك، وما يدل على هذا، ما ذكرهُ ابن تغري بردي[9]: بأنه ابن طولون ومما يدل على ذلك عندما لَعن الموفقُ أحمد نسبهُ إلى ابن طولون ولم ينسبهُ إلى يلبخ[**]،وقد عَمِل طولون على تربية أحمد وتنشئتهِ،

---

(1) ابن كثير: المصدر السابق، 45/11.

(2) تقي الدين أحمد المقريزي: المقفى الكبير، تحقيق محمد البعلاوي، دار الغرب الإسلامي (بيروت، 1991) 417/1.

(3) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص66.

(4) شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة (بيروت، 1968) 173/1.

(*) الثغر: "بالفتح ثم السكون وراء كل موضع قريب من أرض العدو يسمى ثغرُ ومنه ثغر الشام، وجمعهُ ثغور، ومن مدن الثغور الإسكندرية والمصيصة وطرسوس وأذنة = أبو عبدالله بن محمد المدني البلوي: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة، د.ت) ص36.

(5) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية (القاهرة، 1932) 1/3.

(6) المقريزي: المقفى، 417/1. كذلك ابن خلكان: المصدر السابق، 174/1.

(7) ابن كثير: المصدر السابق، 45/11. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 1/3.

(8) البلوي: المصدر السابق، ص34.

(9) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 3/3

(**) يلبخ هذا تركي سُبي مع طولون، وكان خفيف الروح يغني بالتركية، فلما توفي طولون ألزمه الوفاء له بالقيام بأمر ولدهِ والمحافظة عليه = البلوي: المصدر السابق، ص34.

مثلما يُربى أولاد الأمراء في ذلك الوقت، حيث تلقى العلوم على أيدي العلمـــاء، فحفــظ القرآن وأتقنه وأكثر من تلاوته، كما تميز بالصوت الحسن، ودرس أيضاً الفقه والحديث على مذهب أبي حنيفة[(1)].

توجه أحمد إلى طرسوس لتلقي العلوم الدينية فصحِب جماعة من الزهاد وأهــل الدين، فتأدب بآدابهم، وحسنت طريقته، وظهر فضله، حتى تمكن له في قلوب الأولياء، ما جعله يرتفع على طبقته، وعَظُمت منزلتهُ، وبان على وجوه الأتراك، وذاع صـــيته، فاستطاع بذلك كسب الخلفاء الذين عمل تحت رعايتهم كالمتوكل (232-247هــ/846-861م) والمستعين (248-252هــ/862-866م) والمعتمـد (256-279هــــ/869-892م)[(2)]، تُوفـــي طولون قبل بلوغ أحمد العشرين من عمره، "فتزوجـــت أمـــه ببغـــا الأصغر، أحـــد زعمـــاء الجند الترك، كمـــا تزوجت للمرة الثالثة من بايكباك [(*)]، الذي خلف "بغا" في وظيفة الأمين بالبلاط العباسي"[(3)].

اعتاد ضباط الجند الأتراك تلقي التدريب والتعليم العسكري، فتلقى أحمد وأخـــوه موسى في ذلك الوقت هذا التدريب لكي يصبح مؤهلاً للعمل في جند الخليفة، ثم تـــزوج أحمد بن طولون بابنة عمه خاتون التي ولدت له العباس عام (242هــ/856م) وفاطمة، وبعد وفاة طولون، فوض الخليفة المتوكل لأحمد الأعمال التي كانت ضمن مهام أبيـــه، فكانت هذه الخطوة بدايةً لظهور أحمد على مسرح الأحداث[(4)]، فقام بها على أكمل وجه

---

(1) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 3/3، سيدة كاشف: المرجع الســـابق، ص19. كــذلك أبـــو الفـــلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتـــب التجـــاري للطباعـــة والنشـــر (بيروت، د.ت) 157/2.

(2) المقريزي: المقفى، 418/1. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص66.

(*) لقد اختلفت المصادر في تسميته، فيذكر البلوي: (المصدر السابق، ص42) وابن تغري بردي (المصـــدر السابق، 6/3) "باكباك"، بينما يذكر كلٌ من أبو جعفر محمد جرير الطبري: تاريخ الأمـــم والملـــوك، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر (بيروت، د.ت) 157/11 والمقريزي (المقفى، 419/1) "بايكباك" وهو قائد من أصل تركي اشتهر أمرهُ في خلافة المعتمد والمعتز لاسيما بعد أن فتك بزعماء المغاربـــة ســـنة (253هــ/867م) فأعاد النفوذ للأتراك وأصبح كبيرهم بعد موت بغا = مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق نبيلة عبدالمنعم داود، مطبعة النعمان (النجف، 1972) 27/4.

(3) أحمد عبدالرزاق أحمد: تاريخ وآثار مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية العصر الفـــاطمي، دار الفكر العربي (القاهرة، 2004) ص87-88. كذلك سيدة كاشف: المرجع السابق، ص19.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص35. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 4/3، سعاد مـــاهر: مســـاجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (القاهرة، 1979) ص

من أمانة وإتقان، حيث تولى مهام بعض الثغور والأعمال العسكرية والإدارية في طرسوس[*] وإمرة دمشق ثم ديار مصر[1].

كانت لنشأة أحمد الأثر الكبير في حياته، فلم يرض على تصرفات الجند الأتراك لما يرتكبونهُ في حق الخلفاء، وكان شديد الازدراء عليهم، حيث كان يقول: "إن حرمة الدين عندهم مهتوكة". هذا وقد قال أحمد بن طولون: "يا أرض كم نقيم على هذا الإثم مع هؤلاء الموالي الأتراك "لا يطئون مَوْطِئاً إلا كُتب علينا الخطأ والإثم، والصواب أن نسأل وزير المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان أن يكتب أرزاقنا إلى الثغر". فأجاب الوزير لطلبهما فرحلا إلى طرسوس، وأعجب أحمد لما رآه من أهل الحق الذين يتعاملون بمبادئ الشريعة الإسلامية[2]، فعمل جاهداً على طلب الحديث منهم، والتدريب على الفنون العسكرية، وكان يتقاضى راتبه من دار الخلافة طيلة الفترة التي قضاها في طرسوس[3]، لكنه ما لبث أن عاد بعد مقتل الخليفة المتوكل إلى سامراء، وقيل في سبب عودته ما وصلهُ من خبرٍ عن أمهِ التي تعاني من فُراقه فعاد في قافلة تضم نحو خمسمائة رجل، وكانت هذه القافلة تضم متاعاً ثميناً للخليفة المستعين آنذاك[4]. حيث تعرضت هذه القافلة إلى قطاع الطرق الذين كانوا يسيرون متفرقين مثل العُقبان، فأخذوا البغل الذي يحمل متاع الخليفة والمال الذي مع الرجال، الذين اعتصموا بقلعة الرها[**] وجاء الصائح، ولم ير أحمد بن طولون بُداً إلا القتال قائلاً: "لا يراني الله

(*) طرسوس: بلدة في الثغور الشامية على ثلاثين كيلو متراً، وهي مقر الزهاد والعلماء، استولى عليها الروم ثم الصليبيون ثم فتحها المماليك التركمان أصحاب مصر = البلوي: المصدر السابق، ص37.

(1) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 4/3. كذلك سيدة إسماعيل كاشف وحسن أحمد محمود: مصر في عصر الطولونيين والأخشيديين، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، د.ت) ص13.

(2) أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، القسم الثاني، مطبعة دائرة المعارف العثمانية (حيدر، 1357هـ) 71/5. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 4/3.

(3) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة الأعلمي (بيروت، 1971) 298/4. كذلك زكي محمد غيث وآخرون: محاضرات في التاريخ الإسلامي، مطبعة الأزهر (القاهرة، 1995) ص201، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص67

(4) المقريزي: الخطط، 314/1. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 5/3.

(**) الرها: بالقصر والمد: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام سميت باسم الذي استحدثها وهو الراهب البلندي بن مالك = ابن تغري بردي: المصدر السابق، 5/3.

فاراً وقد خرجت على نية الجهاد"[1] فقاتلهم وخلص من أيديهم ما كان مُحملاً "للمستعين"، فعظم أحمد في عين الخادم، كذلك كَبُر في نفوس أهل القافلة فزاده ذلك مهابة وجلالة[2].

ومن الصفات التي كان أحمد بن طولون يتميز بها أنه حسن الرمي لا يُخطئ شيئاً[3].

أحضر الخادم المتاع عند وصوله إلى العراق فاستحسنه المستعين وسُرَّ بهِ كل السرور، فقال له الخادم: لولا ابن طولون ما سلمِت ولا سلمِنا، وبذلك حسنت مكانة أحمد بن طولون عند الخليفة المستعين الذي أرسل إليه ألف دينار سراً مع الخادم وقال للخادم: "عَرِّفهُ أنني أحبهُ، ولولا خوفي[*] من أن يعلَم محلهُ في قلبي فيحسد ويقتل لبلغته أفضل مراتب أمثاله"[4].

ومما يدل على مكانته عند الخليفة المستعين أنه إذا دخل عليه مع الأتراك أومأ إليه بالسلام، سراً[**]، واستمرت هِبات الخليفة على أحمد بن طولون، فوهب له جارية اسمها مياس، ولدت له أبا الجيش خمارويه في سنة (250هـ/864م)[5]، وهذا يدل على ما حظي به أحمد بن طولون من مكانة لدى الخليفة المستعين، فعندما تنكر الأتراك للمستعين وخلعوه، بُويع للمعتز، وتم نفي المستعين إلى واسط[***]، وقالوا له: من تختار أن يكون في صحبتك؟ فقال أحمد بن طولون. وفي هذا دلالة على ازدياد الصلة والثقة بين أحمد والمستعين، فأحسن أحمد عشرته، التي تمثلت في معاملته، وأطلق له

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 5/3.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص37. كذلك الجوزي: المصدر السابق، 72/5، المقريزي: المقفى، 419/1.

(3) البلوي: المصدر السابق، ص37.

(*) عند ابن تغري بردي: (المصدر السابق، 5/3) ولولا خوفي عليه قُربته.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص38. كذلك المقريزي: الخطط، 314/1.

(**) يذكر البلوي: المصدر السابق، ص 39: "فلما كان يوم السلام، ودخل مع الأولياء، غمز الخادم المستعين عليه حتى رآه، فأشار إليه المستعين بالسلام".

(5) المقريزي: المقفى، 419/1. كذلك ابن تغري بردى: المصدر السابق، 6/3، حسن مؤنس: تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون "من كتاب الحضارة المصرية – العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي"، المؤسسة المصرية العامة (القاهرة، د.ت) 390/2.

(***) بلدة في العراق قائمة إلى الآن اختطها الحجاج بن يوسف الثقفي في سنتين ويقال لها واسط القصب، وهو قصر كان قد بناهُ أولاً قبل أن يبني البلد = البلوي: المصدر السابق، 39.

التنزه والصيد وكَرِه أحمد اللّحـاق بهِ احتشاماً منه، وألزمه كاتبه أحمـد بـن محمـد الواسطي، وكان غلاماً جريئاً حسـن الشاهد حاضر النادرة، فشكر المستعين أحمد بـن طولون على ما قام به من أمره[1].

وجد الأتراك أن بقاء المسَتعين على قيد الحياة يشكل خطراً على المعتز، فذهبوا إلى أمه، التي تُدعى بـ "قبيحة"[*] فعرفوها ذلك وخوفوها فعزمت على قتل المسـتعين، فأرسلت إلى أحمد بن طولون كتاباً فيه: "إذا قرأت كتابي فجئني برأس المستعين، وقـد قلدتك واسط"[2].

لم يرض أحمد بن طولون المشاركة في قتل الخليفة، فامتنع ورفض ولاية واسط مقابل ذلك، فكتب إليها "والله لا يراني الله عز وجل أقتل خليفة، له فـي رقبتـي بيعـة وإيمان مغلظة أبداً"[3].

كان لامتناع أحمد على قتل المستعين الأثر الكبير على الأتراك، فعظُم أحمد في قلوبهم، ووسموه بجميل المذهب[4]، فقام الأتراك بإرسال سعيد بن صالح إلى أحمد بـن طولون يستلم الخليفة المستعين[**]، فسلم أحمد المستعين وكان ذلك بحضـور قاضـي واسط مع الشهود، فأشهدهم أنه قام بتسليم المستعين سليماً، وخرج سعيد بالخليفـة إلـى الصحراء وقام بقتلـه، وأرسل رأسه إلى المعتز، فقام أحمد بغسلهِ وصلى عليه ودفنـه وعاد بعد ذلـك إلى سامراء فولوه مصر نيابةً عن أميرها[5].

---

(1) ابن الجوزي: المصدر السابق، 72/5. كذلك ابن خلدون: العبر، 298/4، سيدة كاشف وحسـن أحمـد محمود: المرجع السابق، ص14.

(*) هي زوجة المتوكل، وقد أطلق عليها المتوكل هذا الاسم لفرط جمالها، وقد كانت جارية رومية الأصـل، وكانت من سيدات البلاط العباسي في سامراء = فريال داود المختار: المنسوجات العراقية الإسلامية من الفتح العربي إلى سقوط الخلافة العباسية ببغداد، منشورات وزارة الإعلام (الجمهورية العراقية، 1976) ص104.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص40. كذلك ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، 6/3.

(3) المقريزي: المقفى، 419/1. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 6/3.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص40. كذلك المقريزي: المصدر السابق، 419/1.

(**) عندما رأى المستعين سعيد بن صالح قال: لقد جاء جزار بني العباس = ابن الجوزي: المصدر السابق، 72/5.

(5) البلوي: المصدر السابق، ص41. كذلك الجوزي: المصدر السابق، 72/5، المقريزي: المقفى، 419/1، سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص23.

ثالثاً: ولاية أحمد على مصر وبسط نفوذه:

عند عودة أحمد بن طولون بعد مقتل المستعين، دخل سامراء، ورافق دخوله تقليد الأمير بايكباك حكم مصر، فاقطع المعتز لبايكباك أعمال مصر سنة (254هـ/867م)، غير أنه لم يرغب أن يترك بغداد التي هي مركز نفوذهِ وبها كل مصالحهِ ويذهب إلى مصر، ففعل مثلما فعل السابقون حيث قرر البقاء في عاصمة الخلافة لينعموا فيها بحياة الترف، وليكونوا على صلة بمنطقة النفوذ والسيادة، من أجل هذا كله كان هؤلاء الولاة يعينون نواباً عنهم يحكمون الأقاليم باسمهم، ويبقون هم في عاصمة الخلافة[1]، وحتى يكونوا في مأمن من دسائس خصومهم، ولا يؤخذوا على حين غرة، ففكر بايكباك في من ينوب عنهُ في مصر عندما أقطعها له المعتز، فأشاروا عليه بأحمد بن طولون لما عُرف عنهُ من حسن السيرة[2]، وقيل له: "إن أحمد بن طولون الثقة الأمين الخير الدين"[3]، لذلك قلده خلافة مصر فضَّم إليه جيشاً وسار إلى مصر، فدخلها يوم الأربعاء من شهر رمضان سنة (254هـ/867م) متقلداً القصبة، أي الفسطاط دون غيرها من الأعمال الخارجة عنها، مثل الإسكندرية ومعه أحمد بن الواسطي كاتب بايكباك، وكان من المقربين أيضاً الوزير أبو يوسف بن إسحاق[4]، وعند جلوس الناس لرؤية أحمد بن طولون سألوا أبي قبيل صاحب الملاحم[*] عما يجده في كتبهم، فقال: هذا رجلُ نجد صفتهُ كذا وكذا وأنهُ يتقلد الملك هو وولدهُ قريباً من أربعين سنه، وعندما أتم كلامه أقبل أحمد طولون بالصفة التي وصفها صاحب الملاحم، قائلاً:

---

(1) البلوي: المصدر السابق، ص42. كذلك سمير فراج: المرجع السابق، ص63، سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص17، أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1967) 76/5، القطب محمد القطب: نظام الإدارة في الإسلام، دراسة مقارنة بالنظم المعاصرة، دار الفكر العربي (القاهرة، 1978م) ص113.

(2) عزالدين أبو الحسن علي ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حققه واعتنى به عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي (بيروت، 1999) 250/6. كذلك عبداللطيف محمد البرغوثي: تاريخ ليبيا الإسلامي من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العثماني، دار صادر (بيروت، 1972م) ص192.

(3) المقريزي: المقفى، 419/1.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص42. كذلك محمد الخضري بك: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية "الدولة العباسية" راجعه واعتنى به نجوى عباس، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع (القاهرة، 2003) ص292.

(*) هذا الرجل كان بمصر، وكان مكفوفاً ينسب إلى قبيل الملاحمي يتكلم في علم الحدثان ويصيب في الأكثر = جمال الدين أبو الحسن القفطي: تاريخ الحكماء، مكتبة المثنى (بغداد، د.ت) ص333.

"غايةُ ما وعُدِتُ بهِ في قتل المستعين واسط، فتركت ذلك لله تعالى، فعوضني ولاية مصر والشام"(1).

"وعند دخول أحمد بن طولون لمصر، كان في أضيق حال، يحتقره كل من يراه، وقيل كان بمصر رجل من الأعيان يُقال له علي بن معبد البغدادي، وكان في سعة من المال، فعندما رأى ضيق حال أحمد بن طولون أرسل إليه عشرة آلاف دينار، فقبلها ورأى بها موقعاً، فحظي ذلك الرجل عنده، فكان لا يتصرف في شيء من الأمور إلا برأي ذلك الرجل وتضاعفت عنده منزلته"(2)، كذلك كان سلطان ابن طولون ضئيلاً إلى أبعد الحدود، فكان ولاة مصر لا ينوبون شخصاً واحداً بل أن السلطة مقسمة على عدة أشخاص، فأحمد المدبر(*) كان على الخراج، وغلام قبيحة أم المعتز شقير(**) الخادم متقلداً البريد، والإسكندرية بيد إسحاق بن دينار، وبرقة تابعة لمصر من الناحية الإدارية بيد أحمد بن عيسى الصعيدي، في حين بكار(***) بن قتيبة يدير شؤون القضاء(3)، وبذلك انصرف هم أحمد بن طولون على أن يبسط نفوذه وسلطته على إقليم مصر كلها، وأن يكون السلطان الشرعي وليس نائباً للأمير، وسرعان ما استطاع ابن طولون أن يمد نفوذه على مصر وذلك بعد وفاة المعتز في سنة (255هـ/868م) وقيام المهتدي (255هـ/868م) ومقتل بايكباك، وحل يارجوج محله في الولاية على مصر(4) ورد ما

---

(1) صلاح الدين خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، باعتناء س. ديدرينغ، القسم السادس، يطلب من دار النشر فرانز شتايز (بقيسبادان، د.ت) 432/6. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 6/3.

(2) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، المطبعة الكبرى الأميرية (بولاق، 1311هـ) 37/1.

(*) هو صاحب الخراج في مصر وكان غنياً بما ابتزهُ من أموال الأهالي وكان ينافس ابن طولون ويشي به عند الخليفة = الحسن بن زولاق: أخبار سيبويه المصري، قام بنقلهِ ونشرهِ وكتابة تراجمه محمد إبراهيم أسعد وحسين الديب، مطبعة النصر (مصر، 1933) ص82.

(**) كان يتولى البريد وضياعاً من ضياع الإقطاع وما يستعمل للسكان من المتاع وإليه يُنسب الديبقي الشقيري = البلوي: المصدر السابق، ص43.

(***) بكار بن قتيبة بن عبدالله بن أبي بردعة بن عبد الله بن بشير بن عبيد الله بن أبي بكرة الثقفي قاضي مصر أصله من البصرة، ولي القضاء بمصر سنين كثيرة من قِبل المتوكل وظل حتى توفي سنة (270هـ/283م) = ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر: تاريخ ابن عساكر، اعتنى بترتيبه وتصحيحه عبدالقادر أفندي بدران، مطبعة روضة الشام (دمشق، 1330) 282/3.

(3) عبدالرحمن الرافعي وسعيد عبدالفتاح عاشور: مصر في العصور الوسطى من الفتح حتى الغزو العثماني، دار النهضة العربية (القاهرة، 1994) ص89.

(4) المقريزي: الخطط، 314/1. كذلك سمير فراج: المرجع السابق، ص64.

كان لبايكباك، وكان يارجوج تربطهُ المصاهرة مع أحمد بن طولون، فكتب إليه يقــول: "تسلم من نفسك لنفسك"[1]، وبذلك زاد يارجوج لأحمد في عمله فكتب لإسحاق بن دينار أن يسلم الإسكندرية لأحمد بن طولون، وقام بمنحه صلاحيات واسعة ساعدته على تقوية مركزه، فعظمت بذلك منزلة بن طولون، فأصبح يُدعى على المنابر للخليفة، ثم ليارجوج وأحمد، وعند وفاة يارجوج سنة (258هــ/871م) أصبح يدعى لأحمد وحده بعد الدعاء للخليفة المعتمد، وبهذا استقل أحمد بن طولون بمصر[2].

الصعوبات التي واجهت أحمد بن طولون:

عندا تولى أحمد بن طولون ولاية مصر واجهته بعض الصعوبات والتي تمثلت في الآتي:

1- ثورات العلويين:

أ – ثورة أحمد بن طباطبا المعروف بــ"بغا الأصغر":

تعد هذه الثورة أولى الثورات التي واجهت أحمد بن طولون الذي قام بالقضـــاء عليها، فقد حدثت هذه الثورة في عام (255هــ/868م) حيث خرج رجل ادعى النســب العلوي وهو أحمد بن محمد بن عبدالله بن طباطبا، الذي استطاع بعد أن ترك بغداد فاراً أن يستقر في منطقة بين برقة والإسكندرية تُسمى "الكنائس" رافعاً العصيان، اتجه بعــد أن التف حوله جماعة إلى الصعيد وادعى الخلافة، فأرسل أحمد بن طولون بعد أن علم بخروجه رجلاً، اسمه **بُهَم بن الحسين**، مع جيش استطاع بِهُم محاربته وقتله وأخذ رأسه وحمله إلى الفسطاط[3].

ب- ثورة إبراهيم بن محمد المعروف بــ" ابن الصوفي":

تعد هذه الثورة الثانية التي واجهت أحمد بن طولون، فقــد قامــت فــي ســنة

---

(1) المقريزي: المقفى، 421/1. كذلك إبراهيم الشريقي: المرجع السابق، ص50، بوجينـــا غيانـــة: تـــاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت، 1966) ص287.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص46. كذلك المقريزي: الخطــط، 314/1-315، أحمــد مجاهــد ومحمــد مصطفى النجار: دراسات تاريخية الدولة الأموية والعباسية، مكتبة النهضة المصرية (القــاهرة، 1967) ص158، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص49.

(3) البلوي: المصدر السابق، ص62. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص72، محمود عكــوش: تاريخ ووصف الجامع الطولوني، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة، 1927) ص119.

(256هـ[*]/869م)، ثورة ابن الصوفي العلوي وهو إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبدالله بن علي بن أبي طالب، الذي ثار في صعيد مصر بالقرب من مدينة إسنا[**]، حيث قام بنهبها وقتل أهلها، فأرسل إليه أحمد جيشاً بقيادة ابن يزداد، إلا أن الصوفي استطاع أن يهزمه لكثرة أنصاره فقام الصوفي بقطع يدي ورجلي قائد ابن طولون، كما صلبه، فأرسل أحمد بن طولون جيشاً آخر بقيادة بُهَم ابن الحسين وابن عُجيف فاستطاعوا هزيمة ابن الصوفي بعد أن التقيا في مدينة إخميم[***]، ونهبا سوادهُ، وعند عودة بُهَم بن الحسن إلى ابن طولون "خلع[****] عليه أحمد خلعاً حساناً وطوقه بطوق ثقيل من ذهب صامت، وأجازه وقاد بين يديه خيلاً حساناً، فكان بُهَم إذا ركب في الأعياد يركب بذلك الطوق"[(1)].

فر بعد ذلك ابن الصوفي بعد أن قُتل رجاله ونُهب ما كان معه إلى الواحات[*****]، وظل بها سنتين، وفي سنة (259هـ/872م) ظهر من جديد في نواحي الأشمونين[*****]، فأرسل إليه ابن طولون أبا المغيث، إلا أن ابن الصوفي خرج إلى

(*) يذكر محمد بن يوسف الكندي: ولاة مصر، تحقيق حسين نصار، دار بيروت (بيروت، 1959) ص240، بأن خروج ابن الصوفي كان في عام (253هـ/867م) بينما يذكر ابن خلدون: (المصدر السابق، 302/4) بأن خروج ابن الصوفي كان عام (257هـ/870م).

(**) اسني بالكسر وبفتح: بلد في صعيد مصر ويرسمونها بعهدنا "اسنا" وهي اليوم من عمل مدينة قنا = البلوي: المصدر السابق، ص63.

(***) إخميم: وهي على ضفة النيل وهي أحسن بلاد مصر وأطيبها ماء وهواء وأخصبها أرضاً = أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزُهري: كتاب الجغرافية، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية (بورسعيد، د.ت).

(****) الخُلع أو الخلعة: وهي الملابس الفاخرة التي يمنحها الحاكم للمقربين إليه أو في معناها الرمزي هبة من الثياب الشخصية = علية عابدين: الملابس في العصر الإسلامي في مصر، مجلة منبر الإسلام، العدد الخامس، السنة الثانية والثلاثين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (القاهرة، 1974) ص142.

(1) البلوي: المصدر السابق، ص63.

(*****) الواحات: بلاد كانت معمورة بالمياه والأشجار والقرى والروم وقبل فتحها كان يسلك من ظهرها إلى بلاد السودان بالمغرب، وبها إلى يومنا ها ثمار كثيرة وغنم وجِمال = أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت، د.ت) ص143.

(*****) الأشمونين: كانت من أعظم مدن الصعيد، كما كانت المركز العام لعبادة الإله "توت" واسمها القديم "شمون" = ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، مطبوعات دار الكتب (د.م، 1969م) ص62.

أسوان لمقاتلة العمري[*] إلا أن الصوفي انهزم بعد لقائه العمري وعاد إلى أسوان بعد أن عبث فيها، وأظهر بها فساده، فأرسل ابن طولون جيشاً للقضاء عليه ما جعل هذا الأمر إلى اضطراب ابن الصوفي، فهرب إلى عيذاب[**]، وركب البحر إلى مكة، وظـل بهـا إلى أن قبض عليه والي مكة وأرسله إلى بن طولون، فحبسه أحمد مدة وأطلق بعد ذلك سراحه، على إثر ذلك توفي في المدينة[1].

ج- ثورة عبدالله بن محمد عبدالحميد المعروف بـ"العمري":

اندلعت هذه الثورة في الصعيد الأقصى، وقائدها من نسل الخليفـة عمـر بـن الخطاب (رضي الله عنه) وكان عالماً فقيهاً، عاش في بلاد بني الأغلب في القيـروان، وظل قائماً فترة من حياته هناك[2]، لم يكن خروجه ضد ابن طولون، بل كان ضد طائفة البجاة الذين كانوا في أعالي الصعيد، يقومون بالسلب والنهب، فخرج العمـري عازمـاً القضاء عليهم غيرة لله وللمسلمين، واستطاع إرغامهم على دفع الجزية بعد اخضاعهم، ذاعت بعد ذلك شهرة العمري، على الرغم من أن حركتهُ لم تكن موجهة إلى الطولونيين إلا أن أحمد بن طولون لم يطمئن لنفوذ هذا الرجل وخاف من طمعه، فقام بإرسال جيش كبيرٍ لإخضاعه، وكان العمري آنذاك منشغلاً بقتال النوبيين، وعند سماعه هـذا النبـأ خرج العمري للقاء قائد جيش ابن طولون وهو شعبة بن خركام البابكي وعرفـه بـأن "أحمد بن طولون لم يبلغه حقيقة أمره وأنهُ لم يخرج للفساد وأنني لم أوذِ مسلماً ولا ذمياً وإنما خرجت للجهاد"[3] إلا أن شعبة لم يقتنع بهذا وأراد محاربة العمري، فما كان على العمري إلا أن يهزم جيش بن طولون، فعاد شعبة بعد ذلك إلى بـن طولـون وعرفـه بحقيقة العمري التي لم يكن يدركها ذلك الوقت، فأهمل أحمد بن طولون أمـره، إلا أن

(*) هو عبدالله بن عبدالحميد بن عبد العزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب = الكندي: ولاة مصر، ص241.

(**)عيذاب: هي من أعمال مصر وهي فرصة للتجار اليمن وللحجاج الذين يتوجهون من مصر في البحـر فيركبون من عيذاب إلى جدة = ياقوت الحموي: تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه رينوردو البارون مالك دار الطباعة السلطانية (باريس، 1850) ص121.

(1) الكندي: المصدر السابق، ص421. كذلك ابن خلدون: المصدر السابق، 302/4، حسن أحمد محمـود: حضارة مصر الإسلامية "العصر الطولوني"، دار الفكر العربي (القاهرة، د.ت) ص43.

(2) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص73-74. كذلك علي إبراهيم حسن: مصر في العصـور الوسـطى، ص73، حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص44.

(3) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص66.

أتباع العمري وثبوا عليه وقتلوه وجاءوا برأسه إلى أحمد ابن طولون، طالبين الحظوة لديه، فقام أحمد بعد ذلك بقتلهما[1].

د- ثورة سكن أبو روح:

لم تنته هذه الثورات، فقد واجه أحمد بن طولون ثورة أخرى حيث ظهر عام (260هـ/873م) رجل يدعى "أبا روح"[*] في الصعيد، التفت حوله طائفة، فقام بقطع الطريق وإخافة السبيل، فوجه أحمد بن طولون جيشاً للقضاء عليه، "فوقف أبو روح في أرض كثيرة الشقوق، وقد كان بها قمح فحصد وبقي من تبنه على الأرض ما يستر الشقوق، وقد ألِفوا المشْي على مثل هذه الأرض، فلما جاءهم الجيش لقوهم، ثم انهزم أصحاب أبي رَوْح"[2]. وتتبع جيش ابن طولون الباقي حتى أوقعوا بهم، "فوقعت حوافر خيولهم في تلك الشقوق، فسقط بعضهم على بعض ... وقتل كل من سقط، وانهزم من سلم أقبح هزيمة"[3]، إلا أن أبي رَوْح لم يجد مفراً من الاستسلام وذلك بعد أن أرسل بن طولون جيشاً آخر إلى الواحات لطلبه ورأى (أبو رَوْح) أن طريق الواحات مُلكت عليه، فراسل يطلب الأمان، فأُعطي له، وانتهى بذلك دوره[4].

2- ثورة العباس بن أحمد بن طولون:

تعد هذه الثورة من أخطر الثورات التي واجهت أحمد بن طولون وهي خروج ابنه العباس ضده، وذلك بعد أن خرج أحمد إلى الشام واستخلف ابنه العباس في سنة (264هـ/877م) على مصر، وأبقى معه كاتبه أحمد بن محمد الواسطي ليكون مدبراً لأمره ووزيراً له، وأوصى ابنه بالاقتداء به وبرأيه، حيث قال له: "يا بني أحمد بن محمد قد عجم أمري، وخير ما يصلح فأقبل عليه، فوض إليه وتضافرا على حسن الأثر

---

(1) البلوي: المصدر السابق، ص67. كذلك ابن خلدون: العبر، 302/4، أحمد إسماعيل علي: تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي (132-463هـ/749-1070م)، دراسة تاريخية سياسية اجتماعية ثقافية اقتصادية عسكرية (دمشق، 1983) ص50، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص73.

(*) ظهر في مصر واسمه سَكَن، وكان من أصحاب الصوفي، وهو من بوادي بحيرة الإسكندرية = البلوي: المصدر السابق، ص67. كذلك ابن الأثير: المصدر السابق، 318/6.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 318/6، 319.

(3) البلوي: المصدر السابق، ص68.

(4) الكندي: المصدر السابق، ص69. كذلك ابن الأثير: المصدر السابق، 319/6، أحمد إسماعيل علي: المرجع السابق، ص50.

فيما أنتما بسبيله"[1]. إلا أن العباس خالف ما أمره به أبوه، فحاول تولية بعض الأعمال الإدارية والحربية لمن كانوا يدارسونه الأدب والنحو، ولم يكن هؤلاء الـذين يتمتعـون بالحظوة لديه يصلحون للقيام بهذه الأعمال[2]، لكن الواسطي رفض ذلك الأمر، فما كان على هؤلاء الأشخاص[*] إلا أن حملوا على الواسطي عنـد العبـاس، فقـام العبـاس بالتضييق على الواسطي، حتى لم يعد له أثر في إدارة شؤون البلاد[3]، فقام الواسـطي بمكاتبة أحمد بن طولون ليطلعه على ما حدث من ابنه العباس، فرد عليه ابن طولـون بأن يصبر حتى عودته فعلم العباس بما قام به الواسطي من مكاتبة أبيه فـازداد حقـده عليه، وخاصةً عندما اطلع على الكتب التي أرسلها أبوه إلى الواسطي يقول فيها عليـه بالمدارة، وكان محبوب بن رجاء[**] يُطلع العباس على الكتب التي ترد من أبيـه إلـى الواسطي، ما ازداد حقد العباس عليه، إلا أن الواسطي فشل في مدارة العباس واسـتقر في داره[4]، فأمر العباس بالهجوم على دار الواسطي وأخذ المراسلات التي كانت بـين أبيه وبينه، واشتد خوف العباس من أبيه فقام بإخراج الواسطي من داره وقيـده، كمـا حرض العباسُ القواد على الخروج ضد أبيه وأن يستقل بمصر، إلا أنه خشـى عـودة أبيه، فأظهر الخروج إلى الإسكندرية "لكتاب ورد عليه مـن أبيـه يـأمره بـذلك"[5]، واستخلف أخاه ربيعة بن أحمد على الفسطاط، وعند خروج العباس قام بأخذ الواسـطي مُكبلاً وأسيراً، كما أخذ معه أيمن الأسود وهو من غلمان أبيه وثقاته، وقـد ذكـر ابـن خلدون أن ما حمله معه العباس من المال والسلاح "بلغ ألف ألف دينـار"[6]، بالإضـافة إلى الفرسان الذين بلغ عددهم ثمانمائة فارس، وعشرة آلاف من مشاة أبيه السـودانيين،

---

(1) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص94.

(2) ابن عساكر: المصدر السابق، 219/7. كذلك ابن خلدون: المصدر السابق، 301/4، عبدالله محمد جمال الدين: في تاريخ مصر الإسلامية، ص59.

(*) يذكر البلوي: المصدر السابق، ص245 أسماء هؤلاء الأشخاص وهم علي بن ماجور، وعبدالله بن طغيا وأحمد بن صالح الرشيدي، وأحمد بن القاسم بن أسلم، وجعفر بن جدار.

(3) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص74.

(**) عند ابن خلدون: (المصدر السابق، 301/4) محمد بن رجاء وهو كاتب أحمد بن طولون.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص247، 248.

(5) الكندي: ولاة مصر، ص247.

(6) ابن خلدون: (المصدر السابق، 301/4). أما البلوي: المصدر السابق، ص249، يذكر أنهُ عنـدما جـاء أحمد إلى مصر وجد ابنه العباس أخذ من المال ألفي ألف دينار.

كما اقترض من التجار ثلاثمائة ألف دينار[1].

وعند عودة أحمد بن طولون سنة (265هـ/878م) حاول إصلاح الأمر بينه وبين ابنه، فأرسل إليه جماعة من كبار قادتهِ وأمرهم بملاطفته وملاينته وأنه قد صفح عنه إذا نِدم على ما فعله وعاد إلى الفسطاط، إلا أن العباس رفض العودة إلى أبيه، ورد عليه بردٍ قبيح[2]، وفي سنة (265هـ/878م) عاد الوفد الذي قد أرسله أحمد بن طولون إلى الفسطاط[3].

خرج العباس بعد ذلك لأفريقية إلا أن اصطدامه مع الأغالبه[*] جعله يجر ذيول الهزيمة راجعاً إلى برقة، وذاع خبر انهزام العباس فخرج بن طولون إلى الإسكندرية لملاقاته إلا أن الواسطي الذي استطاع الفرار من العباس صغّر أمر العباس لدى أحمد ابن طولون وتولى أمره بعد أن قال الواسطي لأحمد: "حالهُ أصغر من ذلك وأنا أكفيك أمره مع بعض قوادك، والصواب أن ترجع إلى بلدك، ومقر عزك، فقبل منه"[4]، فالتقى جيش الواسطي مع العباس، ودار بينهما قتال عنيف، فانهزم العباس وَأُخذ وَحُمل أسيراً إلى أبيه في مصر سنة (268هـ/881م)، فقام بن طولون بحبسه، كما أمر بقطع أيدي وأرجل الذين أغروا ابنه على الخروج ورماهم من فوق دكة عالية بناها لهم، ثم أمر بضرب ابنه وقام برده إلى الحبس[5]، وظل فيه حتى وفاته في عهد أخيه خمارويه[6].

خامساً: أهم أعمال أحمد بن طولون:

بعد سيطرة بن طولون على مصر، قام بعدة إنجازات أهمها:

---

(1)البلوي: المصدر السابق، ص249، بينما يذكر ابن خلدون: (المصدر السابق، 301/4) أن العباس اقترض من التجار مائتي ألف دينار،

(2) ينظر البلوي: (المصدر السابق، 250، 261) في المراسلات التي بين أحمد بن طولون وابنه العباس.

(3) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص97.

(*) ينظر الفصل الخامس في العلاقات الخارجية بين الدولة الطولونية والأغالبة في هذه الرسالة ص168.

(4) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص264.

(5) البلوي: المصدر السابق، ص268. كذلك ابن الأثير: المصدر السابق، 360/6، المقريزي: الخطط، 320/1، سيدة كاشف: المرجع السابق، ص99.

(6) عبدالله محمد جمال الدين: في تاريخ مصر الإسلامية، ص60. كذلك عمر رضا كحالة: العالم الإسلامي "مختصر تاريخ الدول الإسلامية"، المطبعة الهاشمية، ط2 (دمشق، 1958م) 113/2.

1- بناء مدينة القطائع:

أقام أحمد بن طولون في أول أمره في مدينة العسكر(*) أول التي أسسها أبو عون ثاني الولاة العباسيين على مصر سنة (135هـ/752م) غير أنها ضاقت بجندهِ وخدمهِ، فرأى أن يسير على سُنة عمرو بن العاص، وصالح ابن علي عم الخليفة العباسي الأول في تخطيط مدينة تسع جندهُ وتوفر لهم مرافق الحياة[1]، أراد أحمد بن طولون أن يؤسس لنفسه دار حكم جديدة تظهر شخصيته فيها، وأراد أيضاً تجنب الخطر الذي جعل الخليفة المعتصم يُشيد سامراء فراراً من مضايقة جنوده الأتراك لسكان مدينة بغداد[2]، فقام ببناء مدينة سماها القطائع[3] بعد أن أخذ يبحث عن مكان يكون قريباً من الفسطاط، وعند صعوده إلى المقطم(**)، رأى أن هناك بقعة من الأرض مساحتها ميل مربع، ولا يوجد بها غير مدافن المسيحيين واليهود، فأمر أحمد بهدم تلك المدافن وإقامة عاصمته عليها، وذلك في سنة (256هـ/869م) فاتصل البناء بعمارة الفسطاط[4]، "وقطعت القطائع وسميت كل قطيعة باسم من سكنها، فكانت للنوبة قطيعة مفردة تُعرف بهم، وللروم قطيعة، وللفراشين قطيعة تعرف بهم، ولكل صنف من الغلمان قطيعة تُعرف بهم، وبنى القواد مواضع مختلفة متفرقة، فعمرت القطائع عمارة حسنة حتى

(*) العسكر اصطلاحاً: يعني مُجمع الجيش ولهذا سُمِّيَ المكان المخصص لإقامة الجند بالعسكر، وقامت العسكر سنة (133هـ/750م) على إثر سقوط الدولة الأموية، وسمي بهذا لأن عسكر صالح بن علي الهاشمي، وأبي عون عبدالملك ابن يزيد نزلا هناك = ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر (بيروت، د.ت) ص65. كذلك شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية (طرابلس، 1987) ص334.

(1) أبو الحمد محمود فرغلي: الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، 1991) ص86. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص424.

(2) أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر، دار الشعب (القاهرة، د.ت) 480/2. كذلك زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر من الفتح العربي إلى نهاية العصر الطولوني، دار الرائد العربي (بيروت، د.ت) ص56.

(3) شمس الدين أبي عبدالله الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر (د.م، د.ت) 230/2.

(**) المقطم: سمي بذلك لأن المقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام كان ينزله.

(4) عبدالرحمن زكي: القاهرة تاريخها وأثارها (969هـ/1825م) من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ، الدار المصرية للتأليف والترجمة (مصر، 1966) ص6.

صارت مدينة كبيرة"[1]. كما تفرقت في القطائع "السكك والأزقة وبنيت فيها المساجد والطواحين والأفران وسميت أسواقها، فمنها سوق العيارين[*] يجمع فيه البزازين، والعطارين والفاميين[**] يُجمع فيه الجزارين والبقالين... ثم لكل صنف من جميع الصنائع أفرد له سوقاً حسناً عامراً نبيلاً"[2].

صار تخطيط القطائع تقليداً للأساليب العراقية، وتقليداً لتخطيط مدينة سامراء، وأغلب الظن أن أحمد بن طولون كانت لديه رغبة في منافسة بلاط الخليفة العباسي، وحبه للعظمة والأبهة، وبذلك أصبحت القطائع ثالث العواصم الإسلامية في مصر بعد الفسطاط والعسكر[3].

2- جامع ابن طولون:

بعد بناء القطائع بدأ البناء في جامع الأمير أحمد بن طولون، وكان السبب في بناء هذا الجامع وعمارتهِ هو أن أهل مصر شكوا من ضيق العسكر بالمصلين يوم الجمعة بالجند والسودان، فأمر ببناء الجامع[4]، وكان ذلك سنة (263هـ/876م)[***]

---

(1) ابن دقماق: المصدر السابق، ص131. كذلك المقريزي: الخطط، 315/1، عبدالرحمن زكي: المرجع السابق، ص7.

(*) العيار: الكثير المجيء والذهاب ولعله يقصد المكثرين من المساومة في الشراء والبيع = البلوي: المصدر السابق، ص53.

(**) الفامي: بائع الفوم أي الثوم والحنطة والحمص والخبز وسائر الحبوب التي تخبزهُ = البلوي: المصدر السابق، ص54

(2) البلوي: المصدر السابق، ص53. كذلك المقريزي: الخطط، 315/1.

(3) صلاح حسين العبيدي وطلعت رشاد: أثر العمارة العراقية في العمارة المصرية في العصر العباسي، مجلة المؤرخ العربي، العدد الأربعين، السنة الرابعة عشر، تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب (بغداد، 1989م) ص240. كذلك زكي محمد حسن: المرجع السابق، ص56، أبو الحمد فرغلي: المرجع السابق، ص86.

(4) أبو عمر محمد بن يوسف الكندي: الولاة والقضاة، مهذباً ومصححاً بقلم رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين (بيروت، 1908م) ص219. كذلك المقريزي: الخطط، 320/1، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص328.

(***) اختلف المؤرخون في سنة بناء الجامع فالكندي (الولاة والقضاة، ص219) والمقريزي: (المقفى، 422/1) يذكران بناء الجامع تم في سنة (264هـ/877م) بينما يذكر جلال الدين السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية (بيروت، 1997م) 218/2، أن بناء الجامع تم في سنة (263هـ/876م).

وأتموا البناء سنة (265هـ/878م) وأُخذ هذا التاريخ من الكتابة التاريخية التي كانت منقوشة على لوح الرخام بالخط الكوفي[1]، وجاء فيها :"أمر الأمير أبو العباس أحمد بن طولون ... ببناء هذا الجامع المبارك الميمون من خالص ما أفاء الله عليه لجماعة المسلمين، ابتغاء رضوان الله والدار الآخر في شهر رمضان من سنة خمس وستين ومائتين"[2]. وقيل كذلك إن أحمد عندما أراد البناء قال: "أُريد أن أبني بناءً إن احترقت مصر بقي وإن غرقت بقى"[3]، فأُشير عليه أن يُبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوي إلى السقف، ولا يجعل فيه أساطين رخام، فإنه لا صبر له على النار[4]، ويشير البلوي إلى أن مهندس الجامع رجل نصراني بارع في الهندسة حاذقاً بها، وأن اسمه سعيد بن كاتب الفرغاني[5]، وعند الانتهاء من بناء الجامع أمر أحمد بن طولون "بعمل دائرة منطقة عنبر معجون ليفوح ريحها على المصلين"[6]، وقام بعمل ميضأة في مؤخر الجامع وخزانة شراب فيها جميع الأشربة والأدوية، وجعل عليها خدماً وطبيباً يجلس يوم الجمعة لحادث يحدث للمصلين[7]، فكان بناء هذا الجامع على طراز جامع سامراء من حيث تخطيطه وزخارفه وشكل مآذنه، حيث أراد أحمد بن طولون بذلك التخلص من التأثيرات البيزنطية وأخذ أصول البناء من الفن العراقي[8]، وقد أنفق أحمد على بناء الجامع مائة وعشرين

---

(1) المقريزي: الخطط، 266/2. كذلك زكي محمد حسن: المرجع السابق، ص37، سيدة كاشف: المرجع السابق، ص 246.

(2) أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف (الإسكندرية، 1961) ص104. كذلك محمد عكوش: المرجع السابق، ص22، 23.

(3) ابن دقماق: المصدر السابق، ص123. كذلك مصطفى طه بدر: مصر الإسلامية (من الفتح الإسلامي حتى زوال الدولة الإخشدية)، مكتبة النهضة المصرية، ط2 (القاهرة، 1959) ص167.

(4) المقريزي: المصدر السابق، 266/2. كذلك محمد وصفي محمد: دراسات في الفنون والعمارة العربية الإسلامية، دار الثقافة للطباعة والنشر (القاهرة، 1980) ص186.

(5) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص181، 182. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص247.

(6) السيوطي: المصدر السابق، ص218. كذلك حسن الباشا: تصميم جامع ابن طولون، مجلة منبر الإسلام، العدد الثاني عشر، السنة السابعة والعشرون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (القاهرة، 1970) ص145.

(7) ابن دقماق: المصدر السابق، ص123.

(8) محمد مصطفى: بناة القاهرة المسلمون، مجلة الرسالة، العدد خمسمائة وأحد عشر، السنة الحادية عشر، دار الرسالة (القاهرة، 1943) ص1943. كذلك أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي،=

ألف دينار[1]، وعند إكمال البناء أشار على الناس بالصلاة فيه، غير أنه لم يجتمع فيه أحد، وظنوا أن أحمد بناهُ من مالٍ حرام، فعلم أحمد بذلك، فخطب فيه وأقسم أنهُ ما بنى هذا المسجد من مالهِ وإنما بكنزٍ[*] ظفر بهِ، وأن العشار الذي وضع نصبه على منارتهِ وجدهُ في الكنز[2]، فصلى الناس فيه عند سماعهم هذا، كما صلى كذلك القاضي بكار بن قتيبة إماماً، وخطب فيه أبو يعقوب البلخي، وأملى فيه الحديث الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعي، ودفع لهُ أحمد في ذلك اليوم ألف دينار، فكانت من أشهر كلماتهِ فيما روي عن النبي (ﷺ) "من بنى مسجداً ولو كمفحص قطاةُ بنى الله له بيتاً في الجنة"[3].

3- المارستان "البيمارستان"[*]:

قام أحمد ببنائهِ وذلك لمعالجة المرضى وجميع الأمراض والعلل وكان ذلك سنة (259هـ/872م)، ولم يكن في مصر في تلك الفترة مارستاناً، ويقع بين الفسطاط والقطائع، وذكر أن المبلغ الذي أنفقهُ أحمد بن طولون في بنائه وعلى مشتغليه بلغ ستين ألف دينار[4]. كما كان يُعرف بالبيمارستان الأعلى أو العتيق، وقد اشترط فيه أحمد على

=مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية، د.ت) ص131، جمال الغيطاني: القاهرة، عالم من المآذن، مجلة العربي، العدد مائتين وثلاثة وأربعين، تصدرها وزارة الإعلام (الكويت، 1979) ص53، 54.

(1) محي الدين أبو الفضل بن عبدالظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، حققه وقدم له وعلق عليه أيمن فؤاد سيد، أوراق شرقية للطباعة والنشر (بيروت، 1996) ص76.

(*) يذكر كل من المقريزي: (الخطط، 2/266، 267) والسيوطي: (المصدر السابق، 2/218، 219) حديث الكنز بأن أحمد بن طولون ركب يوماً يتصيد بمصر فغاصت قوائم فرسهُ في الرمل، فأمر بكشف ذلك الموضع، فظهر لهُ كنزُ فيه ألف ألف دينار، فأنفقها في أبواب البر والصدقات وبنى منها الجامع.

(2) السيوطي: حسن المحاضرة، 2/218.

(3) السيوطي: المصدر السابق، 2/219. كذلك فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (القاهرة، 1970) 1/430، أحمد رمزي بك: جامع أحمد ابن طولون: مجلة الرسالة، العدد خمسمائة وأربعون، السنة الحادية عشرة، دار الرسالة (القاهرة، 1943) ص897.

(*) البيمارستان: بفتح الراء وسكون السين كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض أو عليل أو مصاب و(ستان) بمعنى مكان أو دار لمعالجة المرضى (المستشفى) ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان = أبو داود سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية (القاهرة، 1955) ص78.

(4) ابن دقماق: المصدر السابق، ص99. كذلك علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ص435.

أن لا يُعالج فيه جندي مملوك، وحَّرم أخذ أجر عند العلاج أو الإقامة للاستشفاء فيه[1]، وإذا دخل المريض تُنزع ثيابه ويُوّدع ما معهُ من المال عند أمين البيمارستان، وتُقدّم لهُ الثياب الخاصة، ومكان يتوفر فيه الراحة، ويباشر الأطباء بفحص المريض وإعطائهِ ما يلزم من الأدوية مجاناً، وكانت إحدى علامات الشفاء هــو تقــديم دجاجــةٍ ورغيــف للمريض، إذا أكلها تَّم له الإذن بمغادرة المارستان، وتُردّ لهُ ثيابه ونقودهِ[2].

كما وصل حرص أحمد بن طولون على البيمارستان حيث كان يقوم بتفقد أعمال الأطباء والإشراف على المرضى، وإدخال السرور عليهم ومواساتهم، فكان يقوم بهــذا كل جمعة، مع تفقد خزائن المارستان التي بها ما يزيد عن مائة ألف مجلد فــي ســائر العلوم وما فيها من العقاقير النفيسة الخطيرة، والترياقات التي لا توجد إلا في خــزائن الملوك والخلفاء[3].

4- إنشاء القناطر والآبار:

من الأسباب التي جعلت أحمد بن طولون يفكر في بناء القناطر وحفر الآبار، أنه كان ذات يوم يمر لتفقد أحوال رعيته، فمر في منطقة المعافر جنوب شــرق الفســطاط وكان بها مسجداً يُسمى مسجد الأقدام، وكان فيهِ خياط، فجاءه أحمد وكان شديد العطش، فقال للخياط: "يا خياط أعندك ماء؟ فقال لهُ نعم، فأخرج كوزاً بهِ ماء وقال لهُ اشرب ولا تمد[*]، فما كان على أحمد إلا أن تبسم وشرب حتى مد فيه ثم ناوله إياه وقال: يا فتــى سقيتنا وقلت لا تمد، فقال نعم أعزّك الله موضعنا هنا منقطع، وإنما أخيط جمعتي حتــى أجمع ثمن رواية ماء، فقال ابن طولون: والماء ها هنا معوز؟، فقال نعم"[4]. فعلم أحمــد

---

(1) أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستان في الإسلام، دار الرائد العربي، ط2 (بيروت، 1981)، ص4.

(2) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص180. كذلك فؤاد فرج: القاهرة تاريخ المدن القديمة ودليل المدينــة الحديثة، مطبعة المعارف ومكتبتها (مصر، 1944) ص361، أحمد مختار العبادي: المرجــع الســابق، ص132.

(3) البلوي: المصدر السابق، ص180. كذلك عبدالمنعم أبو بكر وسعاد ماهر وآخرون: القاهرة في ألف عام 969-1969م، دار الكاتب العربي (القاهرة، 1969) ص17، سيدة كاشف: المرجع الســابق، ص253، أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستان، ص39.

(*) أي لا تشرب كثيراً = علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص332.

(4) زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر، ص65. كذلك أحمد عبدالرازق أحمد: تاريخ وآثار مصــر الإسلامية، ص115.

بأن الماء منقطع، فعند عودته إلى قصره طلب إحضار ذلك الخياط، فقال لهُ أحمد بن طولون: سر مع المهندسين ليقيموا البئر(*)، ويجروا الماء، وقام بإعطائه ألف دينار، كما صار أحمد ينفق على الخياط راتباً شهرياً قدرهُ عشرة دنانير، وقال لهُ بشرني ساعة يجري الماء، ففعل الخياط ذلك وجاء لأحمد مبشراً بذلك، فقام أحمد واشترى للخياط داراً يسكنها وأجرى عليهِ الرزق، ويقدر المبلغ الذي أنفقه أحمد على هذا البناء بمائة وأربعين ألف دينار(1)، وتشير أغلب المراجع على أن الذي تولى البناء هو نفس المهندس النصراني الذي قام ببناء الجامع، ولم يكن لهذه القناطر نظيرُ، وذلك بسبب موقعها الذي جعل الجميع في حاجة إليها، فأمر بن طولون بعد ذلك بأن تظل مفتوحة طوال النهار لمن كشف وجههُ للأخذ منها، ولمن كان له غلام أو جارية، أما الليل فخصصهُ للفقراء والمساكين(2).

كان بناء هذه القناطر مثالاً على ما رآه أحمد بن طولون في طرسوس حين أقام فيها، فقد كانت القناطر مقامة على أعمدة لكي تصل المياه إلى الأماكن التي يتعذر وصول الماء إليها، كما أن لهذه القناطر أهمية كبرى للأهالي فلم تكن لديهم وسائل نقل متوفرة لنقل الماء إلى الصحراء، وقد وصف بعض الشعراء هذه القناطر بقولهِ:

وعين معين الشرب عين زكية ... وعين أجاج(**) للرواة وللطهر
كأن وفود النيل في جنباتها ... تروح وتغدو بين مد إلى جزر
فأرفأها(***) مستنبطاً لعينها ... من الأرض من عميق إلى ظهر
يمر على أرض المعافى كلها ... وشعبانة والأحور الحي من بشر
قبائل لا نوء السحاب يمدها ... ولا النيل يرويها ولا جدول يجري(3).

(*) عرف البئر الذي تم حفرهُ باسم "العفصة الكبرى" = ابن عبدالظاهر: المصدر السابق، ص58. كذلك أحمد عبدالرزاق أحمد، المرجع السابق، ص115.

(1) البلوي: المصدر السابق، ص351. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص433، مصطفى طه بدر: المرجع السابق، ص170.

(2) أحمد عبدالرازق أحمد: المرجع السابق، ص116.

(**) مالحة = علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص434.

(***) أخرجها = المرجع السابق، ص434.

(3) المرجع السابق، ص434.

2- قصر أحمد بن طولون "الميدان":

بعــد أن قام أحمد بن طولون ببناء القطائع، أنشأ لنفسهِ قصراً فخماً، أقام فيــه، وألحــق بهِ حديقــة بلغ من ضخمتها واتساع رقعتها أن أطلــق علــى القصــر اســم الميدان[1].

لقد اختط القصر في شعبان سنة (256هـ/869م) ، وكان ابن طولــون وكبــار دولتهِ يلعبون في الميدان بالصوالجة[***]، وكان كل من أراد الدخول أو الخروج بغــض النظر سواءً كان كبيراً أو صغيراً إذا سُئل عن ذهابه يقول: إلى الميدان، ويشير كلُ من البلوي والمقريزي بأن للميدان أبواباً عديدة سُمي كل باب باسم، فمنها باب الميدان فكان لدخول وخروج معظم الجيش، وباب الصوالجة، وباب الخاصة، وباب الجبل الذي يلــي المقطم، وباب لا يدخله إلا حرمه أو الخادم، وباب سمي باسم صاحبه كان يجلس عليــه يقال له الدرمون وهو حاجب أسود عظيم الخلقة، يتقلد جنايات الغلمان السودان، كــذلك باب دعناج، لأنه كان يجلس عندهُ حاجب يُقال له دعناج، وباب الساج لأنه عُمِلَ من هذا الخشب، وباب الصلاة يخرجون منه إلى الجامع، وباب السباع لأنه صُور عليه صــورة سبعين من الجبس[2]، وكانت هذه الأبواب في الغالب لا تفتح كلها إلا في يوم العيــد أو يوم الصدقة ويوم عرض الجيش، وتفتح على ترتيب في وقت وتغلق في وقت مُعين[3]، وعلى باب السباع مجلس يشرف منه أحمد بن طولون ليرى حركات الغلمان ومن يدخل ويخرج من القصر وذلك في ليلة العيد، وكان يشرف منهُ أيضاً على البحر وعلى بــاب مدينة الفسطاط وما كان يلي ذلك فهو مُتنزه حسن[4]، كما أنفق أحمــد علــى القصــر والميدان أكثر من خمسين ألف دينار، وقد جعل فيه أيضاً أماكن للطيور ومرابط للسباع، وغرس فيه الأزهار والرياض وأصبح هذا القصر متعة للناظرين ومن أهــم المنشــآت

---

(1) المقريزي: الخطط، 315/1.

(*) المراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الإنجليز والفرنسيين باسم "البولو" وهي شبيهة بلعبة كــرة القــدم = حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ط7 (القاهرة، 1965) 409/3.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص54، 55. كذلك المقريزي: الخطط، 315/1، أحمــد عبــدالرازق أحمــد: المرجع السابق، ص110، عمر رضا كحالة: الفنون الجميلة في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونيــة (دمشق، 1972) ص93.

(3) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 16/3. كذلك فؤاد فرج: المرجع السابق، ص355.

(4) المقريزي: المصدر السابق، 315/1.

التي قام بها أحمد داخل القطائع[1].

6- حصن الجزيرة "الروضة":

بنى أحمد بن طولون الحصن في سنة (263هـ/876م) على الجزيرة التي بين الفسطاط والجيزة، وأراد بهذا البناء أن يكون معقلاً له ولحرمهِ وذخائرهُ ومالهُ، وخاصةً عندما وقع خلاف بينهُ وبين الموفق[*]، فرأى أحمد بن طولون بناء هذا الحصن للدفاع عن نفسه وعن خاصته، خاصة وأن الموفق أرسل موسى بن بغا أحد قواده على جيش لمحاربة بن طولون، إلا أنه تُوفي قبل وصوله[2]، وعند وصول خبر وفاة موسى بن بغا، أبطل أحمد إتمام هذا الحصن رغم أنه أنفق عليه ثمانين ألف دينار بينما يذكر البلوي أن أحمد أنفق على بناء هذا الحصن مائتي ألف دينار ذهباً، وكان قد ألزم قادتهِ وثقاتهِ بالإشراف على العمل. هذا ولم يهمل أحمد أيضاً الإشراف كل يوم على هؤلاء العُمال، وكان سخياً، وأنفق على الحصن المال الكثير، حتى قيل إن "كل طوبة في الحصن وقفت عليه بدرهم صحيح"[3].

هذا وقد استغرق بناء هذا الحصن والعمل فيه عشرة أشهر، و"ظل الحصن قائماً بالجزيرة حتى أكلهُ النيل شيئاً فشيئاً"[4]. ويشير البلوي إلى هذا الحصن بعد أن أُبطِلَ العمل فيه بقوله: "فكان كأنه نار صب عليه ماء فخمد من وقته"[5].

ومن أشهر الأبيات التي وصفت هذا الحصن هو ما قاله الشاعر محمد بن داوود:

بَنَى الجزِيَرةَ حِصْناً يَسْتَجنُّ بهِ
بِالعَسْفِ والضَّربِ والصُّناعُ في تَعَبِ
لَهُ مَراكِبَ فَوْقَ النِيلِ راكــدةُ
فَمَا سِوىَ القَارِ للِنُّظَّارِ والخَشَــــــبِ
يُرى عليها لِبَاسُ الذُّلِ مُذْ بُنَيتْ

---

(1) أحمد مجاهد ومحمد مصطفى النجار: المرجع السابق، ص163. كذلك مصطفى طه بدر: المرجع السابق، ص166.

(*) ينظر في الفصل الخامس في العلاقات الخارجية بين الطولونيين والعباسيين.

(2) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص86، 87. كذلك السيوطي: حسن المحاضرة، 319/2.

(3) البلوي: المصدر السابق، ص87. كذلك أحمد عبدالرازق أحمد: المرجع السابق، ص114.

(4) فريد شافعي: المرجع السابق، ص520.

(5) البلوي: المصدر السابق، ص88.

بالشَّطّ مَمْنُوعةً من عزّةِ الطَّلَـــــبِ

فَما بَناها يغزو الرُّومَ مُحتَسبـــاً

لِكنْ بَنَاهَا غَدَاةَ الردّع لِلْهَـــــرِبِ(1).

وقال الشاعر سعيد القاص:

وإن جئتَ رأس الجسر فانظر تأمُلاً

إلى الحصن أو فاعْبُر إليهِ على الجِسرِ

ترى أثراً لم يبق من يستطيعـــهُ

من النّاس فِي بَدْوِ البلاد ولا حَضْر(2).

مسجد التنور:

قام أحمد بن طولون بإنشاء مسجد آخر على جبل يشكر سنة (259هـــ/872م) وعُرف باسم "مسجد التنور" وكان بناء هذا المسجد علـــى موضـــع يُقـــال لـــه "تنـــور فرعون"(3) تشتعل فيه النيران، كلما خرج أحمد من قصرهِ في موكب إلـــى جهـــة مـــن الجهات التي يريدها، كما قام ببناء منارة ليهتدي به من ضـــل الطريـــق، وجعـــل فيـــه صهريجاً للماء(4)، وكان هدف أحمد من بنائه هو أنه رأى كثرة النازحين إلى هذا المكان دون أن يكون فيه مسجد لأداء المارة الصلاة، ومع هذا فإن هذا المسجد لم تقم فيه صلاة الجمعة، لأن المصلين فضلوا الصلاة في المساجد القريبة منهم(5)، وظل هـــذا المســـجد قائماً إلى أن خرج إليه وصيف قاطرميز وهو من ضمن قادة بن طولون قام بهدمهِ، ظناً منه أن تحته مالاً فهدمهُ ولم يجد شيئاً(6).

وقد ذكر أحد الشعراء الطولونيين مسجد التنور في أبيات:

وتنور فرعون الذي فوق قُلةِ

---

(1) الكندي: الولاة والقضاة، ص218، 219.

(2) السيوطي: حسن المحاضرة، 320/2.

(3) علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ص431. كذلك محمد عكـــوش: المرجـــع الســـابق، ص122.

(4) المقريزي: الخطط، 180/2. كذلك محمد عكوش: المرجع السابق، ص122.

(5) زكي محمد حسن: المرجع السابق، ص36. كذلك أحمد عبدالرازق: المرجع الســـابق، ص115، ســـيدة كاشف: المرجع السابق، ص254.

(6) زكي محمد حسن: المرجع السابق، ص36.

على شاهقٍ عالٍ على جبلٍ وعر
بنى مسجداً فيه يفوقُ بناؤه
ويهدي بهِ في الليل إن ضل من يسري
تخالُ سَناً قنديلهِ وضياءهُ
سهلاً إذا ما لاح في الليل للسفـــــــر [1]

8- وفاة أحمد بن طولون:

توفي الأمير أحمد بن طولون صاحب ديار مصر والشام سنة (270هـ/883م) يوم الاثنين، في ذي القعدة، وكان له خمسون سنة[2]، وذلك بعد مسيرته إلى طرســوس ورجوعه منها، وعند وصوله لأنطاكية قُدِّم له لبن جاموس فأكثر منه فأصــابته تخمــة فمات[3]، وقيل مات بزلق الأمعاء[4]، وعندما اشتد مرض أحمد بن طولون خرج المسلمون بالمصاحف واليهود بالتوارة والنصارى بالإنجيل، والمعلمون بالصبيان وكَثُر الدعاء فــي الصحراء والمساجد، وعندما أحس أحمد بالموت رفع يديه وقال: "يا رب ارحم من جَهِــل مقدار نفسهِ وأبطره حكمك عنه"[5]. وعندما بلغ المعتمد وفاة أحمد بن طولون قال:

إلى الله أشكو آسي
عراني كوقع الأسل
على رجـــل أروع
يرى فيه فضل الرجل
شهاب خباء وقده
وعارض غيث أفل
إذا أمه القاصدون
حباهم جميع الأمل[6]

---

(1) الكندي: الولاة والقضاة، ص255.
(2) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، 18/3.
(3) عماد الدين إسماعيل أبي الفداء: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية (مصــر، د.ت) 53/2.
(4) جمال الدين خليل ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة، تحقيق عصام هزايمة وآخرون، دار الكندي (الأردن، 1999) 130/2.
(5) ابن الجوزي: المصدر السابق، 73/5.
(6) المقريزي: المقفى، 425/1.

كانت ولاية أحمد بن طولون سبع عشرة سنة، وقد ترك من الأولاد ثلاثة وثلاثين ولداً، وترك عشرة آلاف ألف دينار، وكان له من المماليك سبعة آلاف، ومن الغلمان أربعة وعشرون ألفُ، ومن الخيول ألفاً، وكذلك البغال والحمير والجمال، وألف مركبة من المراكب الحربية، وكان خراج مصر في أيامه أربعة آلاف درهم وثلاثمائة ألف دينار[1].

كان أحمد كثير الصدقات، ويصل ما يتصدق به في كل أسبوع ثلاثة آلاف دينار، ويجري على أهل المساجد في كل شهر ألف دينار[2]، كان أحمد عادلاً، جواداً شجاعاً متواضعاً حسن السيرة، يُباشر الأمور بنفسه يحب أهل العلم ويدني مجالسهم[3]، كما أنه حسن التزهد شديد التقشف وكانت له فراسة صادقة، وكذلك "كان طائش السيف، فأُحِصَى من قتله صبراً أو مات في سجنه فكانوا ثمانية عشر ألفاً، وسُئِلَ شيخ كان يقرأ عند قبر أحمد بن طولون ثم انقطع، فقال: كان والينا في هذا البلد، وكان له علينا بعض العدل ولم يكن الكل فأحببت أن أصله بالقرآن، فرأيته في المنام وهو يقول: أحب أن لا تقرأ عندي، فما يمر بي آية إلا قرعت"[4].

---

(1) أبو الحسن علي أبو الحسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس (بيروت، د.ت) 122/4. كذلك ابن الجوزي: المنتظم، 73/5، غريغوريس الملطي المعروف بابن العبري: تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية (بيروت، 1958) ص147.

(2) ابن الجوزي: المصدر السابق، 73/5.

(3) الأزدي: المصدر السابق، 124/1.

(4) ابن الجوزي: المصدر السابق، 73/5. كذلك الأزدي: المصدر السابق، 124/1، الحنبلي: المصدر السابق، 157/2،

الفصل الثاني

خلفاء أحمد بن طولـــــون

أولاً: خمارويه بن أحمد بن طولــون(270-282هـ/883-895م)

ثانياً: أبو العساكر جيش بن خمارويه(282-283هـ/895-896م)

ثالثاً: هارون بن خمارويـــــــــــه(283-292هـ/896-904م)

رابعاً: شيبان بن أحمد بن طولـــــون(292هـ/904م)

أولاً: خمارويه بن أحمد بن طولون (270-282 هـ/ 883-895م):

هو أبو الجيش ابن الأمير أحمد بن طولون[1]. المعروف بخمارويه[*]، وقيل خمار[**] السَامَريَّ المولد، المصري النشأة والوفاة، ولد خمارويه في محرم سنة (259هـ/[***] 872م) من أم ولد تُسَمَّي "مياس" وقدم بعد ذلك إلى مصر فأقام مع أبيه الذي استخلفه على الفسطاط عند خروجه إلى الشام في صفر سنة (270هـ/883م) إلى أن عاد وهو في أشد المرض في جمادي الآخرة من نفس العام، وعند وفاته اجتمع الجند والغلمان، وبايعوا أبو الجيش خمارويه يوم الأحد العاشر من ذي القعدة سنة (270هـ/883م). وهو في العشرين من العمر، وكانت ولايته في أيام المعتمد على الله (256-279هـ/869-892م)[2].

الصعوبات التي واجهت خمارويه:

كان على خمارويه مواجهة بعض الصعوبات وكان أول ما قام بمواجهته هو أخوه العباس الذي امتنع عن مبايعته وتنفيذ وصية أبيه في ذلك[3] فقُتل على يد سعد الأعسر[****] وطبارجي بعد أن فشل الواسطي في إقناعه بمبايعة أخيه، والتفت بعد ذلك

---

(1) ثقة الدين أبو القاسم علي ابن عساكر: تاريخ ابن عساكر، 176/5.

(*) خمارويه: بضم الخاء المعجمة وفتح الميم وبعدها ألف ثم راء ثم واو مفتوحتان ثم مثناه من تحت ثم هاء مكسورة ابن أحمد بن طولون = أبو محمد عبدالله بن أسعد اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مؤسسة الأعلمى، ط2 (بيروت، 1970) 194/2.

لم أجد معني لفظه خمارويه غير ما نقلهُ الزركلي في هامشه: خمارويه: كغُراب ابن أحمد بن طولون = خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، (د.م، د.ت) 371/2.

(**) خمار: الخَمار من الناس: جماعتهم وكثرتهم والخُمَار من الناس: خَمارهم يُقال دخل فلان في خُمار الناس: فيما يواريه ويستره منهم = إبراهيم مصطفي وآخرون: المعجم الوسيط، مطبعة مصر، (القاهرة، 1960م) 254/1.

(***) اختلفت المصادر في مولد خمارويه، فيذكر ابن عساكر (المصدر السابق، 176/5) كذلك المقريزي (المقفي، 812/3) أنهُ ولد سنة (250هـ/864م) بينما يذكر ابن تغرى بردى (المصدر السابق، 49/3) أنه ولد سنة (255هـ/868م).

(2) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 49/3. كذلك أحمد عبدالرازق: المرجع السابق، ص96.

(3) محمد كرد علي: خطط الشام، المطبعة الحديثة، (دمشق، 1925م) 204/1.

(****) يذكر المقريزي (المقفى، 813/3) وابن تغرى بردى (المصدر السابق، 51/3) سعد الأيسر ولي أمرة دمشق من قبل أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون = محمد كرد علي: المرجع السابق، 205/1.

خمارويه إلى توطيد سلطة الطولونيين وإكساب دولته الصفة الشرعية، حيث إن أخا الخليفة المعتمد أبو أحمد الموفق طلحة لا يزال في عداء مع الطولونيين، ولم يعترف بخمارويه والياً على مصر بحجة أنه لم يأخذ تفويضاً شرعياً من الخليفة في حين أخذ إسحاق بن كنداج عامل الموصل والجزيرة التفويض بحكمه من الخليفة قبل وفاة أحمد ابن طولون[1] وعند سماع بن كنداج ومحمد بن ديوداذ أبي الساج والي أرمينية بوفاة، أحمد طمعا في الشام، فقاما بمكاتبة الموفق وطلبا منه المدد والعون، كما تمكنا من ضم أحمد بن ذوغباش[*] في صفهما، والذي ضمَّ إليه خمارويه ولاية دمشق، وأراد بهذا ابن كنداج أن يثبت ولايته وتكون مدعّمة من قبل الخلافة العباسية على حساب أملاك الطولونيين[2]، فما كان على خمارويه إلا أن أرسل جيشاً سنة (270هـ/883م)، جعل القيادة في الجيش الأول لسعد الأعسر، والثاني لعبد الله الواسطي، وبعث مراكب في البحر لتقيم على السواحل الشامية، ونزل الواسطي فلسطين خائفاً من خمارويه أن يُوقِع به، لأنه كان قد أشار عليه بقتل أخيه العباس، فقام بمكاتبة أبي العباس أحمد المعتضد بن أبي أحمد الموفق بكتاب صغر فيه أمر خمارويه وحرضه على المسير إليه وقتاله وضم ما كتبه أبياتا من الشعر:

يا أيها المِلِكُ المرهوبُ جانِبهُ شَمرْ ذيولُ السُّرى فالأمرُ قد قُرِبَا
كَمْ ذا القُعُود ولم يَقْعدُ عُدوّكمُ عَنِ القتِالِ لقد أصبْحتمُ عَجَبَا
لَيسَ المْرِيدُ لما أصبْحَتَ تَطلُبُهُ إلاَّ المُشَمِّر عَن سَاقٍ وإنْ لَعِبَا
إنِي أرَاكَ على التفريطِ مُعْتَكِفاً وَاجْدِدْ فقد قال قومُ أنهُ ذهَبَا

---

(1) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، دار الفكر العربي، (القاهرة، 1966م) ص46.

)*(يذكر ابن الأثير: الكامل في التاريخ (429/6)، ابن دعباش، بينما يذكر ابن خلدون (المصدر السابق، 697/3) ابن دعامس، أما المقريزي: (المقفى، 813/3) والشيخ وطنوش الشدياق: كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، نظر فيه ووضح مقدمتهِ وفهارسه فؤاد الخرام البستاني، المكتبة الشرقية (بيروت، 1970) 499/2، بن بدغياش، وهو عامل الرقة والعواصم والثغور لابن طولون = ابن الأثير: المصدر السابق، 429/6.

(2) أمينة بيطار: الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (132-358هـ/750-968م) منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي (دمشق، 1980) 124.

فَأنتَ ذو غفلةٍ يقظانُ ذو سِنَةٍ   وطالب الوِترَ(*) ذو جِدّ إذا غَضِبا(1)

فما كان على أبي العباس إلا أن جاء من بغداد وقد انضم إليه كلُ من ابن كنداج وابن أبي الساج، بعد أن امتنع خمارويه من تسليم الشام، فنزلا الرقة، وتسلم قنسرين والعواصم، وقاتل الموفق أصحاب خمارويه وهزمهم ودخل دمشق ودعوا له على منابرها وسار(2). إلى شيزر(**)، وبعد سماع هذا الخبر، خرج خمارويه في جيش إلى الشام في العاشر من صفر سنة (271هـ/884م) فالتقى الموفق مع خمارويه على نهر أبي فطرس في فلسطين يقال له اليوم الطواحيين(***)، وكان جيش خمارويه يفوق جيش أبي العباس في العدد مما أثار دهشته، حيث بلغ عدد جيش خمارويه سبعين ألفاً في حين بلغ عدد جيش أبي العباس أربعة آلاف فقط، فقال ابن الموفق لابن الواسطي: "ويحك! غررتني ولم تنصحني، ما تفي عدتي والله بهذه العدة. فقال له الواسطي: لا يغرنك هذا، ولا يكثر في عينك ! أكثرهم عامة ما بين البقال والحائك، أنا أَنَبْتُهم وعلى يدي جرى أمرهم"(3).

نظم كل فريق جيشه من حيث التقسيم والتعبئة لمواجهة كل منهما الآخر، فكانت القيادة لخمارويه، ولسعد الأعسر الميمنة، أما الميسرة فكانت لأبي العباس، ففرقت جيوش خمارويه، وظن بذلك خمارويه أن الهزيمة حلت به وبجيشه، فهرب إلى مصر(****) واتبعه من كان معه، فنزل أبو العباس ودخل خيمة خمارويه وركع ركعتين، وغنم ما في الخيام، فبينما هم في هذا النصر خرج لهم كمين سعد الأعسر ولحقه من بقي في جيش خمارويه(4)، ونادوا بشعارهم "وصاحوا الرجعة! قد عاد الأمير إلى

(*) الوتر: الثأر = الكندي، ولاة مصر، ص259.

(1) الكندي: ولاة مصر، ص 258. كذلك محمد كرد علي: المرجع السابق، 205/1.

(2)ابن كثير: المصدر السابق، 49/11. كذلك ابن تغري بردي بردي: المصدر السابق، 50/3.

)**(شيزر: بتقديم الزاي على الراء وفتح أوله قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم وفي وسطها نهر الاربد = ياقوت الحموي: مُعجم البلدان، دار صادر (بيروت، 1957) 383/3.

) ***(الطواحين: جمع طاحونة الدقيق، موضع قرب الرملة في أرض فلسطين بالشام = ابن تغرى بردى: 50/3.

(3) المقريزي: المقفي، 814/3. كذلك محمد كرد علي: خطط الشام، 205/1

) ****(يشير المقريزي: المقفى، 814/3، بأن خمارويه عندما انهزم هرب إلى مصر في ثلاثة أيام وهو راكب حماراً، وتبعهُ من كان في القلب.

(4)ابن الأثير: المصدر السابق، 433/6. كذلك أبو الفداء: المصدر السابق، 53/2، الحنبلي: المصدر السابق، 161/2.

الضرب"[1]. فظن أبو العباس أن خمارويه قد عاد فانهزم وأخذ طريقه إلى دمشق تاركاً الغنائم، فمنعه أهلها من الدخول إليها، فذهب إلى طرسوس منهزماً، غير أن أهلها ثاروا ضده وأُخرج منها وعاد إلى بغداد، وظل الجيشان يقتتلان وليس عليهم أمير، فنصب سعداً أبا العشائر أخو خمارويه أميراً عليهم عندما افتقد خمارويه، فتمت الهزيمة على العراقيين، وتم قتل وأسر الكثير منهم، فقال سعد للعساكر "إن هذا أخو صاحبكم وهذه الأموال تنفق فيكم، ووضع العطاء فاشتغل الجند عن الشغب بالأموال"[2]، وبهذا استطاع سعد استعادة كافة المناطق في الشام وإدخالها في طاعة خمارويه[3].

عند وصول نبأ النصر أقيمت الاحتفالات، رغم شعور خمارويه بالخجل من الهزيمة في البداية إلا أنه سُرَّ بهذا النصر، فخرج إلى بلاد الشام للمشاركة في فرحة النصر، فوزع الأموال والصدقات، وأطلق سراح الأسرى، وظلّ فيها شهراً عاد بعدها إلى الفسطاط[4].

ونستنتج مما سبق أن هزيمة خمارويه في بداية هذه المعركة لم تكن لكثرة جيوش أبي العباس، بل كانت في عدم درايته بأمور الحرب، حيث لم يشارك أباه قتالاً قبل هذه الوقعة.

كان على خمارويه العودة إلى الشام مرة أخرى في ذي القعدة سنة (272هـ/885م)، لقتال سعد الأعسر، رغم وثوقه فيه في البداية، إلا أنه سرعان ما غير رأيه بعد أن تمرد عليه واستخف به وحط من شأنه عندما يتحدث عليه أمام أتباعه[*]، فكانت هذه الأخبار تصل سريعاً إلى خمارويه فتضايقه، لذلك كان على خمارويه الخروج والمسير إلى الرملة، حيث قتل سعداً[5]، في قصر نخلة فيما بين الرملة وبيت

---

(1) المقريزي: المصدر السابق، 815/3.

(2) ابن الأثير: المصدر السابق، 433/6. كذلك أحمد إسماعيل علي: تاريخ بلاد الشام، ص54.

(3) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص127

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المصدر السابق، 433/6-434. كذلك ابن خلدون، المصدر السابق، 306/4.

(*) كان سعد الأعسر يصف خمارويه بأنه صبي مشغول باللهو، بينما يُكابد هو الشدائد = شمس الدين محمد الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط2 (بيروت، 1994) 354/17. كذلك أمينة بيطار: المرجع السابق، ص128.

(5) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 128.

المقدس[1] ودخل بعدها دمشق في السابع من محرم سنة (273هـ/886م)، فأثار مقتل سعد غضب أهالي دمشق، فقاموا بلعن خمارويه، حيث كانوا موالين لسعد نتيجة لما قام به من أعمال، منها المحافظة على أمن دمشق وطريق الحجاج عندما قام الأعراب بقطعه قبل ولايته بثلاث سنوات، وهذا ما دفع خمارويه للبقاء في دمشق لتهدئة الأمور، فعمل على التقرب من أهلها، وبعث من يقوم بإصلاح طريق الحجاج، كما قام بالإحسان إلى الفقراء والمساكين وأهل العلم، وبهذا استطاع استمالة أهل دمشق فأحبوه، فضمن بذلك بسط نفوذه وسلطانه على دمشق والمدن المجاورة لها[2].

أ- محاربة خمارويه لإسحاق بن كنداج:

سار خمارويه في سنة (273هـ/886م) لمحاربة ابن كنداج فكان اللقاء بينهما بأرض الرافقه[*]، فأنزل به الهزيمة وذهب ابن كنداج منهزماً حتى إلتجأ إلى قلعة ماردين[**] فطارده خمارويه وبعض أصحابه وتمت محاصرته، وعندما ضيق عليه الخناق طلب من خمارويه الصلح، وتم ذلك وتصاهرا، وتم الدعاء لخمارويه في المناطق التي كانت بيد ابن كنداج، وأقام ابن كنداج في عسكر خمارويه، ويقول في ذلك الشاعر القاسم بن يحيى المريمي:

أَتَانَا أَبُو الْجَيْشِ الأَمِيرُ بِيُمْنِهِ   فَشَرَّدَ عَنَّا الْجُورَ وافْتَقَر العُسّرُ
فَإِنْ يَكُ أَرْضُ الرقّتَينِ بِهِ اكتَسَتْ   ضِيَاءً وإِشْرَاقاً لَقَد أَظْلَمَتْ مِصرُ
فَسَائِلْ بِه إِسْحَاقَ إِذْ سَار نَحْوَهُ   بِجَيْشٍ كَعَرْضِ النِيّلِ يَقْدمُهُ النَّصرُ
تَبَاعَدَتِ الأَقْطَارُ مْنِهُ كَثافةً   فَفِي مَشِرقٍ قُطرُ وَفِي مَشْرقٍ قُطرُ

---

(1) المقريزي: الخطط، 321/1. كذلك محمد كرد علي: المرجع السابق، 1/ 205.

(2)المقريزي: الخطط، 321/1، كذلك ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، 51/3، عمر محمد أبو القاسم: العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر والخلافة العباسية زمن الطولونيين (254-292هـ/868-905م) رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الفاتح، (طرابلس، 2004) ص 141، أمينة بيطار: المرجع السابق، 128.

(*) الرافقة: بلد متصل بالرقة، وهو على ضفاف نهر الفرات = ياقوت الحموي: المصدر السابق، 15/3.

(**) قلعه مشهورة على قمة جبل الجزيرة المشرفة على دنيس ونصيبين وأمامها ربض عظيم ودورهم فيها كالدرج، كل دار فوق الأخرى ولا يوجد أحسن من قلعتها في الدنيا = ياقوت الحموي: المصدر السابق، 390/4.

فَأَبْلَسَ[*] إذْ قِيلَ الأميرُ بِبالــــسٍ[**]   وأَضحَى حَفِيف العَقْدِ إذْ عُقِدَ الجَسرُ
ولَمَّا رَأى الجيشَ ابن كنداج مُقبِـــــلاً   أرتهُ الْمَنَايَا الحُمْرَ أعلامُهُ الحُمْـــرُ
فَوَلَىَّ شديداً ذا ارتياع كأنَّـــــــــــه   بكلِ بلادٍ طائرُ مالَهُ وَكْـــــــــــرُ[1].

2- الصلح مع الموفق:

بعد صراعٍ ونزاع طويل بين الموفق وخمارويه فشل فيه الموفق في تحقيق رغبته في القضاء على دولة الطولونيين ومحاولة إبعادهم عن بلاد الشام، كتب خمارويه إلـــى الموفق يطلب منه الصلح، وفي هذه الأثناء، أدرك الموفق أن خمارويه رغم صغر سنه إلا أنه لا يقل عن أبيه أحمد في القوة والعزيمة[2]، فوافق على الصلح بشرط أن يـــدفع خمارويه للموفق ثلاثمائة ألف دينار[3]، وبعث الموفق كتاب الصلح مع الخادم فائق فـــي رجب سنة (273هـ/886م) إلى خمارويه وهو في دمشق ويحمل معـــه "الخلـــع وهـــي: خلعتان من خلع العامة، وسيفان من سيوفهم، وخلعة من خلع الخاصة، وخاتم من خواتم العامة، وتاج ومنطقة ووشاحان"[4] فجاء ومعه كتاب الصلح، وقد عرّف الخادم خمارويـــه، أن أمير المؤمنين المعتمد وأخاه الموفق، وابنه أبا العباس، قاموا بكتابته احتراماً لخمارويه، وفيه تولية خمارويه وأولاده على مصر والشام وعلى الثغور ثلاثين سنة[5]، مقابـــل ذلـــك الدعاء للخليفة، وأن يحمل إليه كل سنة مائتي ألف دينار، فَقُرِئ الكتاب على منبر جـــامع دمشق وحضره الناس، ثم عاد بعد ذلك خمارويه إلى الفسطاط وأمر بالدعاء لأبـــي أحمـــد الموفق وترك الدعاء عليه وترك التدخل في الشؤون الداخلية للخلافة[6].

كان لهذا الصلح أهمية كبيرة للدولة الطولونية إذ يعتبر اعتراف الخلافة العباســـية

(*) أبلس: دهش وتحير وانقطع ويئس = الكندي: ولاة مصر، ص261.

(**) بالس: بلدة بين حلب والرقة = الكندي: المصدر السابق، ص261.

(1) الكندي: ولاة مصر، ص 261. كذلك المقريزي: المقفي، 817/3.

(2) الكندي: الولاة والقضاة، ص 237. كذلك المقريزي: الخطط، 321/1، ابـــن تغـــري بـــردي: النجـــوم الزاهرة، 51/3، عبدالرحمن الرافعي وسعيد عبدالفتاح عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص 101.

(3) فليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، تحقيق كمال اليازجي، دار الثقافـــة، (بيـــروت، د.ت) 188. كذلك عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق،،143.

(4) المقريزي: المقفي، 817/3.

(5) المقريزي: الخطط، 321/1. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 51/3، عبـــداللطيف البرغـــوتي: المرجع السابق، ص193.

(6) المقريزي: المقفي، 818/3.

بولاية خمارويه أمراً مهماً، له أثر في تاريخ العلاقات بين الدولتين، وبـــذلك اســـتطاع خمارويه أن يعطى دولته اعترافاً رسمياً من الخلافة بدولتهِ، وبهذا دخلت هذه العلاقـــة مرحلة من الوفاق والسلام والهدوء. فكان من الطبيعي أن يتوقف لعن الموفـــق وســـبه، والدعاء له على منابر دمشق[(1)].

اعتقد خمارويه أن بهذا الصلح سيفرض الهدوء على الشام، غير أنه سرعان مـــا وصل إليه خبر خروج ابن أبي الساج، الذي سبق مصالحته من قبل، وقد خلع طاعتـــه رغم أنه أعطى ابنه رهينة كدليل على الوفاء بعهده، وعندما قدم ابن أبي الساج دفع إليه خمارويه مبلغاً قيمته ثلاثون ألف دينار، فقال ابن أبي أبا[(*)]: "خدعكم محمد بن ديوداذ إذا أعطاكم شيئاً بسيطاً يأخذ مثله منكم في كل يوم وأخذ منكم ثلاثين ألف دينار"[(2)] فخـــرج أبو الجيش من الفسطاط في ذي القعدة سنة (274هـ[(**)]/887م) وتم اللقـــاء فـــي ثنيـــة العقاب[(**)]، في دمشق وكان على ميسرة أبي الجيش أصحاب ابن أبي الســـاج، واشـــتد القتال وانهزمـــت ميمنة خمارويه، غير أنه ثبت مع خاصته وقاتل ابن أبي الساج حتى تم له النصـــر، وأسُتبيح معسكر ابن أبي الساج وأُخذت الأثقال والدواب التـــي كانـــت معه[(3)].

وبعث خمارويه طائفة من العسكر إلى حمص، سبقوا ابن أبي الساج لأخذ ما خلفه وقاموا بمنعه من دخولها والاستيلاء على خزائنها، فما كان عليه إلا الذهاب إلى حلـــب فمنعه خمارويه فسار إلى الرقة، ثم إلى الموصل، وخمارويه يواصل مطاردتـــه فعبـــر

---

(1) الكندي: الولاة والقضاة، ص238. كذلك سمير فراج: المرجع السابق، ص 72، أمينة بيطار: المرجـــع السابق، ص129.

)*(قائد من قواد خمارويه: كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد ابن العديم: زبدة الحلب في تـــاريخ حلـــب، عني بنشرة وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان، المعهد الفرنسي، (دمشق، د.ت)82/1.

(2) ابن العديم: المصدر السابق، 82/1. كذلك المقريزي: المقفى، 819/3.

) **(يذكر الأزدي: (أخبار الدول المنقطعة، 131/1) بأن خـــروج أبـــو الجـــيش خمارويـــه كـــان ســـنة (276هــ/889م).

) ***(ثنية العقاب: بالضم وهي ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطؤها القاصد من دمشق إلـــى حمـــص = ياقوت الحموي: المصدر السابق، 58/2.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 446/6. كذلك المقريزي: المصدر السابق، 820/3، ابن تغري بـــردي: المصدر السابق، 52/3.

الفرات[1] ووصل إلى بلد(*) وأقام بها وعمل له سرير طويل القوائم كان يجلس عليه في الفرات ويقول البحتري:

وَقَد تَدلَّت جُيُوشُ النَّصرْ مُنْزلـــةً   عَلَى جُيُوشِ أبي الجيشِ بن طُولُونا
يَوْم الثَّنِية إذ ثنى بِكرَّتِـــــــــــهِ   خَمسِينَ ألفاً رِجَالاً أوْ يَزيُدونَـــــــا[2].

وقال كذلك:

أمَا كان في يوم الثنية منظـــــرة   ومستمع ينبي عن البطشة الكبـــرى
وعطف أبي الجيش الجواد بكرة   مدافعة عن ديرمران(**) أو مقرى(***)

كتب خمارويه كتاباً يوبخ فيه ابن أبي الساج جاء فيه: "كان يجب يا قليل المروءة والأمانة أن نصنع برهنك ما أوجبه غدرك! معاذ الله أن تـــزر وازرة وزر أخـــرى"[3]، وبعث خمارويه إسحاق ابن كنداج وسير معه جيشاً وجماعة من القواد لطلب ابن أبـــي الساج فعبر دجلة، وأقام في تكريت، والتقى الطرفان(****) في معركة انتصر فيها ابـــن أبي الساج الذي تبع ابن كنداج وفلوله المنهزمة إلى الشام، إلا أنه فشل في دخولها[4].

وبعد ذلك عاد خمارويه في يوم الخميس السادس من شهر جمادي الأخـــر، ســـنة

---

(1) ابن الأثير: المصدر السابق، 446/6. كذلك ابن خلدون: المصدر السابق، 305/4، 306، يوسف إلياس الدبس: تاريخ سوريا في أيام الخلفاء إلى نهاية القرن الحـــادي عشـــر، المطبعـــة العموميـــة، (بيـــروت، 1900م)، 322/3.

() * بَلْد: بالفتح وسكون اللام جبل بحمى، بينه بين مُنشد مسيرة شهر = ياقوت الحموي: المصدر الســـابق، 482/1.

(2) الكندي: الولاة والقضاة، ص 239. كذلك ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، 83/1.

) **(ديرمران، اختارها العباسيون لحصانتها وجمال موقعها وطيب هوائها = محمد أحمد دهمان: في رحاب دمشق دراسات عن أهم أماكنها الأثرية ومقالات عن أهم حوادثها المجهوله وأبحاث ثقافيـــة، دار الفكـــر، (دمشق، 1982م)، ص 18.

) ***(مقري: هي في الأصل اسم لمخلاف من مخاليف اليمن وهي قرية شرقي الجبل، كان يتوصل منها إلى الجبل ثم يسير الإنسان في سفحه حتى يصل إلى ديرمران = محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، ص32.

(3) ابن العديم، المصدر السابق، 83/1.

)****(ينظر في الحرب القائمة بين ابن كنداج وابن أبي الساج: ابن الأثير: الكامل فـــي التـــاريخ 447/6-448.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 447/6.

(276هـ/ 889م) إلى الفسطاط، وخرج بعد ذلك في يوم الأحد(*) الرابع من شهر شوال من نفس السنة إلى الإسكندرية(1)، وفي سنة (277هـ / 890م) جاء الخبر إلى خمارويه أن يازمان(**) نائب طرسوس والثغور، دعى له أيضاً، وسبب ذلك أن خمارويه "حمل إليه ثلاثين ألف دينار قبل الدعاء له ليفرقها في سبيل الله وخمسمائة(***) ثوب وخمسمائة دراعة صوف تفرق في المطواعة وخمسين دابة وسلاحاً كثيراً، وعند وصول هذه الهدايا دعا له فحمل إليه خمارويه خمسين ألف دينار"(2).

ورد على خمارويه بعد عودته إلى مصر وفاة أبو أحمد الموفق في صفر سنة (278هـ/891م) بعد أن حاول القضاء على الدولة الطولونية، وإنهاء وجودها في مصر والشام، والذي كان من أشد الأعداء له، ثم في رجب سنة (279هـ/892م) توفى الخليفة المعتمد على الله(3)، وبويع المعتضد بن أحمد بن أبي الموفق بالخلافة، فأرسل إليه خمارويه هدايا عظيمة ونفائس ذات قيمة، مع الحسين بن عبد الله بن منصور(4) المعروف بابن الجصاص الجوهري(****)، فكانت "عشرون حملاً من المال، وعشرون خادماً على الخيول بسروج ولجم محلاة... وسبعة عشر فرساً مسرجة ملجمة، خمس بغلات مسرجة ملجمة... (5)" وأراد خمارويه بهذه الهدايا، كسب ود ورضا الخليفة

() * ورد في الكندي: الولاة والقضاة، ص 239، يوم الجمعة.

(1) المقريزي: المقفى، 830/3.

() ** ورد عند ابن الأثير (المصدر السابق، 456/6) والمقريزي: (المصدر السابق، 820/3) يازمان، بينما ورد عند ابن العديم: (المصدر السابق، 84/1) يازمار، أما ابن خلدون: (العبر، 307/4) فيذكر اسمه مازيار.

() *** في ابن العديم: (المصدر السابق، 84/1) مائة وخمسين ثوباً، أما المقريزي: (المصدر السابق، 820/3) خمسين ثوباً ديباجاً..

(2) ابن الأثير: المصدر السابق، 456/6. كذلك ابن العديم: المصدر السابق، 84/1.

(3) المقريزي: المصدر السابق، 821/3. كذلك عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق، ص 144.

(4) الأزدي: المصدر السابق، 131/1. كذلك ابن العديم: المصدر السابق، 85/1، ابن خلكان: وفيات الأعيان، 20/2.

( ) **** هو من كبار رجال الأعمال ذو الثروة الواسعة وكان مبعوث خمارويه للمعتضد، واسم عائلته معناهُ العامل في الجص وهو من قام بتدبير زواج ابنة خمارويه من المعتضد = س.د. جواتياين: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق عطية القوصي، وكالة المطبوعات (الكويت، 1980م) ص138.

(5) المقريزي: المقفى، 821/3.

ورغبتهِ في السلام، وما قد تتحصل عليه الخلافة من أموال وهــدايا إذا ســـاد الســـلام واستقامت بينهما الأمور، وكان الخليفة المعتضد على دراية ومعرفة ما لدى الطولونيين من مال وثراء، وحاجته إليه، ورغبة خمارويه في السلام، لذلك بادر المعتضد بمبادلـــة الهدايا مع خمارويه، فأرسل إليه رسولاً اسمه سنيف[1]، معه الخلع وكانت "اثنتي عشرة خلعة وسيفاً وتاجاً ووشاحاً، وذلك في سنة (280هـ / 893م)"[2].

وكانت تلك الهدايا التي أرسلها خمارويه، تأكيداً على استمرار العلاقة بينـــه وبـــين الخليفة المعتضد، كما كانت حافزاً لعقد معاهدة جديدة لا تختلف عن المعاهدة الأولى التـــي تنص على ولاية خمارويه وأولاده مدة ثلاثين سنة من الفرات إلى برقـــة[3]، وجعـــل لـــه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال، على أن يحمـــل في كل عام من المال مـــائتي ألـــف دينار عن ما مضـــى، وثلاثمائة ألف دينار عن كل عام للمستقبـــل[4]. وقد شـــكلت هذا الأمـــوال عبئاً ثقيلاً على خزانة الدولة الطولونية،غير أن خمارويه لم يجد مـــن هـــذا مفراً[5].

استطاع خمارويه بهذه المعاهدة استكمال شرعية دولته، وهذا ما عجز والـــده عـــن تحقيقه، وقد أعطـــت هذه المعاهدة لخمارويـــه الصلاحية فـــي تعيـــين القضـــاة وعُمّـــال الخراج[6].

أراد خمارويه المحافظة على هذه العلاقـــة وتقويتها، ولضـــمان اســـتمرار هـــذه المعاهدة والسلام، أرسل مع ابن الجصاص يسأل المعتضد بـــأن يـــزوج ابنتـــه قطـــر الندى[*]. للمكتفي (289هـ/901م) الذي كان ولياً للعهد، فقال المعتضـــد: "إنمـــا أراد أن

---

(1) الكندي: الولاة والقضاة، ص240. كذلك حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص116.

(2) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 53/3. كذلك على إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 80.

(3) ابن دقماق: المصدر السابق، ص67. كذلك أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر، 491/2.

(4) الكندي: الولاة والقضاة، ص240. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع الســـابق، ص 64، سمير فراج: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص 134.

(5) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 118.

(6) عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق، ص140.

)*(هي أسماء بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، اشتهرت بالعقل والجمال قرأت على يد أبي الحسين أحمـــد ابن حمزة بن علي بجامع دمشق = أبو الحسن على بن محمد المعافري المالقي: الحدائق الغناء في أخبـــار النساء، تراجم شهيرات النساء في صدر الإسلام، تحقيق وتقديم عائدة الطيبي، الـــدار العربيـــة للكتـــاب، (طرابلس، د.ت) 138. كذلك خليل البدري: موسوعة شهيرات النســـاء، دار أســـامة للنشـــر، (الأردن، 1998) ص203.

يتشرف بنا، وأنا أزيد في تشريفه أنا أتزوجها"[1] على مهر بلغ مليون درهم، وجلب لها العطور النادرة من الهند والصين والعراق، وكان مما خص به أبا الجيش خمارويه بدرة من الجوهر المثمن فيها در وياقوت، وأنواع من الجوهر، ووشاح، وتاج وإكليل وقيل قلنسوة وكرزن[*]، وتولى ابن الجصاص أمر الجهاز وحملها إلى المعتضد، وكان سبب غنى ابن الجصاص هو أنه اقتطع من الجواهر التي حملها وأعلم قطر الندى أن ما أخذه مودع لها عنده إلى وقت حاجتها، فماتت والجوهر عنده[2].

لم تكن قطر الندى تجاوزت الأربعة عشر عاماً حين خطبها المكتفي، غير أن خمارويه أردا بهذا الزواج أن ينافس الخلافة في غناها وبذخها، ويظهر هذا واضحاً في جهاز قطر الندى الذي ضرب به المثل ويشير ابن دقماق " أنه حمل معها ما لم ير مثله ولا سمع له إلا في وقته[3]"، وفي هذا الجهاز أريكة من أربع قطع من الذهب المشبك وفي كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبّة من الجوهر باهظة الثمن، ولم يكتف خمارويه بهذا، بل بنى لها على طول الطريق من مصر إلى بغداد استراحات بها جميع ما تحتاج إليه وكأنها في قصر أبيها[4].

خرجت قطر الندى بعد أن قام أبوها بتجهيزها، فخرجت في موكب عظيم من القطائع إلى بغداد في أواخر سنة (281هـ/ 894م)، وقد صاحبها في الموكب عمها شيبان[**] بن أحمد بن طولون، ووصيفتها " أم آسية" لكي تقص عليها الطرائف لإدخال السرور عليها، ومعها عمتها العباسة، وبُنيت قرية سميت باسمها (العباسة)[***]، كذلك

---

(1) المسعودي: المصدر السابق، 4 / 145. كذلك ابن خلكان: وفيات الأعيان، 20/2، بينما ورد عند ابن خلدون: (المصدر السابق، 307/4) وسنية قراعة: قطر الندى، مجلة العربي، العدد مئة وواحد وأربعون، تصدرها وزارة الإعلام (الكويت، 1970) ص131. أن المعتضد بالله هو الذي بعث إلى خمارويه خاطباً ابنته قطر الندى.

)*(الكُراز: القارورة، جمع كِرزان: إبراهيم مصطفي وآخرون: المعجم الوسيط، 788/1.

(2) المسعودي: المصدر السابق، 4 / 145. كذلك وفاء محمد علي: الزواج السياسي في عهد الدولة العباسية، دار الفكر العربي (القاهرة، 1988) ص 63. كذلك أحمد مجاهد، محمد مصطفى: المرجع السابق، 165.

(3) ابن دقماق: المصدر السابق، ص67.

(4) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 3/ 62، عمر الإسكندري وأ.ج.سفدج: تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، مكتبة مدبولي، ط2 (القاهرة، 1996م) ص205، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، أنور الرّفاعي: الإنسان العربي والتاريخ، دار الفكر (القاهرة، 1971) ص403-404.

) **(يذكر ابن تغري بردي: (المصدر السابق، 3 / 62)، خزرج بن أحمد بن طولون.

() ***أصبحت العباسة بليدة بأرض مصر في غاية الحسن والطيب ولأن العباسة جاءت إليها لوداع ابنة=

خرج أبو عبدالله بن الجصاص وبعض الأمراء وكبار قادة الجيش[1]، فكانوا يسيرون بها مثلما يسيرون بطفلٍ في المهد، فإذا وقفت المنزلة وجدت قصراً قد فرش وفيه جميع ما تحتاج إليه، وقد عُلقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها[2]، حتى أنهُ لم يشعر أحد بالتعب طول الطريق، وعندما وصلت إلى بغداد في أول محرم سنة (282هـ/895م)، دخلت مع جهازها أشياء كثيرة، قيل أنه كان في الجهاز مائة هاون[*] من الذهب غير الفضة كما أرسل معها خمارويه مليون وخمسين ألف دينار[**] لكي تشتري ما تحتاجه من العراق[3].

وفي الخامس من ربيع الأول يوم الثلاثاء سنة (282هـ[***]/895م) زفت قطر الندى إلى الخليفة المعتضد، حيث قال الشاعر علي بن العباس الرومي في ذلك:

يا سيد العرب الذي زُفَّتْ لــهُ   باليمن والبركات سيدة العجــم
أسعد بها كسعودها بك؛ إنهــا   ظفرت بما فوق المطالب والهمــم
ظفرت بِملأيْ ناظرَيْها بهجــةً   وضميرها نبلاً، وكفيها كــرم
شمسُ الضُحى زُفت إلى بَدِرِ الدُجَّى   فتكشفت عن الدنيا الظلــم[4]

وعند وصولها قال المعتضد لأصحابه: " أكرموها بشمع العنبر"[5]، فوجد في خزانة الخليفة أربع شمعات من عنبر في أربعة أتوار[****]

=أخيها قطر الندى، ثم زيدت في عمارتها حتى صارت بليدة طيبة كثيرة المياه والأشجار ومنتزهات مصر= زكريا بن محمد القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، (بيروت، 1969) ص220.

(1) رزق الله منقريوش الصدفي: تاريخ دول الإسلام، مطبعة الهلال (مصر، 1907) 129/1. كذلك محمد عبد الله عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، مكتبة الخانجي، ط2 (القاهرة، 1969)، ص91.

(2)ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ص 63/3.

(*) الهاون: وعاء مجوف من الحديد أو النحاس يدق فيه= إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، 1011/1.

(**) يذكر السيوطي: حسن المحاضرة، (238/2)، أرسل معها خمارويه مائة ألف دينار.

(3) السيوطي: المصدر السابق، 238/2.

(***) يذكر المسعودي: (المصدر السابق، 182/4) أن قطر الندى وصلت للمعتضد سنة (281هـ/894م).

(4) المسعودي: مروج الذهب، 182/4. كذلك عبدالرحمن سنبط الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، وقف على طبعهِ وتصحيحهِ: مكي السيد جاسم، مكتبة الثنى (بغداد، د.ت) ص236.

(5) ابن العديم: زبدة حلب، 1/ 85. كذلك أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر، 492/2.

(****) جمع التور، هو إناء صغير= ابن العديم: المصدر السابق، 85/1.

فضة[1]، كما أن المعتضد أحبها حباً شديداً لجمالها وأدبها، وقيل إنه خلا بها في بعض الأيام ووضع رأسه على ركبتها ونام، فتلطفت به وأزالت رأسه عن ركبتها ووضعته على وسادة وتنحت وجلست عن مكانها بالقرب منه في مكان آخر، فصاح المعتضد عندما استيقظ ولم يجدها فنادي عليها، فكلمته في الحال، فعتبها على ما فعلت، وقال لها: "أسلمت نفسي لك فتركتني وحيداً وأنا في النوم لا أدري ما يُفعل بي، فقالت: ما جهلت قدر ما أنعمت به على، ولكن فيما أدبني أبي أنني لا أجلس مع النيام ولا أنام مع الجلوس، فازداد بذلك إعجاب الخليفة بها"[2].

وعلى الرغم من أن خمارويه أراد توثيق العلاقة بينه وبين المعتضد بهذه المصاهرة إلا أنه أراد أن يظهر ابنته بمظهر يليق بمقامها وأن يرفع اسمه بأنه صهر للخليفة وأن تظهر القطائع مترفة ومزدهرة بين العواصم الإسلامية، على عكس ما أراد به المعتضد من هذا الزواج وهو إفقار الدولة الطولونية وإضعاف شأنها لكي تسهل على العباسيين استعادتها واستعادة سلطانهم عليها[3].

توفيت قطر الندى في رجب سنة (287هـ/ 900م) بعد زواج استمر خمسة أعوام، ودفنت في قصر الرصافة[*] ببغداد[4].

4- أهم أعماله:

لقد اهتم خمارويه اهتماماً كبيراً بشؤون بلاده، ولذلك قام بالعديد من الإصلاحات وصرف عليها الكثير من الأموال، ومن أهم أعماله، ما يلي:

---

(1) أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر، 492/2.

(2) اليافعي، المصدر السابق، 196/2. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص 63/3، عمر رضا كحالة: أعلام النساء (في عالمي العرب والإسلام)، مؤسسة الرسالة، ط3، (بيروت، 1977)214/4.

(3) ابن خلكان: المصدر السابق، 20/2. كذلك أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص136، عبداللطيف البرغوثي: المرجع السابق، ص 194، أمينة بيطار: المرجع السابق، ص131.

(*) قصر الرصافة: بضم أولهِ مشهور، لم يكن اشتقاقه من الرصف وهو ضم الشيء إلى الشيء، كما يرصف البناء، بناها المنصور لابنه المهدي وهي من الجانب الشرقي من بغداد = ياقوت الحموي: المصدر السابق، 46/3.

(4) ابن خلكان: المصدر السابق، 21/2. كذلك اليافعي: المصدر السابق، 196/2، محمد عبدالله عنان: المرجع السابق، ص 92.

أ- البستان:

أقبل خمارويه على عمارة أبيه وزاد فيها محاسن كثيرة " فأخذ الميــدان فجعلــه بستاناً زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر، وحمل إليه كل صنف مــن الشــجر المطعم، وأنواع الورود، كما زرع فيه الزعفران وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً جميل الصنع، وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص، وأجرى فيها الماء، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فينحدر إلى مسافة معمولة فيفيض الماء إلى مجار تسقي سائر البستان[1]" وكانت حديقة القصر أيضاً مليئة بالأشجار المغروسة حول أحواض الماء المذهبة، معمولة بالرياحين في خطوط وكتابات عربية، ويتعهدها البستاني بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ولكي لا يشكل على القارئ قراءتها[2].

كما جعل خمارويه جزءاً من البستان حديقة للحيوانات والطيور المختلفة الأنــواع وجعل لها ضياعاً كاملة لزراعة غذائها، واعتنى بتربيتها[3].

ب- بيت الذهب:

هو عبارة عن غرفة فسيحة تتصل برواق فسيح، وكانت إحدى عجائــب الــدنيا، طليت حيطانه بالذهب كلها واللازورد[*]، وفي أحسن نقش وعليها كثير مــن الصــور البارزة على مقدار قامة ونصف، وكانت مصنوعة من خشب، معمول علــى صــورة خمارويه وحظاياه والمغنيات، وجعل على رؤوسهن أكاليــل مــن الــذهب الخــالص

---

(1) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 54/3،53. كذلك مُنيف رفقة: تاريخ العرب والإسلام حتـى الغـزو العثماني، شركة مركز كتب الشرق الأوسط، (البصرة، د.ت) ص158.

(2) المقريزي: الخطط، 316/1. كذلك نبيلة حسن محمد: محاضرات في تاريخ الشام في العصر الإسلامي، مكتبة كريدية أخوان، (بيروت، 1983) ص102، أحمد حسين: المرجع السابق، 494/2، صالح لمعـي مصطفى: التراث المعماري الإسلامي في مصر، دار النهضة العربية (بيروت، 1984) ص65.

(3) أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص137.

(*) اللازورد كلمة فارسية يراد بها حجر كريم مشهور بحسـن لونـه الأزرق السـمائي، سـماهُ الإفـرنج "Lapislazuli" أي الحجر الأزرق واشتقوا منه اسماً للون السماء عندهم = محمد بن إبراهيم بن سـاعد الأنصاري المعروف بابن الأكفاني: نخبة الذخائر في أحوال الجـواهر، عـالم الكتـب (بيـروت، د.ت) ص92.

والجواهر المرصعة[1]، وفي أذانهن الأقراط المحكمة الصنعة، كما لونت أجسامهن بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة فكانت تبدو كأنها ثياب حقيقية، فكان هذا القصر يعد من أعجب ما قد بني[2].

ج- بركة الزئبق:

شكا ذات يوم خمارويه طبيبه لشعوره بالأرق، فأشار عليه باتخاذ فسقية مملوءة بالزئبق، وكانت مساحتها خمسين ذراعاً في خمسين ذراعاً، وجعل في أركان هذه البركة سككاً من الفضة، وجعل فيها زنابير من حرير محكمة الصنع في حلق من فضة، وعمل فرشاً من جلد ينفخ بالهواء فيحكم شده ويلقي الزئبق في تلك البركة وليشدد الزنابير الحرير التي في حلق الفضة فينزل خمارويه وينام فيها نوماً عميقاً فيرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه[3].

لم يسبق أحد خمارويه لعمل مثل هذه البركة، فكان لها منظر عجيب في الليالي المقمرة، وظل الناس بعد خرابها يستخرجون الزئبق عند حفرهم لهذه الأرض[4].

د- دار السباع:

بني خمارويه في قصره داراً للسباع في كل بيت سبع ولبوة، وكان لكل بيت باب يفتح بحركة معينة لإدخال الطعام وتنظيفه، "كما جعُل في جانب كل بيت حوض من الرخام بميزاب من نُحاس يُصب فيه الماء، وبين يدي هذه البيوت رحبة فسيحة كالقاعة،

---

(1) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 436. كذلك سعد زغلول عبدالحميد: العمارة والفنون في دولة الإسلام، منشأة المعارف (الإسكندرية، د.ت) ص346، 347، أنتوني نتتج: العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1974) ص195.

(2) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص436. كذلك ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ترجمه عن الإنجليزية حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن، إدوار حليم، مكتبة النهضة المصرية، ط4 (القاهرة،1993م) ص92.

(3) عبدالرحمن زكي: القاهرة تاريخها وأثارها، ص7. كذلك ستانلي لينبول، سيرة القاهرة، ص 92، ل.أ. سيديو: تاريخ العرب العام إمبراطورية العرب، حضارتهم مدارسهم الفلسفية والعلمية والأدبية، نقله إلى العربية عادل زُعيتر، عيسى البابي الحلبي، ط2 (حلب، 1969) ص203.

(4) ابن دقماق: المصدر السابق، ص 122. كذلك أحمد حسين، المرجع السابق، ص 494، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 436.

وفي جانبها حوض من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير... وكانت السباع تخـــرج إلى الرحبة وتمرح فيها، وتُقيم يوماً كاملاً إلى العَشِـــيّ وخمارويـــه وعســـاكرهُ تنظـــر إليها"[1]. ومن بين هذه السباع يوجد سبع أزرق العينين، يقال له زريق، وعلـــى رقبتـــه طوق من الذهب، وقد أنس هذا السبع بخمارويه فكان مطلقاً في الدار لا يؤذي أحداً وإذا نصبت مائدة خمارويه يقبل عليه هذا السبع ويربض بين يديه، فيرمي له الدجاج وغيره مما على المائدة، وإذا نام خمارويه كان زريق يقوم بحراسته ويرعاه مادام نائماً، وينتبه لمن يدخل عليه ولا يغفل عنه لحظة، فكان لا أحد يستطيع الاقتراب من خمارويه مادام نائماً، وزريق في حراسته[2]، ورغم ذلك فقد شاءت الأقدار أن يمـــوت خمارويـــه فـــي دمشق، بينما كان زريق في مصر[3]. كما قام أيضاً بتوسيع إسطبلاته لكثـــرة الـــدواب لديه، فعمل لكل صنف منها إسطبلاً خاصاً، فللجمـــال والفهـــود والنمـــور والزرافـــات إسطبلات منفردة غير الإسطبلات التي في الجيزة، وكانت الضياع لا تـــزرع فيهـــا إلا القرط[*] برسم لأجل هذه الدواب، وكان له أيضاً إســـطبلات خاصـــة لخيـــول الســـباق والرباط في سبيل الله، وكان على كل إسطبل وكلاء لهم الـــرزق والوظـــائف الكثيـــرة والأموال المتسعة[4].

كذلك من أهم ما قام به خمارويه هو بناؤه لدار كبيرة سماها دار الحـــرم، نقـــل إليها أمهات أولاد أبيه مع أولادهن وجعل معهن المعـــزولات مـــن أمهـــات أولاده[5]، فخصص لكل واحدة حجرة واسعة لتكون لهن بعد زوال دولتهم كما خصص لكل حجرة الوظائف الواسعة، وأقام على كل حجرة خدماً، فكان هؤلاء الخدم الموكلون بالحرم من الطباخين يتحصلون على مواد زائدة كثيرة يبيعونها للأهالي، فكان الناس يأتون لشرائها من كل مكان، وفي كل الأوقات، وإذا جاء الرجل ضيفاً طرق بابه خرج إلى بـــاب دار الحرم، فيجد ما يشتريه من غرائب الطعام وأفخرها وبأرخص الأسعار ليتجمل به أمـــام

---

(1) المقريزي: الخطط، 317. كذلك ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 56/3.

(2) المقريزي: الخطط، 317/1. كذلك أحمد عبدالرزاق أحمد: تاريخ مصـــر وآثـــار مصـــر الإســـلامية، ص112، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 436، فؤاد فرج: المرجع السابق، ص 36.

(3) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 57/3.

)*(القرط: نبات يزرع بمصر عليه تسمن الدواب = ابن تغري بردي: المصدر السابق، 58/3.

(4) المقريزي: الخطط، 1/ 318. كذلك محمد بك غنيم: محاسن السلوك، ص166.

(5) سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 94.

ضيفه[1] "مما لا يقدر على عمل مثله ولا يتهيأ له من اللحوم والفراخ والحلوى مثل ذلك"[2].

وبهذه الأعمال استطاع خمارويه تحقيق بعض ما يطمح إليه، وهو بسط سلطانه على مصر والشام وإعطاء دولته الصفة الشرعية، غير أنه بوفاته دخلت الدولة الطولونية مرحلة جديدة تختلف عما كانت عليه في فترة حكمه وحكم أبيه أحمد.

5- وفاة خمارويه:

اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة خمارويه، حيث قيل أن فترة حياته الأخيرة قضاها في حُزنٍ شديد، لوفاة حظية لديه اسمها بوران، وتأثر كثيراً لوفاتها، ويذكر ابن تغرى بردي وابن عساكر، أن خمارويه كان كثير الفساد بالخدم وبلغ من أمره أنه دخل مع جماعة من الخدم إلى الحمام وطلب الفاحشة من بعضهم فامتنع الخادم، وذلك حياءً من الخدم الذين معه، فأمر خمارويه بضربه حتى مات في الحمام من الصياح، فأبغضه الخدم، واستفتوا العلماء في اللوطي فقالوا حده القتل[3]، أما المقريزي فيذكر أن وفاة خمارويه في سنة (282هـ/ 895م) يوم الأحد في شهر ذي العقدة بعد أن جاء الخدم إلى القاضي أبو زرعه وسألوه وقالوا له: "ما تقول أيها القاضي في رجل يكره غلمانه على أنفسهم حتى يفسق بهم وربما جاء إلى أحدهم في صلاته وهو راكع أو ساجد يكرهه على نفسه ويفسق به؟ فقال: لعنه الله! من هذا؟ لو أني تحققت أمر إنسان على هذه الصفة لأمرت بقتله[4]".

فاجتمع الغلمان في ذي القعدة[*] سنة (282هـ / 895م)، على التخلص من خمارويه وهو في قصره الذي بناه في دير مروان[**] وكان يشرب عنده الأمير طغج

---

(1) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 58/3. كذلك سمير فراج: المرجع السابق، ص 74، عبدالرحمن الرافعي وسعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق، ص104.

(2) المقريزي: الخطط، 317/1.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 3/ 64. كذلك ابن عساكر: تاريخ ابن عساكر، 178/5، عبدالرحمن الرافعي وسعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق، ص 107.

(4) المقريزي: المقفى، 822/3.

)*(يذكر ابن خلدون: (المصدر السابق، 308/4) وابن تغري بردي: (المصدر السابق، 64/3) أنه في شهر ذي الحجة.

) **(يذكر ابن عساكر: (المصدر السابق، 178/5)، والمقريزي: (المصدر السابق، 823/3)، دير مُران.

بن جف[*] فذبحوه في مخدعه ولاذوا بالفرار، فعلم طغج بذلك فخرج في طلبهم، وقام بضرب أعناقهم وصلبهم وكانوا جماعة من الخدم[1]، ويذكر الكندي أسماء الذين قاموا بقتل خمارويه وهم طاهر ولؤلؤ وناشي وسابور ومحافظ[2]، تم حمل بعد ذلك خمارويه إلى مصر بعد أن غُسِّل وَكُفِّن، وصلى عليه ابنه جيش، وتم دفنه بجانب قبر أبيه أحمد[3]، فكان عمر خمارويه عند وفاته اثنتين وثلاثين سنة، حكم فيها مصر والشام اثني عشرة سنة واثنتي عشرة يوماً[4].

ثانياً: أبو العساكر جيش بن خمارويه (282 - 283هـ / 895 - 896م):

هو الأمير أبو العساكر جيش بن أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون[5]، الملقب بالأفضل[6]، تولى إمرة مصر والشام بعد مقتل أبيه في السابع عشر من ذي القعدة سنة (282هـ/895م)[7]، فخرج بعد ذلك من دمشق بعد أن تولى أمرها فترة قصيرة إلى مصر فوقعت منه أمور أنكرت عليه فاستوحش الناس منه[8]، وعند وفاة خمارويه امتنع كبار القواد على مبايعته، إلا أن أبا العساكر تلطف بهم حتى تمت له البيعة، ولم يتجاوز عند بيعته وتوليه الحكم أربعة عشر عاماً، فلم يكن يستطع هذا الصبي تحمل توليه المسؤولية، وانصرف إلى اللهو والشرب[9]، فما كان

) *(هو عبدالرحمن بن جف بن بلتكين بن فوران، أحد قواد بن طولون وولي لخمارويه بن أحمد بن طولون دمشق = المقريزي: المقفى، 17/4.

(1) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 64/3.

(2) الكندي: الولاة والقضاة، ص 241. كذلك المقريزي المصدر السابق، 823/3.

(3) ابن عساكر: المصدر السابق، 178/5. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 64/3، أحمد حسين: المرجع السابق، ص 493.

(4) يذكر كل من المقريزي: (المقفي، 823/3) وابن تغري بردي: (المصدر السابق، 65/3)، محمد بك غنيم: محاسن السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك، مطبعة العلوم (القاهرة، 1938) ، ص167، ثمانية عشر يوماً.

(5) ابن تغري بردي: المصدر السابق،88/3.

(6) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العليا العثمانية، دار الجيل، (بيروت، 1977) ص 20.

(7) الكندي: المصدر السابق، ص241. كذلك ابن تغردي بردي: المصدر السابق، 88/3.

(8) ابن عساكر: المصدر السابق، 417/3. كذلك المقريزي: المصدر السابق، 322/1، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، 88/3.

(9) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 133 كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص70.

على الذين التفوا حوله من الغلمان والملهين إلا أن زينّوا لأبي العساكر قتل عمه أبي العشائر[*]. وقالوا له: " هذا يرى نفسه أنه هو الذي رد الدولة يوم الطواحين لما انهزم أبوك، وكان يقرع أباك بهزيمته يومئذ ويذيع ذلك عند خاصته"[1]، فقام أبو العساكر جيشاً للقبض على عمه ووضعه في السجن، وأرسل إليه من يقوم بقتله، فما كان على الجند إلا أنهم نفروا منه، وفي سنه (283هـ/ 896م)، رأى كبار القادة في البلاد أن أبا العساكر جيشهُ لا يمكن أن يملأ أعينهم، فخرجوا عليه وجاهروا بالمخالفة وقالوا له: لا نرضى بك أميراً فاعتز لنا حتى نولى عمك الإمارة[2]، وكان أبو العساكر في ذلك الوقت خارجاً مُتنزهاً بمُنْية الأصبْغ[**] غير مكترث بما حدث من الجند، وكان أبو الجيش إذا أخذ منه الشراب يقول لطائفته "غداً أقلدك موضع فلان وأهب لك داره وأسوغك نعمتهُ فأنت أحق من هؤلاء الكلاب"[3]، فشكا القواد إلى بعضهم البعض ما يلقونه من أبي العساكر، فاتفقوا على قتله فعلم بذلك ولم يكتم الأمر ولم يتشاور مع أحد على ما يفعله، بل توعدهم وقال: لأطلقن الرَّجالة عليهم ولأفعلن بهم، فما كان من القواد إلا مفارقته وخرج عليه طغج بن جف عامل دمشق وحمص وبعلبك والأردن وابن طوغان أمير الثغور ومحمد بن إسحاق بن كنداج وخاقان المفلحي وبدر جف أخو طغج فساروا إلى بغداد وبعدما لقوا في الطريق المشقة ساروا إلى المعتضد فبعث إليهم من يتلقاهم فأحسن إليهم وضاعف أرزاقهم وأمر بخلعه[4].

وعندما استمر أبو العساكر في لهوهِ، قام الخليفة بخلعه وإسقاط اسمه من الخطبة والدعاء لهُ على المنابر، فلم يأبه لذلك، كما اجتمع رجال أبيه وقرروا كذلك خلعهُ بعد أن تذاكروا أفعالهُ، فجمعوا عدول البلد وأخبروهم بما قام به أبو العساكر، فقالوا: "ما مثل

(*) هو نصر بن أحمد بن طولون، الكندي = الولاة والقضاة، ص242، أما المقريزي: (المصدر السابق، 322/1)، فيذكره " أنه مضر".

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 89/3. كذلك أحمد عبدالرزاق أحمد: المرجع السابق، ص102

(2) سمير فراج: المرجع السابق، ص 75.

(**) تقع شرقي مصر منسوبة إلى الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان أخي عمر بن عبدالعزيز بن مروان = ابن تغري بردى: المصدر السابق، 92/3.

(3) ابن تغري بردي: المصدر السابق،90/3. كذلك أحمد مجاهد ومحمد مصطفي: المرجع السابق، 168.

(4) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 90/3. كذلك أحمد إسماعيل: المرجع السابق، ص55، حسن نصرالله: تاريخ بعلبك، مؤسسة الوفاء (بيروت، د.ت) 113/1

هذا يُقلّد شيئاً من أمور المسلمين"[1].

كما قيل أيضاً في أبو العساكر: إنه عندما أراد كبار القواد عزله وتولية عمه خرج إليهم كاتبه علي بن أحمد الماذرائي وطلب منهم أن ينصرفوا، فما إن فعلوا ذلك حتى دخل أبو العساكر إلى عمه في السجن وقتله ورمي برأسه إلى الجند وقال لهم: "خذوا أميركم"[2] كما قام بضرب عمٍ آخر له، وبعد ما رأى الجند ما فعله أبو العساكر هجموا عليه وقتلوه وقتلوا كذلك كاتبه، ونهبوا داره وأحرقوها، وقيل إن الجند وقع في أيديهم من النهب ما يملأ قلوبهم وعيونهم ما جعلهم يتركون الجندية وسكن الريف وصاروا إما مزارعين أو تجاراً[3].

يدل موت أبي العساكر على سوء الأحوال السياسية التي وصلت إليها هذه الدولة وخاصة أنه تولى حكم هذه الدولة وقد تركها أبوه خالية من الأموال وما قام بهِ من أعمال منها قتل أعمامهِ ولجوئه إلى الشرب واللهو، مما أدى هذا الأمر إلى خروج القادة عليه، وقيامهم بالنهب والحرق والعزل والخلع، فلم يكن هذا الصبي قادراً على حماية هذه الدولة.

فكانت وفاه أبو العساكر في العاشر من جمادي الآخرة سنه (283هـ/ 896م) استمرت فيها ولايته ستة أشهر[*] وأثني عشر يوماً[4]. ويشير ابن تغري بردي إلى أن هارون أخو أبي العساكر هو من كان وراء مقتله وذلك بعد أن رفض أهل مصر ولاية أبي العساكر وقالوا "نريدُ أبا العشائر هارون" فوثب عليه هارون وقتله[5].

ثالثاً: هارون بن خمارويه (283-292هـ/896-904م):

هو الأمير أبو موسى هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، تولى إمرة

---

(1)ابن تغري بردي: المصدر السابق، 91/3.

(2) أحمد عبدالرزاق: المرجع السابق، ص102.

(3) ابن الأثير المصدر، 490/6، 491. سمير فراج: المرجع السابق، ص75، حسين مؤنس: المرجع السابق، ص400.

(*) يتفق كل من الكندي: (الولاة والقضاة، ص 242) وابن الأثير: (الكامل في التاريخ، 491/6) أنها تسعة أشهر.

(4) أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر، 495/2. كذلك عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق، ص99.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 93/3. كذلك مصطفى طه: المرجع السابق، ص128.

مصر بعد مقتل أخيه جيش في العاشر من جمادي الآخرة، سنه (283هـ/ 896م)[1] ولم يكن أفضل حالاً من أخيه، فلم يكن يصلح أيضاً للولاية، وقد تمت له البيعة طوعاً، ولم يتمنع أحد عن بيعته غير الجند، كما جعلوا أبا جعفر بن أبي[*] مدبراً له ومؤيداً لأمره[2]، فما أن سيطر على مقاليد الحكم حتى أشرك معه بعض القادة منهم بدر الحمامي وفائق صافي، فاقتسموا الجيش، وخضع كل فريق لهم خضوعاً تاماً، وأصبحت العطايا تجرى عليهم، ويقومون بتوزيعها على الجند[3]. وبهذا سيطر القادة على الجيش، وأول ما قام به أبو جعفر عندما تمت له الوصاية على هارون أن أمر ربيعة بن أحمد بن طولون بالخروج إلى الإسكندرية مع أولاده وحريمه، فأقام بها إلى أن كاتبه بعض الأنصار ودعوه للولاية، ووعدوه بالتأييد والقيام معه، وقالوا له:[4] "أنت رجل كامل مكتمل التدبير، وقد تقلدت البلدان، وأحسنت سياستها، ولو كشفت وجهك لتبعك أكثر الجيش[5]"، فما كان عليه إلا أن جمع جمعاً كثيراً وسار حتى وصل الفسطاط فتخلى عنه الذين كاتبوه وخذلوه، فخرج إليه القواد وأسروه في شعبان سنه (284هـ/897م)، وقاموا بضربه بالسياط حتى مات، وقيل إنه ضُرِبَ ألفاً ومائتي سوط[6].

طلب هارون بن خمارويه في عام (285 هـ/ 898م) من الخليفة المعتضد أن يعطيه ما في يده ويد نوابه من مصر والشام، ويسلمه أعمال قنسرين ويحمل إليه كل عام أربعمائة وخمسين ألف دينار، أي ما يقارب النصف مليون[7]، فما كان من

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 98/3. كذلك أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر، ص 495.

( )* أبو جعفر بن ابي: من كبار الدولة ومن الذين وصفوا بالدهاء والمكر= عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق، ص99.

(2) الازدي: أخبار الدول المنقطعة، 1/ 73. كذلك ابن كثير: البداية والنهاية، 77/11، ابن تغري: المصدر السابق، 99/3.

(3) أحمد حسين: المرجع السابق، 495،كذلك عمر محمد المرجع السابق ص99.

(4) الكندي ولاة مصر، ص266. كذلك وفاء محمد علي: صفحات من تاريخ العباسيين، دار الفكر العربي (القاهرة، د.ت) ص108

(5) ابن تغري بردي: المصدر السابق،99/3.

(6) المقريزي: الخطط، 322/1.

(7) ابن الأثير: المصدر السابق،503/6.كذلك مصطفي مراد الدباغ: الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين، دار الطليعة (بيروت، 1980) ص250.

المعتضد إلا الموافقة على هذا الطلب، وذلك في جمادي الأولى سنه (286هـ/899م)[(1)]، فسار بعد ذلك إلى آمد[(*)] واستخلف ابنه المكتفي، ووصل إلى قنسرين والعواصم فتسلمها من أصحاب هارون[(2)]، وتوفي بعد ذلك المعتضد في ربيع الأخر سنة (289هـ/901م) وبويع المكتفي، الذي يظهر في عهده سنة (290هـ/902م) القرامطة[(**)]، في بلاد الشام وكان أميرها آنذاك طغج بن جف، فقام هارون وتصدي لهم وبعث إليهم بالقواد فحاربوهم وهزموهم[(3)].

كما سير المكتفي جيوشاً لقتال هارون بن خمارويه تحت قيادة محمد بن سليمان الكاتب[(***)] الذي كان يحقد على الطولونيين، فقام بمكاتبة دميانة[(****)] يأمره يقطع مواد التموين عن مصر، كما استطاع محمد تحريض بعض القادة الطولونيين، وجمع شملهم في جيش واحد واتجهوا نحو مصر[(4)]، فما أن وصلت أخبار خروج محمد بن سليمان أن بلغت هارون حتى خرج لملاقاته يوم التروية في شهر ذي الحجة سنه (291هـ/902م) والتقى الأسطولان في جزيرة تنيس[(*****)]، فحلت الهزيمة بهارون، ووقعت تنيس

---

(1) ابن العديم: المصدر السابق، 86/1.

(*) أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً، وهي بلد قديم حصين مبني بالحجارة السود، ودجلة محيطة بأكثرهُ وفي وسطهِ عيون وآبار قريبة الغور يتناول ماؤها باليد = ابن تغرى بردى: المصدر السابق، 116/3.

(2) أحمد إسماعيل: المرجع السابق، ص56.

(**) القرامطة: جماعة من الشيعة، دعوا إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وتطوفوا في دعوتهم ويقال أنهم نسبوا إلى أحد الدعاة واسمه حمدان بن الاشعث الملقب بقرمط لقصر قامته = ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة القدسي (القاهرة، 1356) 255/2. كذلك يحيى بن الحسين القاسم بن محمد علي: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، مراجعة محمد مصطفي زيادة، دار الكتاب العربي،(القاهرة، 1968)، ص45.

(3) الكندي ولاة مصر، ص267. كذلك المقريزي: المصدر السابق،322/1، أحمد عبدالرزاق أحمد: المرجع السابق، ص103.

(***) محمد بن سليمان الكاتب: فاتح مصر، كان في ابتداء أمره يكتب لأبي الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد ثم تولى ديوان الجيش، وكان لهُ الفضل في الفتك بالقرامطة ثم وجههُ المكتفى إلى الشام ومصر لحرب الطولونية = القاضي أبي علي الحسن بن علي التنوخي: الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر (بيروت، 1978) 307/2.

) ** **(دميانة: غلام يازمان وهو في ذلك الوقت أمير البحر = ابن تغري بردي: المصدر السابق، 109/3.

(4) الحافظ شمس الدين أبو عبدالله الذهبي: دول الإسلام، الأعلمي للمطبوعات (بيروت، د.ت) ص160.

) ****(*تنيس: مدينة قديمة سميت باسم تنيس بن حام بن نوح وهي من كورة الريف وهي مدينة في جزيرة وسط بحيرة تُعرف بجزيرة تيس ولا زرع بها = ابن دقماق: المصدر السابق، ص78.

ودمياط في يد محمد بن سليمان، فاضطر هارون الذهاب إلى العباسة مع أهله وأعمامه[1]، وكتب لبدر وفائق يستعطفها ويذكر لهما الحرمة، وما يجب عليهما من حفظ ذمم الماضيين من أبيه وجده وصارت كتبه صادرة إلى القواد بذلك[2]. ويذكر ابن كثير أنه عندما دخل محمد بن سليمان إلى الديار المصرية، كان جيشهُ نحو عشرة ألاف مقاتل، واستطاع أن يستولى على الخزائن والأموال، كما قام بقتل سبعة عشر رجلاً من آل طولون، وكتب بالفتح إلى المكتفي[3].

لقد اختلف المؤرخون في أسباب وفاة هارون فيذكر ابن تغري بردي، أنه ذات ليله في العباسة شرب وثمل، فنام فاستغل الفرصة بعض غلمانهِ فقاموا بذبحهِ[4]، أما المقريزي فيذكر: "أن هارون عندما تفرق عنه أصحابه وبقى منهم القليل تشاغل باللهو، فأجمع عمه شيبان وعدي بن أحمد بن طولون على قتله ودخلا عليه وهو ثمل فقتلاه"[5]، أما ابن الأثير وأبو الفداء فيذكران: " أنه وقع بين أصحاب هارون في بعض الأيام عصبية فاقتتلوا فخرج هارون يسكتهم فرماه بعض المغاربة بمزراق فقتله"[6].

كانت وفاته ليلة الأحد لأحدى عشرة من صفر سنه (292هـ/904م) وهو في الثانية والعشرين من عمره، واستمرت مدة ولايته ثمان سنين وثمانية أشهر وأياماً[7].

رابعاً: شيبان بن أحمد بن طولون:

هو شيبان بن أحمد بن طولون الأمير أبو المقانب[*]، تولى إمرة مصر بعد مقتل ابن أخيه هارون سنه (292هـ/ 904م)[8]، قدِم إلى الفسطاط بعد أن ظلت مصر دون

---

(1) الكندي: الولاة والقضاة، ص 446. كذلك المقريزي: الخطط، 322/1، محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص 49.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 109/3.

(3) اليافعي: المصدر السابق،220/2. كذلك ابن كثير: المصدر السابق 99/11.

(4) ابن تعزي بردي: المصدر السابق 109/3.

(5) الكندي: المصدر السابق، ص269. كذلك المقريزي: المصدر السابق، 322/1.

(6) ابن الأثير: المصدر السابق 544. كذلك أبو الفداء: المصدر السابق، 60/2، عارف العارف: المُفصل في تاريخ القدُس، مطبعة المعارف (القدس، 1961)، 126/1.

(7) الازدي: المصدر السابق،134/1. كذلك ابن إياس: المصدر السابق، 30/1، أحمد حسين: المرجع السابق، ص489، أحمد مجاهد مصباح ومحمد مصطفى النجار: المرجع السابق، ص169.

(*) عند المقريزي: (المصدر السابق 322/1) أبو المواقيت.

(8) الكندي: ولاة مصر، ص270.

أمير، فنهض ودعا لنفسهِ، ووعد الناس بحسن القيام بأمر الدولة، والإحسان إليهم، فتمت مبايعته، وكانت الدولة الطولونية في عهدهِ تُصارع، ويشير ابن تغرى بردي بإن شيبان عند توليه أمر مصر لم يكن يعلم بأن الدولة قد انتهت[1]، ولم تطل مـــدة حكمـــة التـــي استمرت اثني عشر يوماً، وذلك بعد أن ثار عليه الجند، لعدم قيامه بالحكم على أحســـن وجه، فبعثوا إلى محمد بن سليمان الكاتب، فجاء إلى مصر وقام بالدعاء للمكتفي وحده، ودخل إلى القطائع وقام بإحراقها، ونهب الفسطاط، ولم يبق فيها إلا الجامع، كمـــا قـــام بإخراج الطولونيين[*] إلى بغداد في سنة (292هـ/904م) ولم يعد بمصر أحـــداً مـــنهم، وبهذا سقطت الدولة الطولونية وعادت مصر والشام إلى ســـيطرة العباســـيين بعـــد أن أستولي محمد بن سليمان على أموالهم، وكتب إلى الخليفة المكتفي بالنصر والفتح[2].

---

(1) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 134/3.

(*) ينظر في سقوط الدولة الفصل الخامس.

(2) المقريزي: المصدر السابق، 322/1. كذلك محمد جمال سرور: المرجع السابق، ص 49، حسين مؤنس المرجع السابق،402.

الفصل الثالث
أنظمة الدولة الطولونية

أ- النظام الإداري:

1- تقسيم مصر الإداري.
2- الدواوين.
3- كاتب السر.
4- الحجابة.
5- الوزارة.
6- البريد.

ب- النظم المالية:

1- الخراج.
2- الضرائب والمكوس.
3- العملة ودار الضرب.

ج- النظم القضائية:

1- القضاء لغةً واصطلاحاً.
2- تعيين القضاة.
3- أشهر القضاة.
4- ولاية المظالم.
5- الحسبة.
6- الشرطة.
7- السجون.

د- النظام العسكري:

1- تأسيس أول جيش.
2- البحرية في العهد الطولوني (الأسطول).
3- الأسطول الطولوني.
4- اهتمام أحمد بن طولون بدار صناعة السفن.
5- القواعد البحرية.
6- أسماء السفن المستخدمة في العصر الطولوني.

أولاً: نظام الحكم والإدارة في عهد الدولة الطولونية:

انتظمت الأمور الإدارية والمالية للدولة بعد تولي أحمد بن طولون مقاليد الحكم مما جعله يسعى إلى تطويرها وتنظيم شؤون الحكم والإدارة داخل دولته.

1- تقسيم مصر الإداري:

ظلت مصر منذ الفتح العربي سنة (20هـ/650م) حتى قيام هذه الدولة ولاية من ولايات الدولة الإسلامية الكبرى، تقوم بتصريف أمورها وشؤونها الإدارية بنفسها، وتستمد نظمها من النظم الإدارية في الخلافة سواء كانت الخلافة في المدينة أو دمشق أو بغداد[1]. وقد ظلت تلك النظم الإدارية عند الفتح مثلما كانت عليه في مصر البيزنطية، مع مراعاة إصلاح ما لا يتفق مع العقيدة الإسلامية، ويتماشى مع مصلحة الأمة[2].

وفي العصر الطولوني قُسِّمت مصر إلى ثلاثة أقسام إدارية رئيسة، هي: مصر السفلى (أسفل الأرض وهي الوجه البحري)، ومصر العليا، ومصر الوسطى، وهي الصعيد الأوسط، وقسمت هذه الأقسام إلى أقسام صغيرة عُرفت باسم "الكورة"، وتنقسم كل كورة إلى قُرى عديدة، ويتولى حكم كل كورة حاكم يُسمى "صاحب الكورة" وكانت له إمامة الصلاة في المسجد الجامع للكورة، وكان هؤلاء الحكام مسئولين أمام الأمير مباشرةً[3].

كما كان هناك رؤساء ومشايخ القرى الذين عُرِفوا في عهد ابن طولون باسم موازيت[*]، وهي كلمة مأخوذة من الكلمة البيزنطية ميزوتروس، وكذلك عرفوا باسم العميد، وكان لكل مدينة من هذه المدن الساحلية والواحات، حاكم يُعينه الخليفة مباشرةً، وكانوا يختارونه من كبار القواد[4].

---

(1) عبدالرحمن الرافعي وسعيد عبدالفتاح عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص116.

(2) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص348. كذلك حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي،270/3.

(3) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص167. كذلك علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ص350.

(*) هو العمدة الحالي = سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص168.

(4) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص168.

ويقوم الأمراء الطولونيون بالإشراف على هؤلاء الحكام والتفتيش عليهم لتأكيد الأمن وتشجيعهم على العناية بأقاليمهم[1].

2- الدواويـــــن:

الديوان كلمة فارسية معناها السجل أو الدفتر، وأطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان، أو الدائرة التي يحفظ فيها[2]، وتم تعريبها في عهد عبدالملك ابن مروان (65-86هـ/684-705م)، فكانت الدواوين الفارسية في فارس والعراق تكتب بالفارسية، وفي الشام تكتب بالرومية، أما في مصر فكانت قبطية[3].

كان في مصر والشام عدة دواوين، منها ما وجدها العرب عند الفتح، ولم يقوموا بتغييرها، واكتفوا بتعريبها، ودواوين أخرى أنشأها العرب أنفسهم بالعربية، فكانت عربية خالصة، ومن أشهر هذه الدواوين، ديوان الجند الذي يختص بحفظ أسماء الجند وتحديد عطاياهم ورواتبهم، كما عرفت مصر أيضاً ديوان الخراج الذي يتولى تنظيم أمور الخراج والنظر في مشكلاتها، وكان من أهم الدواوين أيضاً ديوان البريد لنقل الأخبار من ولاية إلى أخرى بعد جمعها[4]، وكذلك ظهر في مصر ديوان المستغلات، ومسئول هذا الديوان على ممتلكات الدولة، وأموالها الغير منقولة كالأراضي والأبنية الحكومية، وديوان الصدقات، وكان يُطلق على من يتولى هذا الديوان والي الصدقات، أو عامل الصدقات، ومهمته النظر في موارد الصدقات والزكاة وتحديد مستحقيها، وتوزيعها على حسب الشرع[5]، أما ديوان بيت المال فكان من أهم الدواوين المالية، ويختص بالإشراف على ما يرد إلى بيت المال من الأموال، وما يُخرج منه ويذهب إلى

---

(1) مصطفى طه: مصر الإسلامية، ص149. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص350.

(2) صبحي الصالح: النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، ط2 (بيروت، 1976) ص312. كذلك علي الشطشاط: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار قباء (القاهرة، 2001) ص81.

(3) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص88.

(4) عبدالرحمن ابن خلدون: المقدمة، دار إحياء التراث العربي، ط3 (بيروت، د.ت) ص244. كذلك صبحي الصالح: المرجع السابق، ص314، إبراهيم فؤاد أحمد علي: الموارد المالية في الإسلام، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3 (القاهرة، 1972) ص254.

(5) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، مكتبة وهبة (القاهرة، 1964) ص147. كذلك صبحي الصالح: المرجع السابق، ص314.

وجوه النفقات[1]، كما عُرف أيضاً ديوان الاستخراج وهو عبارة عن دائرة رسمية تسعى إلى تتبع أخبار الوزراء والكتاب والحُجاب، وولاة الأقاليم المتهمين بالمحسوبية والرشوة، لكي تحصى أسماؤهم وتحدد أوضاعهم وتصادر أموالهم[2]. ومن الدواوين الأخرى التي عُرفت في مصر ديوان "الأكرية" وكانت مهمته الإشراف على الترع والجسور والقنوات وشؤون الري، هذا وقد استخدم ديوان الأحداث والشرطة الذي مهمته تقع على الاهتمام بالأحداث في أنحاء البلاد، وديوان الطراز الذي يختص بإنتاج الملابس والأزياء الرسمية وشارات الدولة[3].

ومن أشهر الدواوين في العصر الطولوني "ديوان الإنشاء والمراسلات" حيث تم إنشاء هذا الديوان بعد أن اتسعت دائرة أعمالهم وازدهرت نشاطاتهم[4]، ويشير القلقشندي "أن أحمد بن طولون لما شمخ سلطانهِ وارتفع شأنه، أخذ في ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليها في المكاتبات والولايات ..." [5] ولم يتخذ الولاة قبل الطولونيين إنشاء هذا الديوان، واكتفوا بالكُتَّاب لكتابة الرسائل التي يرسلونها إلى الحكام، غير أنه باستقلال مصر في هذا العصر، تصرف حكامها مثلما يتصرف الحكام المستقلون، وأصبح لهم ديوان مهمته الاتصال مع باقي حكام الدول الأخرى[6]. وما يترتب على ذلك من تبادل الرسائل بينه وبينهم، وكان أول من تولى ديوان الإنشاء في عهد أحمد بن طولون هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود المعروف بابن عبد كان، وكان يشتهر هذا الكاتب بالبلاغة[7]، كما أشار القلقشندي إلى الصفات التي يجب أن تتوفر في صاحب الإنشاء بقوله: "كان لا يتولاه إلا أجل كُتَّاب البلاغة، ويُخاطب بالأَجل، وكان يقال له عندهم كاتب الدست الشريف وإليه تُسلم المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها

(1) أنيس الأبيض: بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مطبعة جروس برس (لبنان، 1964) ص115.

(2) علي الشطشاط: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص98..

(3) أبو زيد شلبي: المرجع السابق، ص314. كذلك صبحي الصالح: المرجع السابق، ص315.

(4) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية، ص38. كذلك حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1957) 16/1.

(5) أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحهُ وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الفكر (بيروت، 1987) 129/1.

(6) عبدالرحمن الرافعي وسعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق، ص118.

(7) القلقشندي: المصدر السابق، 129/1. كذلك محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص39.

على الخليفة من يده، وهو الذي يأمر بتنزيلها والإجابة عنها"[1]. أما ابن خلدون فيــذكر أنه: "لابد أن يُتخير من أرفع طبقات الناس، وأهل المُرُوءة والحِشمة منهم وزيادة العلم، والبلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يُعرض في مجالس الملوك ومقاصــد أحكامهم... وعليه التخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترســيل وتطبيــق مقاصــد الكلام من البلاغة وأسرارها"[2].

وقد تمكن أحمد بن طولون من إدارة بلادهِ بعد أن نظم أموره الإداريــة، ممــا سهلت عليه استحداث بعض الدواوين في هذا العصر.

3- كاتب السر:

وجد في البلاط الطولوني وظيفة كاتب السر، وهو بمثابة الســكرتير الخــاص للأمير، فكان يتم اختيار شخص من المقربين إلى الأمير ليتولى هذه الوظيفــة، فيقــوم بكتابة وتدوين كل ما يحدث في مجلس الأمير، وتتطلب هذه الوظيفة الســرعة والدقــة التامة، ورغم من سماع كاتب السر ما يدور في مجلس الأمير إلا أنه لا يظهر لأحــد، وهذا فقد حرص ابن طولون على أن ينتفع بهذا في تكييف خططهِ الحكومية المختلفة[3].

4- الحاجــــب[*]:

أخذت الحجابة أهمية وشأناً في الدولة العربية، وكانت من أهم المناصــب فــي قصر الخليفة، فكان يقوم بحجب السلطان عن العامة، كما يقوم بإدخــال مــن يرغــب الخليفة برؤيته، وتدل الحجابة على حالة الترف والأبهة التي تميزت بها حياة الملــوك، وهي وظيفة تشبه كبير الأمناء في عصرنا الحالي[4].

وقد أشار ابن الطقطقي إلى صفات الحاجب في وصية لعبدالملك بــن مــروان

---

(1) القلقشندي: المصدر السابق، 563/3.

(2) ابن خلدون: المصدر السابق، ص247.

(3) مصطفى طه: المرجع السابق، ص147. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجــع الســابق، ص351، ســيدة كاشف: المرجع السابق، ص179.

(*) حَجَبَهُ – حجباً وحجاباً وحجبّة: سترهُ، وقد احتجب وتحجب والحاجب: البواب والحِجابُ: ما احتجب به = الطاهر أحمد الزاوي: مختار القاموس مرتب على طريقة مختار الصحاح والمصباح المنير، الدار العربية للكتاب (د.م، 1981) ص129.

(4) بشير رمضان التليسي وجمال هاشم الذويب: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار المــدار الإســلامي (بيروت، 2002) ص91.

لأخيه عبدالعزيز فقال له: "انظر حاجبك ليكن من خير أهلك، فأنه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانهُ لتعلم أنت الذي تأذن له أو تردهُ"[1].

ورغم وجود هذا اللقب غير أن أحمد لم يسمح بإعطائه لأحد خوفاً من أن يزداد نفوذ هؤلاء الأشخاص وسلطانهم، كذلك رغبته في أن يستبد بكافة أعمال الدولة، وهذا ما حدث مع نسيم الخادم، رغم أنه تولى هذا المنصب، إلا أنه لم يلقب بالحاجب، رغم وثوق أحمد فيه، وفي إدارة المهام في دار الخلافة على أكمل وجه، إلا أن هذا اللقب ظهر في عهد هارون بن خمارويه، وكان الحاجب اسمه بسمجور، وكان من القواد الذين تولوا حجابة هارون[2].

5- الــــوزارة:

وردت كلمة وزير في القرآن الكريم حيث قال تعالى: "واجَعْل لِي وَزِيَّراً مِنْ أَهلِي هَارُونَ أَخي"[3]، وقوله تعالى أيضاً: "ولقد آتينا مُوَّسَى الكِتَّابَ وَجَعْلنَا مَعهُ أَخاهُ هَارُونَ وَزْيراً"[4].

والوزر: الحمل الثقيل، وجمعها أوزار، والوزير الذي يحمل ثقل الملك ويُعينهُ برأيه[5]، والوزير هو المتحدث للملك في أمر مملكته، وقيل مشتق من الوِزْر بكسر الواو وإسكان الزاي وهو الثقل ومنه قوله تعالى: "حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا"[6]، وسمي بذلك لأنه يتحمل أثقال الملك، ويُعينه برأيه، والوِزر: الجبل الذي يعتصم به لينجى من الهلاك، ويعتمد الخليفة على الوزير في رأيه، ويلتجئ إليه، ويعد الوزير أيضاً وسيطاً بين الملك والرعية[7].

---

(1) ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر (بيروت، 1966) ص175.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 107/3.

(3) سورة طه، الآيتان: 28، 29.

(4) سورة الفرقان الآية 35.

(5) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص68.

(6) سورة محمد: الآية 4.

(7) أبو الحسن الهلال بن المحسن الصابيء: الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية (القاهرة، 1958) من المقدمة. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص68.

ولقد قسمت الوزارة إلى قسمين: "وزارة تفويض تجمع بين كفتيي السيف والقلم، ووزارة تنفيذ تختص بالرأي والحزم، ولكل منها حقوق وشروط"[1].

وفي بداية الأمر، كان لكل ملك من الملوك أتباع وحاشية وإذا طرأ أمر قاموا باستشارة ذوي الآراء الصائبة فكان هذا الأمر يجري مجرى الوزير، وعندما جاء بنو العباس أخذوا بوضع قوانين الوزارة، وأُطلق هذا اللقب بعد ما كان يسمى كاتباً أو مشيراً[2].

كانت مصر ولاية تابعة للخلافة من الفتح العربي إلى مجئ أحمد بن طولون فحاول الاستقلال بها، فكانت في ذلك الوقت ولاية بلا وزارة، ورغم وجود هذا المنصب نرى أن أحمد بن طولون لم يطلق هذا اللقب مثلما فعل في الحجابة، رغم أنه كان له كاتب اتخذه وهو أحمد بن محمد الواسطي، الذي له شأن عظيم عنده، فكان يقوم بأعباء الوزارة، دون أن يُلقب بهذا اللقب[3]، بينما تذكر بعض المراجع أن أحمد أطلق هذا اللقب على الواسطي مرة واحدة، وذلك عند ذهابه إلى الشام واستخلف ابنه العباس، فجعله ناصحاً ووزيراً[4].

عَظُمت الوزارة بعد ذلك في عهد خمارويه، فقد كان له وزيرُ نصرانيُ هو أبوبكر(*) محمد بن رستم الماذرائي الكاتب[5]، الذي خلف أباه علي بن أحمد الماذرائي الذي اختاره كذلك خمارويه وزيراً له وينظر في أموره، وقد استوزر هارون بن خمارويه أيضاً أبوبكر محمد بن علي بعد وفاة أبيه في سنة (280هـ/893م) فأصبح مدبر أمور مصر إلى أن جاء محمد بن سليمان الكاتب من بغداد وأزال دولة بني طولون[6].

---

(1) شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع كوستاتسوماس وشركاه (القاهرة، د.ت) 68/6.

(2) أمين الدين تاج الرياسة أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان الشهير بابن الصيرفي المصري: الإشارة إلى من نال الوزارة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي (القاهرة، 1925) ص10.

(3) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، 260/3.

(4) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص161.

(*) هو أبوبكر محمد بن علي بن محمد بن رستم بن أحمد وقيل محمد بن علي بن أحمد بن عيسى ابن رستم وقيل محمد بن علي بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن عيسى بن رستم الماذرائي أحد عظماء الدنيا = المقريزي: الخطط، 155/2.

(5) السيوطي: حسن المحاضرة، 181/2. كذلك سيدة كاشف: المرجع السابق، ص160، جمال الدين الشيال: دراسات في التاريخ الإسلامي، دار الثقافة (بيروت، 1981) ص48.

(6) المقريزي: المصدر السابق، 155/2. كذلك سيدة كاشف: المرجع السابق، ص161.

6- البريـــــد:

البريد اصطلاحاً هو جعل الخيل مضمرات في عدة أماكن فإذا جـــاء صـــاحب الخبر ووصل إلى مكان البريد وقد تعب فرسهُ ركب فرساً مستريحاً ويفعل هذا في كـــل المحطات البريدية حتى يصل بسرعة[1].

ويُرجح البعض أن اسم البريد لفظ فارسي مُعرب وأصلهُ بالفارسية "بريدة الـــدم" ويدل المعنى على أنه "مقصوص الذنب"، وذلك لأنه كان من عادة الفرس قص أذنـــاب البغال والخيول التي يستخدمونها في البريد تميزاً لها عن باقي الدواب الأخرى[2].

ورغم المعرفة السابقة للروم بهذا النظـــام إلا أن العـــرب أخـــذوهُ واســـتخدموه ونظموه، ووجدوا له اشتقاقـــاً في العربية فقيل: إنه من بَرَدَ أو أَبرد بمعنى أرسل[3].

وتعتبر هذه الوظيفة التي بدأت في الدولة الأموية من المهام الرئيســـية المهمـــة، وأول من وضع هذا النظام معاوية بن أبي سفيان، واهتم بعد ذلك العباســـيون بـــالطرق وعمارتها لتقصير المسافات لكي تصل الأخبار سريعاً[4].

كان لصاحب البريد مهام تتمثل في عرض الكتب التي تصله من جميع الأمصار على الخليفة، وتوصيل أخبار الولاة والعمال، ويقوم بالإشـــراف علـــى عمـــال البريـــد والاتصال بالعيون التي تقوم بجلب الأخبار، هذا وقد كان على صاحب البريـــد مراقبـــة العمال والموظفين في كافة الولايات ومراقبة سلوك الولاة والقضـــاة، ومعرفـــة عمـــال الخراج والضياع، وما يجري عليهم[5]، وعلى صاحب البريد معرفـــة أحـــوال عمـــارة البلاد، وما يجري من أمور الرعية، وأن يعرف ما عليه الحكام في حكمهـــم وســـيرهم وسائر مذاهبهم... وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق وما يلزمه الموردون[6].

وقـــد تعدى البريد مهامه فلم يعد ينقل الرسائل والأخبار بل تعداه إلى نقل الوفود

---

(1) نظير حسان سعداوي: نظام البريد في الدولة الإسلامية، دار مصير للطباعة (الفجالة، 1953) ص19.

(2) صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص330. كذلك بشير التليسي وجمال هاشم: المرجع السابق، ص110.

(3) صبحي الصالح: المرجع السابق، ص331.

(4) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص170-171.

(5) نظير حسان سعداوي: المرجع السابق، ص66. كذلك بشير التليسي وجمال هاشـــم: المرجـــع الســـابق، ص110.

(6) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، 273/3.

والسفراء والأجانب[1]، وكان يُوضــع مقاتلون على هذه المحطات خاصة فــي أوقــات الحروب لحمايــة الطرق[2]، وبهــذا أصبح للبريد أهميتــه الحربيــة وظــل صــاحب البريد صاحب الأخبــار الذي يقوم في الوقت الحالي مــقام المخابرات العسكرية[3].

وفي عهد أحمد بن طولون كان للبريد أهميته، حيث اســتفاد مــن إدارة البريــد لتحقيق أطماعه، فاستطاع أن يُعين حسن بن مهاجر على البريد[4]، وبفضلـــهِ كشــف أحمد ورصد الكُتب التي تُرسل من معاديهِ للإيقاع بهِ عند الخليفــة، فبفضــله اســتطاع أحمــد أن يفتك بهم، وطهر مصر من أعدائــه، مما جعل أحمد يطمئن على مركــزهِ، كما كــان للبريد فضل كبير في معرفة ما كــان يدبره الموفق مــن كتابــات لقـــواد مصــر يفسدهم على أحمد ابن طولون، فاحتاط أحمد وعــلم ما كانوا يتآمرون بــه[5]، وأشار المقريــزي إلى ذلك العداء والكتب التي كانت متبادلة بين أحمد بــن طولـــون والموفق، ومن إحداها: "أن الخليفــة الموفق أراد أن يشغل أحمد فدس له مــن ســرق نعلــه من بيت حظية له لا يدخلــه إلا ثقاتهِ ثم بعثها إليه، فقال له الرسول من قدر على أخذ هذا النعــل من الموضــع الــذي تعرفه أليس هو بقادر على أخذ روحك"[6]، وأراد الموفق بهذا الكتاب أن يُعرِّف أحمــد ابن طولون بقوتـــه وباســتطاعته أن يبقيــه أو يخرجه من مصر، كما أراد من ناحية أخرى أن يُشّهر بسمعة أحمد بن طولــون لــدى الخليفة[7].

وكان لطــرق البريد الأثر الكبيــر في تسيير انتقال قطر الندى بنت خمارويــه عند زواجها من الخليفة المعتضد وسيرهــا إلى العــراق، فأمر خمارويه إدارة البريــد بإعداد الطريق بين القطائع وبغــداد، وبناء قصر فخــم على كل منزلة تنزل فيها[8].

وبالرغم من أهمية صاحب البريــد إلا أن الناس ينظرون إلــى عاملــهِ نظــرة كراهية وازدراء، وقد ذكر البلوي أن امرأة جــاءت لابن مهــاجر تســتعطفهُ أن يجــد

---

(1) محمد فتحي الشاعر: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، دار المعارف (القاهرة، 1992) ص49.

(2) حسين مولوي: الإدارة العربية، تعريب إبراهيم العدوي، المطبعة النموذجية (الحلمية، 1985) ص171.

(3) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، 272/3.

(4) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص142. كذلك مصطفى طه: المرجع السابق، ص148.

(5) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، 277/3. كذلك نظير السعداوي: المرجع السابق، ص121.

(6) المقريزي: المصدر السابق، 180/2.

(7) نظير السعداوي: المرجع السابق، ص121.

(8) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، 277/3. كذلك نظير سعداوي: المرجع السابق، ص121.

عمــلاً لابنها فعينه ابن مهاجر على البريد في قريتــه بمرتــب عشــرة دنــانير فــي الشهــر، إلا أن هذه المــرأة رفضت هذا العمــل الذي يجلب العــار والذي فضلـــت الجــوع عنه باعتبار أن هذا العمــل يقوم على التجســس والكشــف علــى عــورات الناس(1).

نستنتج من ذلك أن البريد في الدولة الطولونية كان له أهمية بالغة، ممــا جعــل أحمد بن طولون من خلاله أن يعرف أعدائه في الداخل أو الخارج ونوايــاهم، وجعلــه يأخذ الحذر والحيطة منهم.

وكان له الأثر أيضاً في حفظ الأمن والاستقرار داخل مصر والشام وخارجهــا، نتيجة ما قام بها عمال البريد من معرفة الأخبار وإرسالها إلى الخليفة أو الوالي، ويُعــد هذا النظام من أهم النظم التي عرفتها الدولة وبفضله تمتعت الدولة فــي هــذه الفتــرة بالهدوء والاستقرار.

النظم المالية:

1- الخــــــراج(*):

يُعد الخراج من أهم النظم المالية للدولة العربية، فكان أول من فرض الخــراج هو رسول الله (**r**)، حيث قال "الخراج بالضمان"(2). هذا وقد ذكر الخراج في القــرآن الكريم لقوله تعالى: "أَمْ تَسألهم خَرْجاً فَخَراجُ رَبِكَ خَيْرٌ"(3)، ويشير الخراج أيضــاً إلــى

---

(1) البلوي: المصدر السابق، ص209. كذلك سيدة كاشف: المرجع السابق، ص172، مصطفى طه: المرجع السابق، ص148.

(*) الخراج: ضريبة تفرض على الأرض التي صولح عليها عند الفتح وبقيت في أيدي أصحابها تدفع كل عام مرة واحدة، وإذا كانت أرض الخراج لا يمكن زرعها في كل عام تراح عام وتُزرع فــي عــام آخــر، روعى صالحها في ابتداء وضع الخراج عليها = أبو الحسن علي بن محمد الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث (القاهرة، 2006) ص228-232.

والخراج هو المال الذي يُجبى ويؤتى به لأوقات محدودة = أبو الفرج بن رجب الحنبلــي: الاســتخراج لأحكام الخراج، صححه وعلق عليه عبدالله الصديق، دار الحداثة للطباعة والنشر (د.م، 1982) ص7.

(2) الماوردي: المصدر السابق، ص227. كذلك ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ط2 (القاهرة، 1961) ص114.

(3) سورة المؤمنون، الآية 73.

طبيعة البلاد وكيفية فتحها عنوةً أو سلماً وما استقر عليه[1].

كان الخراج في مصر يُجبي مثلما كان الحال في عهد الرومان والبيزنطيين على أساس مساحة الأرض التي يمتلكها الشخص مع مراعاة كل عام فيضان النيل لارتباطه بالزراعة، ويراعى كذلك كمية المحصول التي تنتجها الأرض، في حالة إذا كانت غامرة أو عامرة[2].

والخراج نوعان خراج جزية يُفرض على الأرض التي صولح أهلها على أن تكون لهم، وخراج أجرة يُفرض على الأرض التي صولح أهلها عليها على أن تصير وقفاً، ولا يسقط عنها بإسلامهم أو بانتقالهم إلى غيرهم من المسلمين بعكس خراج الجزية"[3].

كانت ولاية الخراج في بداية الدولة الطولونية وعند مجيء أحمد إلى مصر في يد أحمد بن المدبر، ولِمَا للخراج من أهمية في الدولة أراد أحمد السيطرة عليه، فهو يمثل اقتصاد الدولة وبالسيطرة عليه تكتمل سلطته الفعلية، ويصف البلوى أحمد بن المدبر بأنه "من دهاة الناس وشياطين الكُتَّاب والعمال الأجلاء"[4].

عند تولى بن المدبر الخراج عامل أهالي مصر بكل قسوة وشدة لدفع الخراج، وما يدل على معاملته السيئة للرعية هو شكوى أحد الناس بعدم قدرته على الدفع "فأخرجه فحُمِّلت عليه الحِجارة وطُولب أعنف مطالبة، حتى لقد اُضطر يوماً أحد كبار رجال التجارة أن يبيع حصر داره لهذا السبب"[5]. وهذا يدل على مدى عنف ابن المدبر في جمع الخراج، هذا وقد ابتدع بن المدبر عند توليه الخراج بدعاً، كان منها حجره على النطرون[*]، بعد ما كان مباحاً لجميع الناس، فصيَّر لهم ديواناً مفرداً، وعاملاً جلداً يحظر على الناس أن يبيعوه أو يشتروه إلا من جهته، كذلك ما فرضه على المراعي، فقرر على الكلأ الذي ترعاه البهائم مالاً سماه "المراعي"، وقرر على ما يطعم الله من

---

(1) عبدالحسين مهدي الرحيم: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الجامعة المفتوحة (طرابلس، 1995) ص233.

(2) سيدة إسماعيل كاشف: مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، دار الفكر العربي (القاهرة، 1947) ص50، 51.

(3) المرجع نفسه، ص54، 55.

(4) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص43.

(5) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص70.

(*) النطرون هو كربونات الصوديوم = سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص48.

البحر مالاً سماه "المصايد" إلى غير ذلك، وظل أحمد بن المدبر يستمد قوته من ابتزازه لأموال الناس، محاولاً إرضاء الخلافة بذلك[1].

وعند دخول أحمد لمصر انتبه إلى الثراء والأبهة التي يعيش فيها بن المدبر، مما أدى هذا الأمر إلى التنافس بينهما، وقد بدأ هذا التنافس عندما أهدى ابن المدبر هدايا لأحمد بن طولون لاستمالته، فما كان على بن طولون إلا ردها عليه قائلاً: إنّه ليس في حاجة إلى شيء من ذلك، وكانت قيمة هذه الهدايا عشرة آلاف دينار[2]، فقال بن المدبر: "إن هذه لهمة عظيمة ومن كانت هذه همته فغير مأمون على طرف من الأطراف"[3].

نلاحظ أن بن المدبر انتبه إلى قوة بن طولون وما يرمي إليه منذ أن رد ما أعطاه إياه من هدايا، فدب فيه الخوف مما جعله يكتب إلى الخلافة وإلى الخليفة الذي كان آنذاك "المهتدى" يُبلغه "**أن أحمد بن طولون يروم العصيان وقد عزم التغلب على مصر**"[4]. ورغم علم أحمد بما قام به ابن المدبر إلا أنه كتم الأمر، وظل الصراع بينهما مستمراً حتى خلافة المهتدى وصهره ياركوج، فكتب أحمد إلى الخليفة سنة (256هـ/869م) يطلب منه صرف بن المدبر عن الخراج وتقليد محمد بن هلال، فتم له ذلك "بمناصرة بايكباك الغالب على أمر الخليفة وأعانه الحسن بن مخلد بن الجراح وأبو نوح عيسى بن إبراهيم بن نوح، فكتب بعزل بن المدبر"[5].

ظل ابن المدبر ذو سلطة محدودة، وعند وفاة ياركوج سنة (259هـ/872م) أصبح أحمد والياً على مصر مباشرة من قبل الخليفة، كما أنه استغل فرصة ورود كتاب المعتمد عندما طلب منه جمع الخراج، فكتب إليه "لستٌ أطيق ذلك والخراج في يد غيري"[6]، فكانت فرصة سانحة للخلاص من بن المدبر الذي نُقل إلى بلاد الشام وتم توليه خراج دمشق وفلسطين والأردن[7]، فقام المعتمد بإرسال نفيساً الخادم بتقليده الخراج وتوليه ولاية الثغور الشامية، كما أقر أحمد بن طولون أبا أيوب أحمد بن محمد

---

(1) سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص22.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص43. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص70.

(3) البلوي: المصدر السابق، ص 44، 45.

(4) ابن خلدون: العبر، 298/4. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص70.

(5) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار بيروت (بيروت، 1960) 503/2. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص70-71.

(6) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 7/3. كذلك فؤاد فرج: المرجع السابق، ص354.

(7) عبدالله محمد جمال الدين: في تاريخ مصر الإسلامية، ص57.

بن شجاع المعروف بابن أخت الوزير الخراج وجعل عبدالله بن دشومة[*] أميناً عليه[1]، كما قام بن طولون بالقبض على ابن المدبر الذي كان مقيماً في الرملة، وأودعه في السجن حتى مات، وبوفاته استطاع أحمد أن يصبح صاحب السلطة الإدارية في مصر والشام[2]، وبتوليه الخراج خاصةً استطاع إكمال سيطرته على مصر[3].

وقد تضاعف الخراج عما كان عليه عند تولي ابن المدبر، فبلغ قيمته في عهد أحمد بن طولون أربعة آلاف وثلاث مئة ألف دينار 4,300,000 دينار[4]. كما قام أحمد بن طولون بإلغاء الضرائب التي فرضها بن المدبر على الفلاحين، وأحسن توزيع الضرائب[5]، ثم نقص قيمة الخراج في عهد خمارويه نتيجة إسرافه وتبذيره، فكان يقوم بإرسال أموالٍ كل عام إلى الخلافة مما أدى إلى إرهاق خزانة الدولة.

2- الضرائب والمكوس[**]:

جُبيت أنواع كثيرة من الضرائب عند نفوذ الأتراك، وكان من أهمها المكوس، التي تم فرضها على البضائع التي تُنقل للتجارة سواءً الداخلية أو الخارجية والمنقولة بين أقاليم الدولة، وقد اختلفت جبايتها من التجار، فكانت تختلف الجباية بين التاجر المسلم والتاجر الذمي، وتُجبى هذه المكوس مرة واحدة في العام، ولجبايتها وجدت أماكن أُطلق عليها اسم المراصد أو المآصر، وهو لقب يُطلق على الضريبة نفسها، وهي عبارة

(*) عبدالله بن دشومة: كاتب أحمد بن طولون كان واسع الحيلة بخيل اليد زاهداً في شكر الشاكرين = ابن عبدالظاهر: الروضة البهية، ص77.

(1) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص71.

(2) الكندي: ولاة مصر، ص243، 244. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 7/3.

(3) عبدالله جمال الدين: المرجع السابق، ص57. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص71.

(4) ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص125. كذلك محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية، ص40.

(5) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص200.

(**) كلمة مكس كلمة قديمة مشتقة من اللفظ السرياني "ماكسو" وكانت تُطلق على الضرائب المفروضة على التجارة والصناعة، وكانت معروفة للعرب منذ القدم، وكانوا يطلقونها على الدراهم التي تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق، كما أنها تطلق على الجهة التي فيها المكوس ومن أمثلتها المكس، أو المقس في مصر، وأصل الكلمة في اللغة الجباية = المقريزي: الخطط، 121/2، 122. كذلك صفاء حافظ عبدالفتاح: نظم الحكم في الدولة العباسية في أوائل القرن الثالث الهجري إلى دخول بني بوه بغداد، دار الفكر العربي (القاهرة، 1985) ص149.

عن نقاط تفتيش للتجارة، وقد انتشرت هذه المآصر على طول نهر دجلة[1].

قام أحمد بن طولون بإسقاط هذه المكوس التي وضعها ابن المدبر على الرغم من أنها تُدخل مبلغاً وقدره مائة ألف دينار في السنة لخزينة الدولة، كما أنهم كانوا يأخذون المكوس من السفن الواردة أو الصادرة، التي بلغت قيمتها 100,000 دينار في عام واحد[2].

3- العملة ودار الضرب:

كانت النقود قبل الإسلام تسمى "ديز" بغير ألف، ثم زيد فيها الألف فأصبحت "ديناراً" مع اختلاف وزنها وحجمها[3]، هذا وقد تعامل العرب بالدنانير البيزنطية، والدراهم الفارسية حتى بعد ظهور الإسلام، حيث كانت ترد إلى مكة قبل ذلك دراهم فارسية وحميرية عن طريق رجال القوافل التجارية[4].

لقد أبقى الرسول (r) هذه العملات المتداولة، كما كانت تُجبى بها الزكاة والجزية، حيث كان لا بديل لها في ذلك الوقت، باعتبار أن الفرس والروم في تلك الفترة كانتا أقوى دولتين فلم يشأ تغيير ذلك، كما أن انشغاله بتوطيد ركائز الإسلام، جعل التداول بهذه النقود في معاملاتهم التجارية مع هاتين الدولتين[5].

وظلت هذه العملات متداولة حتى عهد عمر بن الخطاب الذي أضاف إليها نقوشاً إسلامية وضرب عملة على طراز عملة هرقل عام 17هـ/638م مسجلاً عليها اسمه بحروف عربية وتعد هذه من أقدم العملات الإسلامية[6].

ظلت بعد ذلك النقود تُضرب حتى عهد عبدالله بن مروان الذي يُنسب إليه الإصلاح النقدي وتعريب العملة[7].

واهتم العباسيون بضرب عملة تنقش عليها أسماؤهم، واستمر الوضع على هذا

---

(1) صفاء حافظ عبدالفتاح: المرجع السابق، ص150-151.

(2) المرجع السابق، ص155.

(3) علي مبارك باشا: الخطط التوفيقية، المطبعة الكبرى الأميرية (بولاق، 1305) 20/2.

(4) ابن خلدون: المقدمة، ص261.

(5) حسان حلاق: دراسات في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية، تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، دار النهضة العربية (بيروت، 1988) ص25، 26.

(6) المرجع السابق، ص26.

(7) المرجع السابق، ص28.

الحال حتى عصر نفوذ الأتراك(1). أما العملة في عهد الدولة الطولونية، فقد كان أمراؤها ولاة من قبل الخلفاء العباسيين، فكانت تُنقش أسماؤهم على السكة(*)، وكانت العملة المتداولة في ذلك الوقت هي السكة العراقية، التي نُقشت عليها أسماء الخلفاء العباسيين(2).

في بداية الأمر امتنع أحمد بن طولون عن نقش اسمه على السكة بجانب اسم الخليفة العباسي إلا بعد أن استولى على الشام سنة (264هـ/877م)، وأصبح له نفوذ عظيم، فتم بعد ذلك نقش اسمه على السكة عام (266هـ/879م) مع اسم الخليفة(3).

ويذكر كلٌّ من البلوي المقريزي الأسباب التي دفعت أحمد بن طولون إلى سك العملة وضرب الدنانير التي سُمِّيت بعد ذلك بـ "الدنانير الأحمدية" والسبب هو: "أن بن طولون ركب يوماً إلى الأهرام، فأتاه الحُجَّاب بقوم عليهم ثياب صوف ومعهم المساحي(**) والمعاول(***)، فسألهم عما يعملون؟ فقالوا: نحن قوم نتبع المطالب، فقال لهم لا تخرجوا بعد هذا إلا بمشورةٍ، ورجلٍ من قبلي، وسألهم عما وقع إليهم من الصفات، فذكروا له أن في سمت الأهرام مطلباً قد عجزوا عنه، لأنهم يحتاجون في إثارته إلى جمع الكثير، ونفقات واسعة ... فأمر بعض أصحابه أن يكون معهم وأمر عامل معونة الجيزة بدفع جميع ما يحتاجون إليه، وعند ظهور العلامات ركب أحمد ووقف على الموضع وكشفوا له عن حوض مملوء دنانير وعليه غطاء مكتوب عليه بالبيزنطية، فأحضروا من قرأه ففسره، فقال: فمن أراد أن يعلم فضلي وفضل ملكي على

---

(1) صفاء حافظ عبدالفتاح: المرجع السابق، ص171.

(*) السكة هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد يُنقش فيه صور أو كلمات = ابن خلدون: المقدمة، ص261. والسكة: يطلق لفظة السكة "المسكوكات" على جميع النقود التي تعاملت بها الشعوب في العالم الإسلامي = حسان حلاق: تعريب النقود في العصر الأموي، الحياة الاقتصادية والمالية والإدارية، دار النهضة (بيروت، 1988) ص15.

(2) عبدالرحمن فهمي: موسوعة النقود العربية وعلم النميات فجر السكة العربية، مطبعة دار الكتب (القاهرة، 1964).

(3) عبدالرحمن فهمي محمد وسامح عبدالرحمن فهمي: المسكوكات الإسلامية "فجر الإسلام والعصور الأموية والعباسية والفاطمية" (القاهرة، 2001) ص277.

(**) المساحي: جمع مسِحاة وهي ما تُقشر به الأرض وتكون من حديد = انستاس ماري الكرملي البغدادي: النقود العربية وعلم النميات، الناشر محمد أمين دمج (بيروت، د.ت) ص55.

(***) المعاول: جمع معول وهو الفأس العظيمة التي ينقر بها الصخر= انستاس الكرملي: المرجع السابق، ص55.

ملكهِ، فلينظر إلى فضل عيار ديناري على عيار ديناره، فإن تخلص الذهب من الغـش تخلص في حياته وبعد مماته"[1]. فحمد أحمد بن طولون هذه الكتابة لما لها من أهميـة، والتي أحب إليه من المال، فأمر بعد ذلك لكل رجل كان يعمل بمائتي دينار من المـال، وحمل ما بقى منها بعد أن أعطى نسيم الخادم ملء كفيه، ومثـل ذلـك مـرتين لبيـت المال[2]، فوجد هذا العيار[*] أجود من عيار السندي بن هاشك[**]، وعيار المعتصم، فما كان على أحمد إلا التشدد في العيار، حتى لحق ديناره بالعيار الـذي عُـرف بالـدينار الأحمدي، الذي كان لا يُصاب بأجود منه[3].

أما ما يخص وزن هذه الدنانير التي تم ضربُها فيتراوح وزنها مـا بـين 3,30 و3,70 و4,24 جرام، ويرجع اختلاف أوزان هذه الدنانير إلى طريقة السـك البدائيـة، المعتمدة على الخبرة اليدوية، مما جعل من الصعب الحصول على وزن ثابت، ومع هذا فقد كان ابن طولون يقوم بالإشراف على دُور السكة للتأكد من سـلامة العيـار ودقـة الوزن، حتى يقرب من الوزن الشرعي للدينار وهو 4,25 جرام، وفي عهد خمارويـه ظهرت دنانير باسمه واسم المعتضد ولم تقتصر دور الضرب على مصر بل كانت فـي الرافقة ودمشق وحمص وحران وأنطاكية وحلب وفلسطين، أما في عهد جيش فرغم قلة فترة حكمه إلا أنه ضُربت دنانير باسمهِ، كما ضُربت دنانير أخرى في حلـب ودمشـق وفلسطين وتفوقت في وزنها على الدنانير السابقة، وكانت خاتمة السكة الطولونية فـي

---

(1) البلوي: المصدر السابق، ص195، 196. كذلك تقي الدين المقريزي: النقود الإسلامية المسمى بشـذورة العقود من ذكر النقود، تحقيق وإضافات محمد السيد علي بحر العلوم، منشـورات المكتبةالحيدريـة، ط2 (النجف، 1967).

(2) المقريزي: المقفي، 450/1.

(*) العيار اليوم هو النسبة القانونية بين وزن المعدن الصافي الموجود في قطعة السـكة ووزنهـا الكلـي = عبدالرحمن سامح: المرجع السابق، ص132.

(**) هو من رجال هارون الرشيد المقربين صير هارون إليه السكك بعد قتل جعفر البرمكي فضرب الدراهم على مقدار الدنانير، وكان خلاص السندي جيداً أشد الناس خلاصاً للذهب والفضة = عبدالرحمن فهمـي محمد: المرجع السابق، ص127.

(3) البلوي: المصدر السابق، ص196. كذلك تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمـة الفـاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي (القاهرة، 1948) ص164، صامويل برنار: فـي وصف مصر، الترجمة الكاملة، الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثـامن عشـر، الجـزء الثالـث الموازين والنقود، تحقيق زهير الشايب، مكتبة مدبولي (د.م، د.ت) ص160.

مصر[1].

ومع هذا فقد ضُربت دراهم أيضاً، فكانت تضرب من الفضة وتميــزت بالدقـــة، وذلك لاهتمام الطولونيين في إصدار سكتهم من المعادن الثمينة، ولكن هذه الدراهم لـــم تكن تُستعمل إلا في مشتريات صغيرة، ومما يدل على وجود هذه الدراهم هو مـــا تـــم العثور عليها في المتاحف العالمية[2].

كما لم يهمل أحمد ضرب الفلس، فقد اهتم بذلك منذ سنواته الأولى مـــن توليـــه الحكم، وكان يُضرب من النحاس وظهرت هذه الفلوس قبل الدرهم الفضـــي والـــدينار الذهبي، بالرغم من قلة قيمتها الأسمية وضعف قوتها الشرائية، وتم كذلك ضربها فـــي عهد خمارويه في الثغور الشامية ويزن الفلس الواحد 2 جرام[3].

كذلك كان الأمير يقوم بالإطلاع على دور الضرب ويعهد أيضاً إلـــى القاضـــي للإشراف عليها، وسُمح للموظف المختص بدار السك أن يضع أول حرف مـــن اســـمه حتى إذا ظهر أي نقص في العيار يكون مسئولاً عنها، كما كان هناك موظفون مسئولون على ختم هذه الدنانير وعيارها يُعرف بعضهم باسم "المعدلين" و"الســـباكين" ويشـــرف عليهم متولي الضرب"[4].

ونلاحظ مما سبق أن العملات التي تم تداولها في مصر والشـــام فـــي الدولـــة الطولونية تميزت بالصفاء والعيار الكامل، كما أن هذه العملات التي تم تداولها لم يتبعها الغش والتزوير، ومع هذا فلم ينسى أحمد كتابة اسم الخليفة على السكة، ونتيجة لاهتمام الطولونيين بهذه السكة فقد تم ضربها في مدن كثيرة.

النظم القضائية:

تعريف القضاء لغةً واصطلاحاً:

القضاء لغةً هو الحكم وأصله قضاي لأنه من قضيت، إلا أن الياء لما جاءت بعد الألف همزت فأصبحت قضائي والجمع الأقضية، والقضية مثله، والجمع قضـــايا علـــى

---

(1) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص188. كذلك عبدالرحمن فهمي وسامح عبدالرحمن فهمـــي: المرجـــع السابق، ص287.

(2) عبدالرحمن فهمي: المرجع السابق، ص135.

(3) عبدالرحمن فهمي وسامح عبدالرحمن: المرجع السابق، ص290.

(4) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص188. كذلك عبدالرحمن فهمي وسامح عبدالرحمن: المرجـــع الســـابق، ص287.

فعالى وأصله فعائل وقضى عليه، يقضي، قضاء وقضية[1].

وقد عرفه ابن خلدون بقوله: "القضاء منصب الفصل بين الناس في الخصومات، حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة"[2].

والقضاء اصطلاحاً: هو قول ملزم يصدر عن ولاية عامة أو إلزام علـى غيـر ببينة أو قرار، وشرع الله القضاء ليكون رادعاً للحياة ومقوماً لها، ويمنع تغلب القـوي على الضعيف، ولكي يحفظ وينشر الأمن والنظام في الدولة[3]، لقوله تعالى: "وَأَنْ احْكُم بَيْنَهَمُ بِمَا أَنَزل اللهُ وَلاَ تَتّبِعْ أَهْوَاءُهُمْ"[4]، وقول الرسول (r) "إذا حكم الحـاكم فاجتهـد ثـم أصـاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر"[5].

لم يكن نظام القضاء معروفاً في الجاهلية، بل كان يقوم نظـامهم علـى أسـاس قبلي، يستند إلى الأعراف والعادات والتقاليد، وهذا النظام لم يساعدهم على إيجاد سلطة تشريعية، كما اعتمدوا على العرافين والكهنة والاحتكام بالقرعة[6].

وفي عهد الرسول (r) قام بتولي القضاء بنفسه في المدينة، وأحياناً يُنيب عنـه من يفض الخصومات والمنازعات، وتولى بعد ذلك أبو بكر الصديق خلافة المسـلمين فجعل لعمر بن الخطاب أمور القضاة دون أن يُطلق عليه لقب القاضي[7].

واهتم القضاة في مصر في العصر العباسي بإصلاح القضـاء فطهـروه مـن العيوب التي كانت متفشية فيه واشتهروا بالتواضع والإقتداء بالرسول (r) في ابتعـاده عن الكبرياء[8]، كما شهد القضاء تطوراً ملحوظاً خاصةً بعد ظهور المـذاهب الأربعـة

---

(1) السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيريـة (القـاهرة، 1888) 296/10.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص220. كذلك مصطفى الرافعي: حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة، دار الكتاب اللبناني، ط2 (بيروت، 1968) ص139.

(3) محمود مطلوب: القضاء وأحكامه في الشريعة الإسلامية، مجلة كلية الآداب، العدد العشرون، دار الجاحظ (بغداد، 1976) ص336.

(4) سورة المائدة: الآية 51.

(5) أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، حققه وصححه محمـد فـؤاد عبدالباقي، دار الفكر (بيروت، 1999) 1342/3.

(6) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص176. كذلك بشير التليسي وهاشم الذويب: المرجع السابق، ص121.

(7) خيرالله طلفاح: القضاء عند العرب، مطبعة المعارف (بغداد، 1973) ص9.

(8) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص356.

وضعُفت روح الاجتهاد في الأحكام، فأصبح لكل ولاية قضاة يمثلون هذه المذاهب لفض النزاعات، ففي العراق يحكم القاضي وفق مذهب أبي حنيفة، وفي الحجاز وبلاد المغرب والأندلس على المذهب المالكي والشام ومصر وفقاً للمذهب الشافعي(1).

2- تعيين القضاة:

كان تعيين القاضي يتم من قبل الخليفة في بغداد، وعادةً ما ينتخبون القضاة من بين أعلام الفقهاء من ذوي النزاهة، وقد توافرت هذه الصفات في عدد من القضاة الذين تولوا هذا المنصب، كما كان باستطاعة الحاكم أو الخليفة عزل حتى القاضي متى شاء وعزل نفسه كذلك(2).

ولقد احتل منصب قاضي القضاة أعلى سلطة حيث كانت من سلطاته تعيين القضاة الذين ينوبون في الأقاليم والأمصار، وعزلهم عند الضرورة، وأول من تولى هذا المنصب وحمل هذا اللقب القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، صاحب كتاب الخراج في عهد هارون الرشيد (170-193هـ/786-808م)(3).

وعند تعيين القضاة يتم تسلمهم أعمالهم فيلبسون شعار العباسيين، وهو السواد، ويركبون إلى الجامع العتيق في مواكب من الشهود وأصحاب الشرطة ووجوه أهل البلاد، وكان القاضي يقرأ عهد القضاة في الجامع، كما يقوم باستلام أوراق القضايا التي سبقت توليه، ولاتساع نفوذه تختلف صيغة تقليده، فمنهم من كان يُولى قضاء مصر والرملة وطبرية، والبعض يُولى قضاء مصر والإسكندرية والشام، وحمص وفلسطين والرملة وطبرية(4).

ولكي يتولى القاضي القضاء لابد أن تتوفر فيه مجموعة صفات لا يتم القضاء إلا بها ولا تنعقد الولاية ولا تدم إلا معها، وقد ذكر الماوردي الصفات التي يجب توفرها في القاضي وهي: (الإسلام، والبلوغ، والعقل، والعدالة وسلامة السمع والبصر) ليصح بها إثبات الحقوق وليفرق بين الطالب والمطلوب، وأن يكون عالماً بالأحكام

---

(1) وهبة الزحيلي: نظام الإسلام، منشورات جامعة بنغازي (بنغازي، 1974) ص279-280. كذلك حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، 287/2.

(2) صفاء حافظ عبدالفتاح: المرجع السابق، ص218. كذلك وهبة الزحيلي: المرجع السابق، ص292.

(3) عصام محمد شبارو: قاضي القضاة في الإسلام، دار النهضة العربية، ط2 (بيروت، 1992) ص107.

(4) عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبو شامة: الروضتين من أخبار الدولتين (القاهرة، 1278هـ) 19/1.

الشرعية وبكتاب الله تعالى وسلامة اللسان[1]، وأن يكون "غنياً غير هداف وغير مستضعف، حليماً بحق الخصم مشاوراً لأهل الرأي والعلم سالماً من بطانة السوء... عارفاً بما لابد منه بالعربية ومعاني الكلام"[2].

وللقاضي أعوان يستعين بهم لإثبات الحقيقة وإقامة العدل ويسهل عليه القيام بالمهام المكلف بها، فكان له نواب يَنُوبون عنه فيرسلهم إلى الأمصار الأخرى، كما تُعينهم طائفة من الشهود، وهم بمثابة موظفين دائمين والشاهد المعترف يسمى الشاهد العدل، ويُعرف أيضاً الشهود باسم العدول، وهم الذين يقومون بالشهادة بين الناس، بإذن من القاضي، كما كان القضاة في مصر والشام يعنون بالسؤال عن الشهود لمعرفة مدى أمانتهم ونزاهتهم[3].

عُرف القضاء في العهد الطولوني بالنزاهة والاستقامة ورفع الإصر، هذا وقد كان القضاة غير تابعين لمذهب واحد فيحكم القاضي وفق المذهب الذي ينتمي إليه ومذهب إمامه الذي قلده، كما كان ملتزماً للعدل، مما جعل له الأثر الكبير في حياة الناس العامة[4]، وإن كان المذهب الشافعي هو الغالب في القضاء في مصر في هذا العصر[5].

كان للقضاة في هذا العصر اختصاصات، فكانت على الأرجح أنها ظلت منذ عصر الولاة حيث تُسند إليهم الأحكام التي تختص بالمنازعات والمسائل الدينية والنظر في الجرائم[6]، وقيامهم بعناية الأيتام والمواريث وأنواع العقود[7].

كما كان القضاة في هذا العصر يعقدون مجالسهم، ويقضون في المساجد، وخاصة "جامع عمرو بن العاص" أو في بيوتهم، كما أنهم يختارون أياماً للقضاء بين

---

(1) الماوردي: المصدر السابق، ص110-112. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص184.

(2) النباهي أبو الحسن علي بن عبدالله بن حسن الجذامي المالقي: تاريخ قضاة الأندلس "المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا"، ضبطته وشرحته مريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية (بيروت، 1995) ص20.

(3) سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص201، 202، 203.

(4) شوكت محمد عليان: السلطة القضائية في الإسلام "دراسة موضوعية مقارنة"، دار الرشيد (الرياض، 1982) ص80. كذلك عطية مشرفة: القضاء في الإسلام، شركة الشرق الأوسط، ط2 (د.م، 1966) ص156، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص358.

(5) محمد محمد عرنوس: تاريخ القضاء في الإسلام (القاهرة، 1934) ص94.

(6) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص356.

(7) م. غورفروا: النظم الإسلامية، نقله إلى العربية فيصل السامر وصالح الشماع، دار النشر الجامعية (د.م، د.ت) ص174.

الناس سواءً في الجامع أو في بيوتهم[1].

ومن الملاحظ على القضاة في هذه الدولة، أنهم كانوا يُعينون من قبل الخلافة حتى مجيء أحمد بن طولون، وبمجيء خمارويه أخذت عملية تعيين القضاة مجرى آخر، فأصبح الخلفاء هم من يقومون بتعيين هؤلاء القضاة، وهذا ما فعله كذلك هارون بن خمارويه دون أخذ الإذن من الخلافة بتعيينهم.

وما جعل القضاء متميزاً في هذا العصر أنه لم يكن تابعاً لمذهب واحد، فكان للقاضي أن يحكم وفق أي مذهب ينتمي إليه.

3- أشهر القضاة:

برز في العصر الطولوني قضاة اشتهروا بالنزاهة والورع فكان منهم:

1- بكار بن قتيبة:

كان بكار من أشهر القضاة في العصر الطولوني وأعلمهم بالفقه الإسلامي[2]، فقد تولى قضاء مصر في عام (246هـ/860م) في عهد المتوكل إلى مجئ أحمد بن طولون إلى مصر[3]، كما اشتهر "بالزهد وكان كثير التلاوة والمحاسبة لنفسه عالماً زاهداً عابداً"[4].

كان أحمد كثير المداومة لحضور مجلس بكار يستمع إلى دروسه في الحديث الذي يُمليه على الناس، كما أنه أغدق على بكار أموالاً كان يدفعها إليه حتى وصلت إلى ألف دينار غير المال المقرر له[5].

وما لبث أحمد بن طولون إلا أن قام بسجنه، وذلك بسبب امتناعه عن خلع الموفق ولعنه، مما أثار غضب ابن طولون عليه، وما زاد في غضبه قول بكار عندما طُلب منه هذا الطلب قوله: "ألا لعنة الله على الظالمين" فظن أحمد أن بكاراً قصده بهذا

---

(1) فؤاد فرج: المرجع السابق، ص30. كذلك غورفروا: المرجع السابق، ص50.

(2) حازم عبدالمتعال الصعيدي: النظرية الإسلامية في الدولة مع المقارنة بنظرية الدولة في الفقه الدستوري الحديث، دار النهضة المصرية، (القاهرة، 1977) ص264.

(3) ابن عساكر: المصدر السابق، 282/3.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، 48/11.

(5) ابن عساكر: المصدر السابق، 283/3. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 19/3.

الكلام[1]. ويذكر كلٌ من البلوي والكندي سبب الخلع "أنه لما خرج إلى قتال الموفق بسبب العهد حين ضيَّق الموفق وهو ولي العهد على أخيه المعتمد وهو الخليفة حينئذٍ حتى أنه لم يَبْقَ للمعتمد إلا الاسم، فضاق المعتمد بذلك، وكاتب أمراء الأطراف فوافقه أحمد بن طولون وواعده أن يحضر إليه ويحمله معه إلى مصر ويجعلها دار الخلافة ويذب عنه من يخالفه في ذلك، فتهيأ المعتمد واهتم أحمد بأمره، فبلغ الموفق الخبر فنصب لأحمد الحرب، وصرح بعزله ولعنه، فصرح أحمد بخلع الموفق من ولاية العهد وأمر بلعنه وعند خروج أحمد بالعسكر استصحب بكاراً فلما كان بدمشق جاء كتاب المعتمد إلى ابن طولون بخلع الموفق، ففعل وأجاب القضاة إلى خلعه ... وأصر بكار على الامتناع حتى أغضب أحمد ابن طولون فسماه بكار الناكث[2].

تم بعد ذلك تسليم القضاء سنة 257هـ/870م إلى محمد بن شاذان الجوهري كخليفة لبكار[3]، وبالرغم من بقائه مسجوناً إلا أنه كان يقوم كل جمعة بالاغتسال ويلبس ثيابه ويقف أمام الباب وينادي على السجان، يريد الخروج لصلاة الجمعة، فيقول له السجان: "اعذرني أيها القاضي فما أقدر على إخراجك، فيقول بكار: اللهم أشهد ويرجع"[4]. وبعد أن بلغ أحمد ما قاله بكار أرسل إليه فقال له: "كيف رأيت المغلوب المقهور، لا أمر له ولا نهي ولا تصرف في نفسه، لا تزال هكذا حتى يرد على كتاب المعتمد بإطلاقك"[5].

وبالرغم من طول فترة سجن بكار إلا أنه لم يتمنع من التحديث في السجن وخاصة بعد أن طلب أصحابهُ الحديث من أحمد بن طولون بأن يأذن لهم في السماع منه[6]، وظل بكار مسجوناً حتى أمر أحمد بنقله إلى دار اكتريت له عند درب الصقلي، فبقي فيها مدة إلى أن بلغه موت أحمد فقال: "مات البائس"، وطُلب منه أن ينصرف إلا أنه قال: الدار بأجرة، وقد أنست بها، فبقي فيها بعد وفاة أحمد أربعين يوماً ثم توفي في ذي الحجة سنة (270هـ/883م) وصلى عليه ابن أخيه محمد بن الحسن بن قتيبة، بعد

---

(1) الكندي: الولاة والقضاة، ص477.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص294، 295، 316. كذلك الكندي: الولاة والقضاة، 512.

(3) السيوطي: المصدر السابق، 139/2.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص317. كذلك الكندي: الولاة والقضاة، ص514.

(5) الكندي: المصدر السابق، ص514.

(6) اليافعي: المصدر السابق، 186/2. كذلك ابن خلكان: وفيات الأعيان، 252/1.

أن ظل في منصب القضاء أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر وستة عشر يوماً[1].

2- محمد بن عبدة بن حرب[*]:

بوفاة بكار ظلت مصر قرابة سبع سنوات دون قاضٍ إلى أن ولّى خمارويه ابن أحمد بن طولون القاضي الحنفي المذهب محمد بن عبده بن حرب قاضياً سنة (277هـ/890م) حتى سنة (283هـ/896م) وكان لمحمد مجلس في الفقه يحضره الفقهاء من الحنفية والشافعية، ومجلسُ للحديث يحضره الحفاظ[2]. وتميز هذا القاضي بأنه كان سخياً جواداً وأجرى عليه خمارويه في كل شهر ثلاثة آلاف دينار، دليلاً على إجلال وتعظيم خمارويه لهذا القاضي، وظل محمد قوي النفس ويتمتع بالجرأة، وكان يتوسط بين المتخاصمين مثلما ما فعله مع أبي الجيش وأحد أكابره فتوسط بينهما إلى أن أصلح الحال، فقام أبو الجيش وشكره[3]. ظل بعد ذلك محمد بن حرب على القضاء إلى أن قُتل خمارويه وتم خلع ابنه جيش، ولم يظهر محمد بعد ذلك إلا بعد سقوط الدولة، وتولى سليمان الكاتب إمرة مصر، فقام بإعادته إلى القضاء مرة أخرى بعد أن قضى مدة تقارب عن ست سنوات وسبعة أشهر[4].

3- أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي[**]:

ولاّه خمارويه قضاء مصر في سنة (284هـ/897م) بعد أن كان قاضياً في الشام[5]، ويذكر ابن العديم أنه تولى قضاء حلب وقنسرين، وقد ولاه هارون بن

---

(1) الكندي: المصدر السابق، ص478، 479.

(*) هو محمد بن عبدة بن حرب البصري العباداني، أبو عبيدة الله بالتصغير، حنفي من المائة الثالثة ولد سنة (218هـ/833م) وروي عن أبي الأشعث وعمر بن شَبَّة وأبي موسى = الكندي: المصدر السابق، ص514.

(2) ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى (بغداد، 1920) ص247. كذلك عطية مشرفة: المرجع السابق، ص193.

(3) الكندي: المصدر السابق، ص515 (لم تذكر المصادر اسم المتخاصم).

(4) الكندي: المصدر السابق، ص518. كذلك سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص225.

(**) هو محمد بن عثمان بن إبراهيم بن زرعة بن إبراهيم الثقفي مولاهم الشافعي الدمشقي = الكندي: المصدر السابق، ص518.

(5) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص119.

خمارويه[1]، وقيل ولاه المعتضد[2].

كان أبو زرعة أول شافعي يتولى قضاء مصر، وعند مجيئه لمصر لزم قبر أحمد بن طولون يبكيه ويقرأ عليه، فوصف بأنه داهية، فما وصل الخبر إلى خمارويه أعجبه، ودخل أبو زرعة على خمارويه وأعطاه رغيف خبز مختوماً عليه عشر ختمات وختم عليه عشرة آلاف "قل هو الله أحد" فقبلها خمارويه وتبارك به، وقيل إن أبا زرعة ولاه هارون قضاء الشام وضم إليه فلسطين والأردن وحمص وقنسرين، ثم ولاه قضاء مصر وباقي العواصم. ويعد أبو زرعة من القضاة الذين قاموا بلعن الموفق على منابر الشام[3] ومصر وظل بعد ذلك قاضياً حتى تم عزله سنة (292هـ/904م) من قبل سليمان الكاتب، وقام بإعادة بن عبدة، توفي بعد ذلك أبو زرعة سنة (301هـ/913م)[4].

4- ولاية المظالم:

المظالم: هي جمع مظلمة وهو وضع الشيء في غير موضعه وأصله الجور ومجاوزة الحد، والظلامة ما تظلمهُ وهي المظلمة والمظلمة اسم ما يؤخذ منك[5].

ويعرفها المقريزي بقوله: "ولاية المظالم عبارة عن قود[*] المتظالمين إلى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحيد بالهيبة، وكان من شروط الناظر في المظالم أن يكون جليل القدر نافذ الأمر، عظيم الهيبة، لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة وتثبيت القضاة، فيحتاج إلى الجمع بين صفتي الفريقين، وأن يكون بجلالة القدر، نافذ الأمر في الجهتين[6].

وتعد خطة المظالم صورة من صور القضاء، إلا أن عملها ليس قضائياً خالصاً،

---

(1) ابن العديم: المصدر السابق، 86/1.

(2) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص225.

(3) ينظر في لعن أبا زرعة للموفق = الكندي: الولاة والقضاة، ص520.

(4) الكندي: المصدر السابق، ص521، 522. كذلك السيوطي: المصدر السابق، 139/2.

(5) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص186.

(*) القود: نقيض السوق، يقود الدابة من أمامها ويسوقها من خلفها = علي الشطشاط: المرجع السابق، ص186.

(6) المقريزي: الخطط، 207/2. كذلك الماوردي: المصدر السابق، ص219.

بل هو قضائي وتنفيذي[1]، كما "لم تقتصر مهمة صاحب المظالم على النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة وعمال الخراج، بل امتد حتى شمل النظر في تظلم المرتزقة، إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم، وتنفيذ ما يعجز القاضي عن تنفيذه من الأحكام، ومراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد"[2].

أما بالنسبة للعصر الطولوني، فيعد أحمد بن طولون أول من جلس في مصر من الأمراء للنظر في المظالم، واختار يومين في الأسبوع للجلوس لها[3]، وكان أحمد يداوم النظر في المظالم وبكل عناية لدرجة أن استغنى الناس عن القاضي، وحتى كان القاضي ربما نعس في محلهِ ثم انصرف إلى منزلهِ ولم يتقدم إليه أحد[4]. وعند وفاة بكار رُدّ كل شيء إلى الناظر في المظالم، بسبب بقاء مصر دون قاض لفترة طويلة[5].

وفي عهد خمارويه نجده قد ولَّى محمد بن عبدة بن حرب المظالم قبل ولايته للقضاء لمدة أربع سنوات (273هـ/886م)[6]، ومن القضاة الذين نظروا في المظالم معمر الجوهري الذي رافق بكار عند خروجه إلى العباس بن أحمد بن طولون إلى برقة[7].

ومن الملاحظ أن ولاية المظالم والقضاء كانتا مكملتين لبعضهما البعض ويقومان جنباً إلى جنب، فكان كلاهما ينظران في أمور واحدة، ولأهمية ولاية المظالم تولى القضاة فترة بثّ الأحكام والنظر فيها، كذلك تولى القاضي هذه المهمة دليل على أنهما

---

(1) محمد أبو زهرة: القضاء الإداري في الإسلام، مجلة حضارة الإسلام، العدد السابع، السنة الأولى، المطبعة الهاشمية (دمشق، 1961) ص8.

(2) بشير التليسي وهاشم الذويب: المرجع السابق، ص134.

(3) حمدي عبدالمنعم: ديوان المظالم نشأته وتطوره واختصاصاته مقارناً بالنظم القضائية الحديثة، دار الشروق (بيروت، 1983) ص176. كذلك آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقلهُ إلى العربية محمد عبدالهادي أبو ريدة، أعد فهارسهُ رفعت البدري، مكتبة الخانجي، ط4 (القاهرة، 1967) 429/1.

(4) صفاء حافظ عبدالفتاح: المرجع السابق، ص231.

(5) حمدي عبدالمنعم: المرجع السابق، ص178.

(6) الكندي: المصدر السابق، ص515. كذلك المقريزي: الخطط، 207/2، حمدي عبدالمنعم: المرجع السابق، ص178.

(7) الكندي: المصدر السابق، ص221.

يحتلان مكانة في الدولة لا يمكن الاستغناء عنهما.

5- الحسبـــة:

الحسبة هي "وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله وإصلاح بين الناس"(1). ويشترط على المحتسب أن يكون فقيهاً عارفاً بأحكام الشريعة الإسلامية، ليعلم ما يأمر به وينهى عنه، وأن لا يكون قوله مخالفاً لفعله(2).

وتُعد الحسبة من النظم التي يستهدف بها محاربة الانحرافات وتتبع المخالفات للقضاء عليها وتطهير المجتمع من هذه الآثار(3).

ولقد كان للمحتسب مهام واختصاصات شملت جميع شؤون الحياة وخاصةً بعد تطور المجتمع الإسلامي، فكان عليه أن يتفقد أحوال السوق باستمرار، والطرقات العامة، وأن يتخذ عيوناً ليوصلون إليه الأخبار، وأحوال السوق، كما أنه يأمر بسداد الديون وأداء الحقوق بشرط المقدر، وإظهار الحق أو الدين إذا تقدم إليه الدائن وصاحب الحق، كما يقوم بكفالة من تجب كفالته من الصغار(4).

وقد ذكر ابن خلدون واجبات المحتسب بقوله: "ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السايلة، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في

---

(1) عبدالرحمن بن نصر بن عبدالله محمد الشيزري الشافعي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة السيد الباز العريني، دار الثقافة (بيروت، د.ت) ص6. كذلك محمد زيود: نظام الحسبة في الإسلام، مجلة دراسات تاريخية، السنة التاسعة، العددان التاسع والعشرين والثلاثين، تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب (دمشق، 1988) ص149.

(2) علي الشطشاط: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص192.

(3) محمد سعيد العشماوي: الحسبة، مجلة العربي، العدد أربعمائة وسبعة وخمسون، وزارة الإعلام، (الكويت، 1996) ص28.

(4) حسام قوام السامرائي: المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية خلال (247-334هـ/861-945م) قدم له عبدالعزيز الدوري، مكتبة دار الفتح (دمشق، 1971) ص316. كذلك أحمد محمد مليجي: النظام = =القضائي الإسلامي، مكتبة وهبة (القاهرة، 1984) ص85، فتحية النبرواي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، الدار السعودية، ط4 (جدة، 1987) ص130.

الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين"[1].

ومـــع هذا فقد تطورت أعمال المحتسب خاصة في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، فوجـــب عليه أن يتفقد الأماكـــن التي تجمع فيها النســـاء ويمنع اخـــتلاطهن بالرجال، ومـــا يجـــري في الأســـواق كالغش في البيع والبخس في المكاييـــل، كـــذلك على المحتسب قصد مجالـــس الولاة والأمراء والقضاة والمعلمـــين وأئمـــة المســـاجد والأطباء، وأن يتفقد أحوال دار المرضى، وبهذا نجد أن للمحتسب صلاحية واسعة مـــن توقيع العقوبة على من يقوم بارتكاب المنكرات الظاهرة[2]. فأصبح هذا المنصـــب مـــن أخطر المناصب، وأوسعها نظراً، فكانت للقاضـــي مهـــام أدبيـــة ودينيـــة وعمرانيـــة وقضائية[3].

أما في العصر الطولوني فلم يكن هناك موظف خاص بأعمال الحســـبة، حيـــث كانت هذه الوظيفة من ضمن أعمال القاضي في تلك الفترة[4].

6- الشرطـــــة[*]:

يقصد بالشرطة الجند المكلفون بحفظ النظام وإقرار الأمن في البلاد ليلاً ونهاراً، والقبض على الجناة والمجرمين والضرب على أيدي المريبين والمذنبين، وتأديبهم ومـــا يتصل بذلك مما يضمن سلامة الناس وأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وتعد من الوظـــائف المهمة في الدولة[5].

وقد عرفها ابن خلدون بأنها: "وظيفة مرؤوسة لصاحب الســـيف فـــي الدولـــة،

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، 225.

(2) محمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحســـبة، عنـــى بنقلـــه وتصحيحه روبن ليوي، مطبعة دار الفنون (كمبـــردج، 1937) ص7، 116-126. كـــذلك عبـــدالرازق الحصان: الحسبة، مطبعة التفيض (بغداد، 1946) ص30، السامرائي، المرجع السابق، ص324، 325.

(3) نقولا زيادة: المحتسب، مجلة العربي، العدد خمسمائة وإحدى عشر، وزارة الإعـــلام (الكويـــت، 2001) ص56.

(4) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص 227.

(*) الشرطة: أصل الكلمة شُرطيٍ وهي مشتقة من الشرط وهي العلامة، لأنهم يجعلـــون لأنفســـهم علامـــات خاصة يعرفون بها = ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، ط3 (بيروت، 1994) 329/7، 330.

(5) ناصر الأنصاري: تاريخ أنظمة الشرطة في مصر، دار الشروق (القاهرة، 1990) ص77. كذلك علـــي الشطشاط: المرجع السابق، ص198.

وحكمه نافذ في صاحبها وفي بعض الأحيان"[1]، ولم ينشأ نظام الشرطة مرة واحدة، بل كانت بدايته بسيطة، يعود نشأته إلى عهد الخلفاء الراشدين، فكان نظام العسس[*] نـــواة الشرطة في الإسلام، وما لبث أن أخذ هذا النظام يتطور حتى اتضحت معالمه في العهد الأموي، حيث بدأت الشرطة تنفرد وتستقل عن القضاء[2].

وكانت الشرطة جماعة من الجند يتبعون الخليفة أو حكام الأقاليم، ويُعهد إلـــيهم بحفظ النظام ونشر الأمن في البلاد ومنع الجرائم ويُسمى من يعهد إليه الوالي هذه المهام بصاحب الشرطة أو صاحب الليل[3].

وَيُعد نظام تعيين الشرطة مثل الأنظمة الأخرى حيث يتم تعيين صاحب الشرطة من قبل الوالي، وظل في بداية الأمر مقر صاحب الشرطة في الفسطاط، وعند تأســيس مدينة العسكر أُنشئت دارُ للشرطة، وسُميت بدار الشرطة العليا في مدينة العسكر وأطلق على شرطة الفسطاط الشرطة السفلى ومقرها مكان العسكر وعلى جبل يشكر[4].

أما في العصر الطولوني فقد اهتم أحمد بن طولون بصاحب الشرطة، حيث وجه إليه مهام مثل النظر في الأحباس (الأوقاف) والإشراف على أرزاق الجنــد[5]، وبلغــت أهمية صاحب الشرطة في عصر الولاة أنهم كانوا ينوبون عن الوالي ويحلون محله إذا تغيب عن البلاد، وفي كثير من الأحيان يُعين الخليفة صاحب الشرطة والياً إذا مـــات أو عُزل الوالي[6].

كما وُجدت في هذا العصر شرطتان شرطة عُليا وتختص بالنظر فـــي أحـــوال الطبقة العليا من القواد والعلماء والعظماء، وشرطة سفلى تختص بإقامة العدل وتوطيـــد الأمن بين العامة وتوطيد الأمن في الدولة[7].

---

(1) ابن خلدون: المصدر السابق، 251. كذلك بشير التليسي وهاشم الذويب: المرجع السابق، ص115.

(*) العسس أي الطواف ليلاً لتتبع اللصوص وكشف أهل الريبة = علي الشطشاط: المرجع السابق، ص198.

(2) توفيق اليوزبكي: دراسات في النظم العربية الإسلامية، مطعبة جامعـــة الموصـــل (الموصـــل، 1975) ص148.

(3) صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص334. كذلك حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، 276/3.

(4) محمد الشريف الرحموني: نظام الشرطة في الإسلام إلى أواخر القرن الرابع الهجـــري، الـــدار العربيـــة للكتاب (د.م، 1983) ص75. كذلك سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص163.

(5) ناصر الأنصاري: المرجع السابق، ص50.

(6) جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص38.

(7) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص350.

ومن الملاحظ على أصحاب الشرطة في هذا العصر أنهم لم يعمروا طويلاً في مناصبهم إما لعجزهم أو لفرط قسوتهم أو خشية استفحال نفوذهم بين الشعب[1].

ومع هذا فقد وُكلت إلى أصحاب الشرطة مهام أخرى غير اختصاصاتهم مثل ما قام به إبراهيم بن يلبرد، فقد خرج في عام (267هـ/880م) بجيش إلى برقة ليتصدى للاضطرابات وذلك تنفيذاً لأوامر أحمد بن طولون[2].

كما اهتم أحمد بن طولون بالشرطة السرية، فكان له أشخاص مكلفون باستقصاء الأخبار من كل مكان حتى في السجون، وكان أحمد في بعض الأحيان يخرج متنكراً في الطرق والأسواق[3]، ويقول لمن يوليه الشرطة السفلانية: "ارفق بالرعية وانشر العدل عليهم واقض حوائجهم وأظهر إكرامهم وتفقد مصالحهم فإني أسير بالليل في محالهم، فكل موضع أمر به لا يخلو من قارئ أو داعٍ أو متهجد أو ذاكر الله ... ولمن يتولى الشرطة الفوقانية فيقول له: "تشدد عليهم، وأرهبهم وأغلظ عليهم ولا تلن لهم فإني أسير في محالهم فلا أسمع إلا غناءً أو صوت سكران أو معربد[*] قد أخرجته عربدته إلى الوثوب والكفر"[4].

وأُدخل للدولة الطولونية نظام جديد من أنظمة الشرطة فقد كان للدولة إدارة لجوازات السفر أو السجلات وما يدل على وجود هذا النظام ما ذكرته سيدة كاشف نقلاً عن ابن الداية أن موسى بن طولون جاء إلى أخيه غاضباً منه يطلب منه جواز سفر حتى يترك الديار المصرية، وكان هناك عامل على الشرطة السفلى اسمه يعقوب بن صالح، يقوم بضبط من يغادر البلاد دون جوازٍ للسفر حيث قام بضبط تاجر اشترى من أحد أتباع أحمد بن طولون عبداً بمبلغ مائتي دينار، وتحصل هو وخادمه على جواز سفر، وكان حبيب المعري مختصاً بفحص الجوازات والأمتعة التي يحملها المسافرون معهم، فعند رؤيته هذا الجواز منعه من المرور إلا بعد أن وصله ما طلبه من معلومات

---

(1) ينظر الكندي ص ص 245، 258، 262، 263 في أسماء الذين تولوا منصب الشرطة. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص185.

(2) الكندي: المصدر السابق، ص249. كذلك ناصر الأنصاري: المرجع السابق، ص51.

(3) ناصر الأنصاري: المرجع السابق، ص51.

(*) عربد عربدة: ساء خلقه فهو عربيد ومعربد = محمد الشريف الرحموني: المرجع السابق، ص79.

(4) المقريزي: المقفى، 451/1.

عنهما من العاصمة، وبعد التأكد منحا جواز سفر قانوني وسُمح لهما بالمغادرة[1].

7- السجـــــون[*]:

عُرف نظام السجون في الدولة الطولونية، ويذكر أغلب المؤرخين أن في عهـــد أحمد بن طولون وصل عدد المسجونين ثمانية عشر ألف شخص مسجون، وكـــان مـــن يتولى إدارة هذه السجون موظف كان في خدمة الأمير واكتسب ثقته[2].

لم يكن أغلب المسجونين قد سجنوا لأسباب سياسية بل اختلفت أسباب ســـجنهم، وطريقة سجنهم، فكان المسجون يؤمر بأن يلتزم داره فـــلا يخـــرج منهـــا ولا يتصـــل بالخارج، أو أن يُنقل المسجون إلى السجن بعد أن يُحكم عليه، ولم يكـــن المســـجونون مكلفين بالأعمال الشاقة لحساب الدولة، فكانوا يقومون بصنع بعـــض الأشـــياء وبيعهـــا لحسابهم الخاص[3].

ومن أشهر العاملين على السجون أبو مصلح موسى بن مصلح، فقد تـــولى إدارة السجون في عهد أحمد بن طولون، ورغم دهائه إلا أنه كان مخلصاً لأحمد لدرجـــة أن هذه الميزة أخفت ما يقوم به، حيث كان يتقاضى من المسجونين مبلغاً مالياً يقدر بمائـــة دينار وذلك مقابل إطلاق سراح واحدٍ منهم، كما قام بإطلاق سراح أحد المسجونين ثلاثة أيام حتى يتمكن من الاتصال بشخص ليفرج عنه أحمد بن طولون، كما ساعد أبو مصلح الأبرياء للوصول إلى الأمير للدفاع عن أنفسهم وإثبات براءتهم[4].

ويلاحظ مما سبق على هذا النظام الآتي:

1- يعد هذا النظام من الأنظمة التي يهتم بها الخلفاء والأمراء لكي يستتب الأمن في البلاد وللقضاء على الفوضى.

2- عدم ثبات أصحاب الشرطة في مناصبهم وتوليهم وعزلهم أكثر من مرة مثلمـــا

---

(1) عبدالله بن العباس الجراري: تقدم العرب في العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوربا، دار الفكـــر العربـــي (القاهرة، 1961) ص139، 140. كذلك ناصر الأنصاري: المرجع السابق، ص52، سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص177-178.

(*) السجون مفردها سجن والسجن، أي سجناً وحبساً = إبراهيم مصـــطفى وآخـــرون: المعجـــم الوســـيط، 419/1-420.

(2) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص174.

(3) علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ص358. كذلك طه بدر: مصر الإسلامية، ص149.

(4) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص175.

حدث مع موسى بن طونيق حيث تولى هذا المنصب أكثر من مرة.

3- تنوعت اختصاصات صاحب الشرطة فلم تقتصر على ما عهدنا به بل أنه يصل إلى التصدي للإضطرابات في العواصم الأخرى المجاورة.

4- وجود شرطة سرية مهمتها تقصي الأخبار سهلت معرفة ما يدور في البلاد، كذلك نظام الجوازات الذي جعل الدولة أكثر أماناً، ومنعت أي شخص دخول البلاد دون إبراز هذا الجواز.

5- وجود ما يسمى بالرشوة وما يدل على هذا في نظام السجون ما أخذه أبو مصلح لإطلاق سراح بعض المسجونين.

النظام العسكري:

1- تأسيس أول جيش:

يُقصد بالجيش الجند أو العسكر أو المقاتلة الذين يسيرون للحروب أو الجهاد[1]، ولم يكن للعرب نظام خاص للجند أو جيوش نظامية مثل الفرس أو الروم بل كان العرب يظهرون شجاعتهم وقدرتهم على القتال عندما تنشب حرب بين قبيلة وأخرى، وإذا غزا قوم قوماً آخرين، فيظهرون صفاتهم القتالية في خدمة قبيلتهم أو قومهم، وعادةً ما تكون المبارزة في بداية الأمر فردية بين بطلين من أبطال القبيلتين ثم يكون إلتحام الطرفين، وكان الأسلوب المتبع أو المعروف في المعارك هو الكر والفر، وبمجيء الإسلام جعل للقتال غاية كما قضى على العصبية القبلية ووحدها وأصبحت وجهتهم واحدة وهي نشر الإسلام[2].

كما عمل النبي (r) بتعليم المسلمين فنون القتال ثم تدريبهم على استعمال السلاح، وقد حث عليه القرآن بقوله تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِباطِ الخَيلِ تُرهِبُونَ بِه عَدُو الله وَعدُوَّكُم"[3]. ومع هذا فلم يُكره الرسول المسلمين على الاشتراك في القتال، ونهج بعده الخليفة أبو بكر نفس النهج، وبتولي الخلافةَ عمر بن

---

(1) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص122.

(2) محمود أحمد سليمان: الجيش والقتال في صدر الإسلام (الأردن، 1987) ص45، 46. كذلك عبدالحميد العبادي وآخر: الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها، مكتبة نهضة مصر، ط3 (القاهرة، 1958) ص31، 32.

(3) سورة الأنفال: الآية 60.

الخطاب فرض نظام التجنيد وذلك عام (20هـ/640م) ووضع نظاماً للجيش وخططاً استطاع من خلالها تكوين جيشٍ عظيمٍ، كما رتّب لهم الأرزاق، وكان من يتأخر عن الجهاد بغير عذر يُعيّر ويُلام لوماً يردعه ويردع غيره، وما جعله يقوم بهذا هو انشغال المسلمين بكسب المال عن القتال[1].

وفي العهد الأموي أُدخل نظام التجنيد الإلزامي – أي الإجباري – وذلك في عهد عبدالملك بن مروان نتيجة استقرار المسلمين وتوقفهم عن الحرب[2].

أما في العصر العباسي فقد اختلف تكوين الجيش عما كان عليه الجيش في عهد الرسول (r) والخلفاء الذي كان فيه العنصر العربي، فقد اعتمد العباسيون على العناصر غير العربية، حيث استعانوا بالعناصر الخُراسانية والتركية، وازداد نفوذهم بعد ذلك مما جعلهم يشكلون خطراً على الخلفاء أنفسهم، ومع هذا فقد استعان الخلفاء بالديلم[*] والأكراد وغيرهم من الجند المرتزقة والجنود التي تمّ جلبها مثل: الصقالبة[**] والروم[3].

أما في الدولة الطولونية فقد أراد أحمد بن طولون أن يزيد في هيبته في مصر، فعمل على تكوين جيش يستطيع أن يعتمد عليه وأن يقضي به على الثورات التي تقوم في مصر، فنجده عند مجيئه لمصر واستقبال بن المدبر له، وجد أن لدى ابن المدبر "مائة غلام من الغور، وكان لهم خلق حسن وطول أجسام وبأس شديد وعليهم أقبية ومناطق ثقال عراض، وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من فضة، وكانوا يقفون بين يديه في حافتي مجلسه إذا جلس فإذا ركب ركبوا بين يديه فيصير له بهم هيبة عظيمة في صدور الناس"[4].

---

(1) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص123، 124. كذلك صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص488.

(2) سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، د.ت) ص52.

(*) هم سكان جنوب قزوين، ولقد أكثر أحمد بن طولون من شراء مماليك الديلم مما بلغ عددهم أربعة وعشرين ألف غلام = محيي الدين بن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور في مسيرة الملك المنصور وتتناول الحقيقة ما بين سنتي 678هـ و689هـ، حققه مراد كامل، راجعه محمد علي النجار، الشركة العربية للطباعة والنشر (د.ت، 1961) ص35.

(**) الصقالبة: هم جيل أحمر اللون صهب الشعور يقطنون بعض جبال الروم.

(3) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص127. كذلك محمود أحمد سليمان: المرجع السابق، ص87، حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، 281/3.

(4) المقريزي: الخطط، 314/1. كذلك أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر، ص480.

وكان أحمد بن طولون قبل ذلك قد رفض هدايا ابن المدبر، إلاّ أنه بعد أيام نجده يكتب له ويقول: "قد كنت أعزّك الله أهديت لنا هدية وقع الاستغناء عنها، فلم نجز تغنم مالك، كثره الله، فرددناها توفيراً عليك، وأحب أن تجعل العوض عنها الغلمان الذين رأيتهم بين يديك، فأنا إليهم أحوج منك"(1).

نلاحظ شدة انتباه أحمد لهؤلاء الجنود، بالرغم ما أرسله ابن المدبر من هدايا والتي لم تلفت انتباه أحمد بقدر ما انتبه إلى ما بين يدي بن المدبر، ولكي يزيد من دعم مركزه أراد أن يبدأ إعداد جيش له.

أراد أحمد بن طولون أن يُكَوِّنَ جيشاً يعتمد عليه ويدين له بالولاء التام له دون عاصمة الخلافة، وما جعله يحقق هذه الرغبة أنه ما واتته فرصة إلا واستغلها خير استغلال ليُظهر بعد ذلك أحمد مبدأ القوة وسيطرته وليكون أول جيش، وذلك عندما أمره الخليفة المعتمد محاربة أحمد بن عيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني(*) عامل فلسطين والأردن، الذي بوفاته وثب ابنه على الأعمال، فأعلن أحمد بن عيسى الخروج ونقض الطاعة، كما قام بأخذ الأموال التي أرسلها ابن المدبر إلى الخليفة التي تقدر بسبعمائة وخمسين ألف دينار، فقام عيسى بتفريقها على أصحابه(2)، فما كان على أحمد بن طولون إلا أن طلب من الخليفة أن يسمح له تكوين جيش للقيام بهذه المهمة، فلم يمانع بذلك، وأرسل الخليفة إلى بن المدبر كتاباً بأن يعطي أحمد ما يحتاج إليه من مال، "فتبعهما أحمد بن طولون فعرض الرجال وأثبت من يصلح إثباته، واشترى العبيد روماً وسوداناً وحدد آلته وكل ما يحتاج إليه"(3).

غير أن الخليفة رجع عن رأيه بخروج أحمد لمقاتلة ابن الشيخ خوفاً من أن هذا سيؤدي إلى إعلاء شأن أحمد على حساب الخليفة، فأوكل هذه المهمة إلى ماجور، الذي دار بينه وبين ابن الشيخ قتال عام (256هـ/869م) أرسل فيه ابن الشيخ ابنه منصور فضرب ماجور عنقه على باب دمشق، كما قتل أصحابه وانهزم باقي العسكر وتسلم ماجور أعمال

---

(1) البلوي: المصدر السابق، ص45.

(*) هو عيسى ابن الشيخ عبدالرازق بن السليل الشيباني من ولد جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان ابن ثعلبه الشيباني الربعي الذهلي = عمر عبدالسلام تدمري: أسرة عيسى بن الشيخ في صيدا وجنوب لبنان في القرنين الثالث والرابع الهجريين، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد الثالث والعشرون، السنة الثانية، دار النشر العربية (بيروت، 1980) ص54، 55.

(2) المقريزي: الخطط، 315/1. كذلك حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص44، 45.

(3) البلوي: المصدر السابق، ص51. كذلك حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص55.

الشام، فما أن وصلت الأخبار لابن الشيخ بهذه الهزيمة وبقتل ابنه حتى لجأ إلـــى مدينـــة صور بأهل بيته، فأرسل إليه الخليفة المعتمد الحسين الخادم المعروف بعـــرق المـــوت[*] وفقيهين هما إسماعيل بن عبدالله الحروزي ومحمد بن عبيد الله الكريزي القاضي ليطلبـــوا من ابن الشيخ رد المال الذي أخذه مقابل توليته أرمينية، وأن يخرج من بلاد الشام، فخرج عام (256هـ/869م) وظل والياً على أرمينية حتى توفي عام (269هـ/882م)[1].

ورغم قرار الخليفة السالف الذكر إلا أن أحمد لم يفقد جيشه في قتال ابن الشيخ، فنجده يُكوِّن جيشاً من عدة عناصر من الأتراك ومن السودانيين، ومن العرب، فاستخدم منهم 7000 من المطوعة[2]، كذلك استخدم في جيشه النوبيين وكان عـــددهم 40 ألفـــاً وأسكنهم حي يُعرف باسمهم، وتشير بعض المراجع إلى أن أحمد حصل علـــى بعـــض منهم بواسطة تجارة الرقيق[3]، كما استعان بالديالمة والمماليك[4].

وفرض أحمد في عام (258هـ/871م) على هؤلاء الجنود أن يقسموا له يمـــين الطاعة والولاء وأن يعادوا من عاداه ويوالوا من والاه[5]. وأفرد أحمد بن طولون لهـــذه الجيوش حياً خاصاً بهم وسمى كلّ قطيعة اقتطعت لهم بأسمائهم[6]، وبهذا نجد جيش ابن طولون قد بلغ عدده مائة ألف جندي، وقيل أنه "بلغ 24 ألف مملوك من الترك و40 ألفاً من السود وسبعة آلاف حر مرتزق"[7].

(*) عرق الموت يضرب مثلاً لأشد الشدة، والحسين كان خادماً للمعتضد والمكتفي والذي كان يتولى البريـــد يلقب بعرق الموت، وقيل أن المكتفى لقبّه بذلك = البلوي: المصدر السابق، ص50.

(1) عز الدين أبي عبدالله ابن شداد: الأغلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الـــدهان (د.م، د.ت) 124/1. كذلك عمر عبدالسلام تدمري: المرجع السابق، ص54.

(2) سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص26.

(3) مكي شكيبة: السودان عبر القرون، دار الثقافة (بيروت، د.ت) ص39.

(4) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة، د.ت) 244/2.

(5) فيليب حتي وادوارد جرجي وجبرائيل جبور: تاريخ العرب مطول، مطبعة الغنـــدور، ط4 (د.م، 1965) 544/2.

(6) المقريزي: الخطط، 315/1.

(7) محمد بن محمد خليل الأسدي: التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجـــب مـــن حســـن التـــدبير والتصرف والاختبار، تحقيق عبدالقادر أحمد طليمات، دار الفكر العربي (القاهرة، 1967) ص67. كذلك سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص126، فيليب حتي وأنيس فريحة ونقولا زيادة: لبنان في التاريخ منـــذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحالي، دار الثقافة (بيروت، د.ت) ص333.

ونلاحظ أن هناك أسباباً جعلت أحمد بن طولون يُنَوِّع عناصر جيشهُ، وهي: لكي يضمن ولائَهم وحتى لا يَغْلِبَ على الجيش عنصر فيستبد به، حيث أن هذه العناصر لا تجمعها أية روابط ماعدا رابطة الولاء لشخص واحد أو لسيد واحد وهو أحمد بن طولون فيكونوا جميعاً طوع يمينه ورهن إشارته(1).

ومما يدل على أن أحمد بن طولون لديه عدد كبير من الجنود ما ذكرهُ البلوي بأن عدد الجيش الذي أرسله أحمد لإخضاع ابنه العباس قُدر بمائة ألف(2) وعندما أرسل أحمد كتابه إلى المعتمد يعرض حمايته وإنقاذه من استبداد الموفق، أرسل في الوقت نفسه كتاباً يهدد فيه الموفق بإرسال مائة ألف(3).

بذل أحمد بن طولون عناية كبيرة بالجيش فوفر لهم كل سبل وأسباب الراحة لدرجة أنه كان يؤثرهم على نفسه حيث قال: "هؤلاء الغلمان فهم عدتي وينتسبون إلىّ انتساب الأبناء إلى الآباء... فأنا أوثرهم بما يحبون وارتفع أنا عنه كما أنهم يؤثرونني في أوقات التضايق على نفوسهم فيبذلون في مهجهم دون مهجتي"(4).

وجعل ضباط هذا الجيش من الترك المقربين إليه. ولكي يضمن استعدادهم الدائم كان يدربهم تدريباً شاقاً، ومع هذا ورغم قلة المصادر في تقدير المبالغ التي تُدفع رواتب للجيش إلا أن أحمد بن طولون كان لديه من المال ما يستطيع أن يدفعه للجيش بنظام وأغدق عليهم دون حساب. ولم يلق أحمد كره من جنده بدليل أنه لم تحدث في أيامه ثورة تُنسب إلى تخلفهم عليه(5).

ولقد ذكر البلوى اهتمام أحمد بأرزاق جيشه حتى في مرضه "فعندما اشتدت علته تقدم إلى ابن مهاجر في إطلاق رزق سنة للجيش في بيعة أبي الجيش بعده، فظن ابن مهاجر أن ذلك من اختلاط العلة، فأهمل العمل به، فلما كان من غد يومه سأله عما صنع في ذلك، فقال له: ما خرج الحساب من أيدي الكتاب بعد، ... فقال أحمد لابن مهاجر إنما أردت أن يعلم الجيش أنه قد حصل لهم مالاً يسمح ببعضه من يحاربهم

---

(1) حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية، ص47.

(2) البلوي: المصدر السابق، 148.

(3) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص127. كذلك مصطفى طه: المرجع السابق، ص150.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص111.

(5) عبدالرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي من الفتح العربي إلى معركة المنصورة، موسوعة الجيوش الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، د.ت) ص14، 15.

ويكاثرهم فتكون أيديهم وقلوبهم قوية"[1].

ورغم ذلك فقد كان أحمد يقسو على جيشه عند اللزوم وشديد الكرم في أحيـــان أخرى حيث نجد أنه بعث إلى قائده بهم بخلع وطوق من ذهب، بعد انتصاره على ابـــن الصوفي، الذي خرج عام (256هــ/869م) بصعيد مصر[2].

وعندما فتح ابن طولون الشام انضم إلى جيشه جنود الأقاليم، غيـــر أن الجنـــود الشامية لم ترتبط به بسبب أنه لم يبق بجانبهم كثيراً، كما أنه واجه صعوبة في تـــدريبهم بنفس الطريقة التي اتبعها مع جيشهِ في مصر[3].

كان أحمد بن طولون يقوم باستعراض الجيش في مناسبات الحفـــلات والأعيـــاد وأيام الجمع فكان بقصره مكاناً يُشرف على الجيش في يوم عرضه.

والجدير بالملاحظة أن أحمد بن طولون كان أول من أدخل السودانيين في جيش مصر[4]، وعند وفاته خلف لابنه جيشاً عظيماً، كما أوصاه بالحفاظ عليه وأن يبقيه متحداً في خضوع له والولاء لدولته، وعليه إدراك أنهم من صناع هذه الدولة فقال: "قد وطأت لكم المهاد بهذه الدولة وخلفت لكم من عدتها ما يكفيكم فاطرحوا الأحقاد بينكم وأسقطوا التحاسد ولتكن كلمتكم واحدة جماعتكم كرجل واحد"[5]. ومن إحدى الوصايا التي تـــدل على أنه قد ترك أموالاً للجيش قوله: "يا بُني في حاصلي ألف ألف دينار وسبعمائة ألف وهي غير الوديعة، يكون ذلك لعطاء جيشك وما عسى أن يعرض لك عند مقاومه مـــن يقصدك"[6]. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على حرص أحمد لعطائه الجيش وحرصه على بقائه يداً واحدة وأن لا يدب فيهم الفرقة والنزاع.

فما كان من خمارويه بعد وفاة أبيه إلا أن انصرف إلى الجيش الذي به يستطيع البقاء والقضاء على كل ثورة ممكن أن تدب في خلافته، فعنايته بالجيش لم تقل أهميـــة عن عناية أبيه، فزاد عدد جنوده وأدخل عناصر جديدة، جاء بهم من آسيا الوسطى، وقام

---

(1) البلوي: المصدر السابق، 336، 337.

(2) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص129.

(3) المرجع نفسه، ص129.

(4) عبدالرحمن زكي: المرجع السابق، ص13.

(5) البلوي: المصدر السابق، ص339.

(6) المصدر نفسه، ص340.

بالإكثار من الترك، كذلك ضمَّ طائفة من المصريين وبهم تضاعف الجيش[1].

وما يدل على اهتمام خمارويه بالجيش أيضاً قيامه بتدريبهم وتنظيمهم وتسليحهم حتى كوَّن منهم فرقة سماها "المختارة" فكانوا شبه حرسه الخاص، كما جند خمارويه قوماً من العرب كانوا يقيمون في منطقة الحوف وغيرها من مستقرات العرب، فكان أكثر ما جنده من الجنود شباباً وأكثرهم قوة[2]، حتى يشغلهم عما كانوا فيه سابقاً من قطع الطريق وأذية الناس[3].

كما اهتم خمارويه بمظهر جيشهِ فألبسهم أفخر الثياب فألبسهم الأقبية من الحرير والديباج وصاغ لهم المناطق وقلَّدهم بالسيوف المحلاة، يضعونها على أكتافهم إذا مشوا بين يديه، فكانوا يقاتلون أمام جند خمارويه أضعاف ما يقاتله الجند[4]. وهذا إن دل فإنما يدل على سخاء أحمد لجنوده وكرمه، وازداد اهتمام وعناية خمارويه بالجيش خاصةً في المواكب الرسمية فيصف المقريزي ذلك بقوله: "إذا ركب خمارويه ومضى الحُجاب بين يديه ومشى موكبه على ترتيبه ومضت أصناف العسكر وطوائفه، تلاهم السودان، وعدتهم ألف أسود لهم درق من حديد محكم الصنعة وعليهم أقبية سود وعمائم سود، فيخالهم الناظر إليهم بحراً أسود يسير على وجه الأرض لسواد ألوانهم وثيابهم ويصير لبريق درقهم وحلي سيوفهم والخوذ التي تلمع على رؤوسهم من تحت العمائم زي بهيج إلى الغاية"[5].

ويدل زي هؤلاء الجنود على الأبهة والفخامة التي يعيش فيها خمارويه والتي غلت على الحياة في عصره[6].

ومع كل هذا اشتدت عناية خمارويه بأن جعل لكل جماعة في الجيش سلاحها وزيها، كما حّدد لهم دورهم في القتال، وظلَّ خمارويه يمنح لهؤلاء الجنود أعطيتهم بانتظام وزادهم في العطاء لدرجة أنه أعطى أكثر ما كان أبوه يعطيه لجنوده، وتذكر

---

(1) عبدالرحمن زكي: الجيش المصري في العصر العباسي، ص15. كذلك حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص99.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 59/3. كذلك سيدة كاشف وأحمد محمود: المرجع السابق، ص55.

(3) المقريزي: الخطط، 318/1.

(4) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 59/3. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص55.

(5) المقريزي: المصدر السابق، 318/1.

(6) سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص55.

بعض المراجع أن عدد جيش خمارويه في مصر والشام وصل إلى 400,000 جندي[1]، أما نفقاته على جيشه فبلغت تسعمائة ألف دينار في السنة[2]، وبهذا استطاع كل من أحمد وخمارويه تكوين أول جيش مستقل لحماية بلادهم والقضاء على الفتن التي واجهتهم.

غير أنه بعد وفاة خمارويه اختل نظام الجيش، حيث ترك خمارويه خزانة الدولة خالية بسبب ما أنفقه سواء كان في زفاف ابنته قطر الندى أو ما أنفقه في استكمال جيشه وفي كسب ودّ الخليفة العباس واستكمال ما قام به من إنشاءات أخرى[3]. فانقسم الجيش إلى فرق سادتها الفوضى، مما جعل ابن خمارويه يفقد السيطرة عليه مما أدى إلى فرار بعض القادة إلى العراق، كذلك لم يكن جيش بن خمارويه يتمتع بالحزم والشدة، فأصبح الجند يشكل في تلك الفترة أكبر أسباب الفوضى، وهذا بسبب أن العناية بمثل هذا الجيش تحتاج إلى أموال وتدريب وتسليح ونفقات. وفي عهد جيش ابن خمارويه امتنع الجيش عن بيعته وكذلك هارون حيث تمت مبايعته من غير عطاء الجيش[4]، وقد ذكر ابن تغري بردي أن هذا الأمر يعد من "الغرائب"[5]. أما شيبان فقد حاول أن يأخذ في العطاء للجند إلا أنه لم يجد من المال ما يكفيه[6]، ويبدو أن ضعف هؤلاء الخلفاء جعل الجيش في اضطرابات مما سبب الفرقة بين هذه العناصر وتولى الخلفاء الحكم في حداثة سنهم وعدم درايتهم بأمور الدولة مما جعل الجيش يمتنع من المبايعة الذي أدت إلى الفوضى العارمة في هذه الدولة.

أما عن أسلحة الجيش التي استخدمها الطولونيون فهي الأسلحة التي كانت معروفة في العصور الوسطى، وهي: السيوف والقسي والرماح وهناك النشابون الذين يرمون بالنشاب، والعيارون الذين يرمون الحجارة من المقالع، والسيافون والنفاطون حيث يُعد النفط من الأسلحة الخطيرة لاحتوائها على مواد سريعة الاشتعال، فكان

---

(1) عبدالرحمن زكي: المرجع السابق، ص15. كذلك حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص100، أمينة بيطار: المرجع السابق، ص125.

(2) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 59/3.

(3) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص140.

(4) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص150.

(5) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 99/3.

(6) المصدر نفسه، 136/3.

النفاطون يقذفون كرات مشتعلة أو قطعاً من الكتان مشبعة بـالنفط، وكـانوا يقومـون بارتداء ملابس لا تؤثر فيها النيران، كذلك استعمل الطولونيـون القنابـل الحارقـة، والماجنيق[1]، الذي استخدمه لؤلؤ غلام ابن طولون عندما عصا أحمد بن طولون عـام (261هـ/874م) ببرقة، فنصبت المناجيق حتى ضعف أمره وطلب الأمان[2].

وكانت هذه الفرق أو الجيوش ترافقها فرقة موسيقية مهمتها دق الطبـول ونفـخ الأبواق وقرع الصنوج لزيادة الحماسة عند المقاتلين[3].

ولإعداد أسلحة هذه الجيوش فقد خصص لهم مصانع لتمـدهم بالأسـلحة التـي تحتاج إليها تلك الجيوش، فقد اهتم أحمد بن طولون بدور الصناعة وعهد إلى أبي كامل شجاع بن أسلم بالإشراف عليها، واشترط أن تتوفر في إنتاج هـذه الأسـلحة الوثاقـة والجودة في الصنعة وتقديم الأحسن[4].

كما أتقن أهالي دمشق صناعة السيوف والقسي، لما اشتهرت به دمشق مـن أن فولاذها يتميز بالصلابة والرونق، مما أكسب دمشق شهرة في هذه الصناعة ممـا دفـع خمارويه بأن يأمرهم بصناعة سبعة عشر سيفاً دمشقياً لغلمانه مقابـل سـيوفهم التـي تبرعوا بها للإعرابي الذي مدح خمارويه، واشتهرت أسرتان من الأسر المسيحية التـي نُسبت إليهم هذه السيوف وهم بنو المسابكي وبنو بولار[5].

البحرية في العهد الطولوني (الأسطول):

اشتقت البحرية من الفعل بحر، وتعني عدة الدولة من سفن وغواصات وجنـود، وقد تُعمم وتطلق على جميع السفن التي تملكها الدولة لغرضين الحرب أو التجـارة[6]. والأسطول كلمة أطلقها العرب على مجموعة السفن الحربية أو السفينة الواحدة ويقـال

---

(1) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي في عصر الإسلام، مطبعة الهلال (القاهرة، د.ت) 176/1. كذلك حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، 283/3، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص363، مصـطفى طه: المرجع السابق، ص151.

(2) أحمد إسماعيل علي: تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، ص50.

(3) مصطفى طه: المرجع السابق، ص151. كذلك عبدالحميد العبادي وآخرون: المرجع السابق، ص35.

(4) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص209.

(5) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص336.

(6) محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة، دار القلم (القاهرة، 1965) ص330.

إنها كلمة يونانية الأصل "Stolos"[1].

ولم يكن للمسلمين في صدر الإسلام معارك بحرية، كما لم تكن لديهم خبرة في ركوب البحر، حيث إن عمر بن الخطاب كان يكره ركوب البحر وينهـي قـواده عـن القتال داخله، وبعد انتشار الإسلام أدرك المسلمون أهمية ركوبهم للبحر فظهر اهتمامهم بالأسطول البحري[2]، وأول غزو بحري حدث في عهد عثمان بن عفان، حيـث غـزا جزيرة قبرص عام (27هـ/647م) غير أنه جعل الغزو في البحر اختيارياً، واسـتطاع بعد ذلك المسلمون من تضيق الخناق على الأسطول البيزنطي واسـتولوا علـى أهـم المراكز البحرية في البحر المتوسط[3].

وما لبثت البحرية الإسلامية أن تطورت في العصر الأموي فـازداد الاهتمـام بالأسطول، حيث استقرت هذه الدولة بداية في الشام، وبانتقال دار الخلافة إلى العـراق، كان عليهم تجهيز أسطول مهمته الدفاع عن هذه البلاد[4].

أما البحرية في عصر الدولة الطولونية فلم يهمل أحمد بن طولون هذه الناحيـة فقد اهتم بها مثل اهتمامه بالجيش على الرغم من أن الأسطول جاء متأخراً، لعدم حاجته إليه في بداية الأمر، وعندما تطلع إلى بلاد الشام ظهرت حاجته إلـى إعـداد أسـطول لحماية الشواطئ ومواجهة الخطر البيزنطي في تلك الفترة، كذلك المحافظة على طـرق التجارة البحرية بين مصر والشام[5].

ومن الأمور التي ساعدت أحمد على قيام أسطول بحري ظهور رغبة الموفـق في القضاء عليه حينما كان يعد العدة لصد الجيش العراقي الذي كان بقيادة موسى بـن بغا[6] على رأس جيش لإخضاع أحمد بن طولون، فما كان عليه إلا أن قـام بتحصـين جزيرة الروضة[*] عام (263هـ/876م) وقام كذلك بإنشاء أسطول لحماية القطائع، إلا أن حملة الموفق التي كانت بقيادة موسى بن بغا باءت بالفشل بسبب إعـلان عصـيان

---

(1) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص143. كذلك عبدالحميد العبادي وآخرون: المرجع السابق، ص36.

(2) صبحي الصالح: المرجع السابق، ص512. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص114.

(3) علي الشطشاط: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص149، 150. كذلك سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة، ص54، 55، صبحي الصالح: المرجع السابق، ص513.

(4) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، 288/3.

(5) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص48.

(6) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص138.

(*) اتخذ هذا الحصن ليكون معقلاً لماله ولحرمه = سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص139.

القوات العراقية التي أسرعت إلى الرقة، وقوة أحمد بن طولون والمراكب التي اتخـذها تقدر بمائة مركب، مما جعل موسى بن بغا يقرر ترك جيشه المتمرد والعودة إلى بغداد وبهذا كانت نتيجة هذه الحملة هو الفشل(1).

اهتمام أحمد بن طولون بدار صناعة السفن(*):

أوكل أحمد بن طولون لأبي كامل شجاع بن أسلم إدارة - دار الصناعة - وقال له: "كل ما تعمل لي من العدة يكتفي فيه بالقليل مع تقدم هيبتي في صـدور النـاس إلا المراكب فإن البحر لا يهابني، ولا يخاف سورتي، وليس يعمل في البحـر إلا الوثاقـة، والجودة في الصنعة، وتقديم الإحسان، فقدم الحزم في الاحتياط، والاستزادة في الإنفـاق على المراكب لتسلم بعون الله عز وجل"(2).

أهم دور صناعة السفن ما يلي:

أ- الإسكندريـــة:

ذاعت شهرة هذه المدينة بموانيها الشرقية والغربية وتعد من القواعـد البحريـة المهمة في حوض البحر المتوسط، كذلك من المراكز الرئيسية للتجارة البحرية، كما تـم إنشاء دار كبرى لصناعة السفن سواء التجارية أم الحربية(3).

وفي العصر الطولوني احتفظت الإسكندرية بشهرتها باعتبارهـا أكبـر قاعـدة بحرية، وازدادت مكانتها عندما قام أحمد بزيارة إلى هذه المدينة فأولى اهتمامـاً بالغـاً بدار الصناعة لمضاعفة عدد السفن ولحاجاته إلى زيادة أسطوله ليحمي بهـا سـواحل بلاده، ويحافظ على طرق الاتصال البحري بين مصر والشام، كما قام أحمد بن طولون بربط النيل بالإسكندرية لدعمها في التجارة البحرية في الخارج والنهرية فـي الـداخل،

---

(1) البلوي: المصدر السابق، ص87. كذلك علي محمود فهمي: التنظيم البحري الإسلامي شرق المتوسط من القرن الأول حتى الرابع الهجري/السابع عشر الميلادي، ترجمة قاسم عبـده قاسـم، عـين للدراسـات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (د.م، 1997) ص43، أحمد مختار العبادي والسيد عبـدالعزيز سـالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، جامعة بيروت العربية (بيروت، 1972) ص38.

(*) هي الدار التي تصنع فيها المراكب والسفن ونقلت هذه اللفظة إلى اللغات الأفرنجية بصيغة Arsenal ثم أعيدت على العهد التركي باسم الترسانة = البلوي: المصدر السابق، ص208.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص208.

(3) أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص45.

حيث قام في عام (259هـ/872م) بإعادة حفر خليج الإسكندرية[1].

ب- دميـــــاط:

تعد دمياط من القواعد المهمة في مصر لوقوعها على البحر المتوسط من جهة، ومصب الفرع الشرقي للنيل الذي سمي باسمها من جهة ثانية، حيث ربط هـذا الموقـع بين تجارتين الأولى داخلية عبر النيل والأخرى مع الأقطار التي تطـل علـى البحـر المتوسط، اشتهرت دمياط برسو السفن الآتية من المغـرب بحـذاء السـاحل الشـمالي لأفريقيا وترتبط أيضاً عن طريق البحر بثغور الشام وعلى الأخص صـيدا، كمـا قـام المتوكل ببناء حصن دمياط عام (239هـ/853م) لما له من أهمية، وتعد دميـاط مـن المدن الفسيحة الأقطار التي تتميز بتنوع الثمار[2].

ج- عكـــا[*]:

كان لهذه القاعدة أهمية كبرى وخاصةً في العصر الطولوني، حيث أولاها أحمد ابن طولون عناية كبرى، وعندما قام أحمد بزيارتها أدرك مدى حصـانتها واسـتدارة حائطها على الميناء، فأراد أن يتخذ لها ميناءً، فعرض ذلك على صناع الكورة، فقيل له لا يهتدي أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان، غير أبو بكر البناء جد المقدسي، لأنه أعلم بذلك، فقام أحمد بمكاتبة صاحب بيت المقدس فقال: هذا أمر هين، فقام أبـو بكـر بالبناء، ودُفع إليه ألف دينار سوى الخلع وغيرها من المركوب واسمع عليه مكتوب[3].

وبهذا قام ابن طولون بإحاطة عكا بسور منيع وشد مينائها بسلسلة لمنع السـفن

---

(1) البلوي: المصدر السابق، ص47. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص26، أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص46.

(2) المقريزي: الخطط، 214/1. كذلك ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظـار فـي غرائـب الأمصار وعجائب الأسفار (د.م، 1966) ص30، أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: المرجـع السابق، ص46.

(*) عكا: مدينة حصينة كبيرة الجامع فيه غابة زيتون، ولم تكن على هذهِ الحصانة حتى قدمها بـن طولـون وهي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومرفأ كل سفينة والمشبهة في عظمها بالقسـطنطينية، مجتمـع السـفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق = أبو الحسين محمد بن جبير: رحلـة ابـن جبير، دار صادر (بيروت، 1964) ص136. كذلك الحموي: المصدر السابق، 143/4.

(3) شمس الدين أبو عبدالله: أحسن التقاسيم ي معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، ط3 (القاهرة، 1991) ص162، 163. كذلك نبيلة حسن محمد: المرجع السابق، ص102.

من اجتيازها[1].

د – صيدا وصــور:

تمتعت هاتان المدينتان بشهرة بحرية عالمية، كما اشتهر ملاحوها بمهارة عالية في قيادة السفن وفنون القتال[2]، وبحكم تبعية صيدا لدمشق خضعت للحكم الطولوني، وتعد من المدن التي قام أحمد بحماية ثغورها، وكان يتولاها النعمان بن عامر الأرسلاني، حتى وفاة أماجور عام (264هـ/877م). وعند فتح أحمد للمدينة أقر صيدا للنعمان لما تميز به من شجاعة وفصاحة، وظل فيها حتى وفاته عام (325هـ/936م)[3].

أما صور فهي لا تقل أهمية عن صيدا، لكونها مدينة حصينة للغاية مشرفة على البحر داخلة فيه على شكل كف في زند، ويحيط بها البحر من ثلاثة جوانب، كما يوجد بصور دار لصناعة السفن، أشار إليها اليعقوبي بقوله: "وبها دار الصناعة، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم، وهي حصينة جليلة"[4].

و- طرســـوس:

يُعد الحسن بن قحطبة الطائي، أول من أوصى بإعادة بنائها وتحصينها لتكون قاعدة لجيوش المسلمين وذلك عام (162هـ/778م) في عهد الخليفة المهدي العباسي، وأصبحت طرسوس بعد ذلك من أعظم القواعد البحرية في الشام في العصر العباسي[5]، وعند دخول أحمد لطرسوس عام (264هـ/877م) عمل على نقل بعض وحدات الأسطول الطولوني إليها، وجعلها قاعدة حربية تعتمد اعتماداً كلياً على إمكانياتها العسكرية المحلية المتمثلة بالحاميات والمتطوعة وأهل الثغور عامةً[6]. أيضاً تخرج منها

---

(1) السيد عبدالعزيز سالم: دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، جامعة بيروت العربية (بيروت، 1970) ص65.

(2) أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص50.

(3) السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص65. كذلك أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص51.

(4) أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي: البلدان، طبعة دي غوية (ليدن، 1882) 327، 328. كذلك ياقوت الحموي: المصدر السابق، 433/3، 434.

(5) أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص52.

(6) مصطفى علي الحياري: حياة الناس في مدن الثغور "مدينة طرسوس"، مجلة دراسات تاريخية، العدد الرابع (دمشق، 1980) ص86.

السفن لمهاجمة قوات الروم في آسيا الصغرى، وظلت بعد ذلك طرسوس ذات أهمية كبرى في الصراع البحري بين الطولونيين والبيزنطيين لوقوعها بالقرب من شواطئ آسيا الصغرى[1].

كما تمكن أسطولاً طرسوس وكريت من الحد من شوكة البيزنطيين البحرية، رغم محاولة هيمريوس أحد أمراء البحر البيزنطي قطع الاتصال بين أسطولي كريت وطرسوس، لكي تنكشف له سواحل الشام، إلا أن محاولته باءت بالفشل لقوة هذا الأسطول[2].

ولشدة اهتمام أحمد بن طولون بحماية هذه السواحل، ظل يحمل إلى طرسوس وغيرها من الثغور الأخرى وقواعده سواءً في مصر أو الشام كل ما تحتاجه من عتاد وزاد لدرجة أنه لم يحمل أحد مثل هذه العدة قبل ذلك، كما شرع في بناء حصن يافا، غير أن المنية وافته قبل إتمام هذا الحصن عام (270هـ/883م) [3].

أما في عهد خمارويه، فقد قام باستكمال ما بدأه أبوه فظل يعتني بموانئ الشام، حيث قام بإرساله مراكب كثيرة في البحر، فكانت مقيمة بالسواحل الشامية[4]، كما قام بإيجاد قوات بحرية لربط السواحل الشامية والمصرية المطلة على البحر المتوسط[5]، كما أتم خمارويه ما قام به أبوه في الإسكندرية فزاد اهتمامهُ بالأسطول بزيارته للقطع البحرية وتفقدها[6]، ووضع أشخاصاً مرتبيين على المنارة لإيقاد النار طول الليل لإرشاد السفن، فإذا أحسوا بقدوم خطر قاموا بإشعال النار حتى ينتبه الحرس وليتخذوا حذرهم، حتى تضرب الأبواق والأجراس ليتحرك الناس لمهاجمة العدو[7].

لقد اعتنى خمارويه بميناء طرابلس الشام الذي كان يتسع لأعداد كبيرة من السفن، حيث أشار اليعقوبي إلى هذا الميناء بقوله: "بأنه ميناء عجيب يحتمل ألف

---

(1) سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (القاهرة، د.ت) ص92. كذلك أمينة بيطار: المرجع السابق، ص274.

(2) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص275.

(3) صابر محمود دياب: سياسة الدولة الإسلامية في حوض البحر المتوسط، (القاهرة، 1987)، ص50.

(4)الكندي: المصدر السابق، ص234. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 50/3.

(5) صابر محمد دياب : المرجع السابق، ص51.

(6) أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص46.

(7) المقريزي: الخطط، 157/1. كذلك صابر دياب: المرجع السابق، ص51.

مركب"[1].

أما خلفاء خمارويه فلم يعطوا البحرية اهتماماً كبيراً فأصبحت السفن في عهدهم لا تتجاوز عدداً محدوداً من السفن، لدرجة أن الخلافة العباسية في نهاية هذه الدولة لم تستعن إلا بقوة صغيرة من الأسطول يبلغ عدده ثمانية عشر مركباً حربياً، يقوده أمير البحر دميانه، غلام يازمان الذي عهد إليه المكتفي بقيادة الأسطول العباسي، وذهب لمصر لقتال هارون بن خمارويه وللقضاء على الدولة الطولونية، وقام محمد بن سليمان الكاتب بمساعدته في هذه الحملة حيث استطاع القضاء على الأسطول المصري في تنيس عام (283هـ/896م)[2].

أما عن أنواع سفن الأسطول التي استخدمها الطولونيون فهي متعددة من أهمها:

1- العُلاّبيات:

وهي تعد من السفن التي تَكَوَّن منها أسطول ابن طولون، وأغلب الظن أنها سفن صغيرة ومن المحتمل أنها سفن للنزهة[3].

2- الحمائم:

وهي من المراكب السريعة ذات شراع، ويبدو أن هذه الكلمة تدل على السفن التي تقوم بنقل الغلال[4].

3- عُشاريات:

وهي من السفن النيلية، وتُشكل هذه السفن جزءاً من الأسطول الطولوني، وقد صُنع ظهرها من ألواح خشبية صلبة ولها شرفات، أما سطحها فيوجد فوقه غرف خشبية تغطيها قبة بها نوافذ وفتحات، وهذه الغرف مزينة بألوان مختلفة، وتستخدم هذه السفن لنقل الغلال والحطب، كذلك هذا النوع من السفن يستخدم لنزهة الملوك وكبار

---

(1) اليعقوبي: البلدان، ص327. كذلك عمر عبدالسلام تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، عصر الصراع العربي – البيزنطي والحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة (د.م، د.ت) 190/1.

(2) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 110/3. كذلك أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص58، عمر عبدالسلام تدمري: المرجع السابق، ص196.

(3) علي محمود فهمي: المرجع السابق، ص161.

(4) المرجع نفسه، ص161.

القوم، حيث يركبونها في الأعياد والمناسبات الخاصة للدولة[1].

وتتميز هذه السفن بأنها خفيفة، وتقوم بمساعدة السفن الكبيرة إذا تعرضت للغرق بسبب عيب ما، أو هجوم، فكان الركاب ينقذون أنفسهم وبضائعهم وماشيتهم في العشاريات وتسير هذه السفن بعشرين مجدافاً[2].

4- الصنادل:

كان يُطلق عليها الشلنديات، ثم خُففت إلى صندل، وهي ذات أصل فارسي، وتُعد من المراكب كبيرة الحجم، وكانت تستخدم لنقل الغلال والركاب، وتعد من السفن المعروفة لدى البيزنطيين[3]. وكانت هذه السفن تجهز وتُشحن بالسلاح والآلات الحربية اللازمة، حيث تمر من ثغر الإسكندرية ودمياط وتنيس والفرما في مصر، ومن ثغر طرابلس الشام وصيدا وصور في الشام إلى مواجهة أعداء الدولة الذي تمثل في البيزنطيين والفرنجة[4].

أما عن الأسلحة التي تم استخدامها من قبل المقاتلين فهي تتمثل في نوعين: أسلحة ثقيلة وأسلحة خفيفة، وهي الأسلحة المتعارف عليها والتي تتمثل فيما يلي:

أ- السيوف والرماح والفؤوس:

تعد السيوف من الأسلحة الأكثر شيوعاً، وأعظمها شأناً، أما الرماح فلها أحجام مختلفة وأسماء منها المزارق والنيزك والحربة وهي أشبه بالعصا، وكانت تدهن بالزيت لتظل مرنة، أما الفؤوس فهي من الأسلحة التي لها رأس نصف مستدير ويتخذ أحياناً من الحديد[5].

ب- القوس والنشاب:

القوس عود من شجر جبلي صلب، وهو من آلات لقذف النشاب، حيث كان

---

(1) المرجع نفسه، ص162.

(2) ابن جبير: المصدر السابق، ص285. كذلك علي محمود فهمي: المرجع السابق، ص162.

(3) علي محمود فهمي: المرجع السابق، ص163. كذلك بشير التليسي وجمال هاشم: المرجع السابق، ص179.

(4) أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص131.

(5) صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص505، 506. كذلك علي الشطشاط: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص170.

القوس في بدايته أجزاؤه متصلة، فتم بعد ذلك فصلها عن بعضها، وهـــي ذات نصـــول مثلثة مدببة من حديد، ويعد من الأسلحة الفتاكة إذا وُضع على نصلهِ سمُ مثلمـــا يفعـــل الروم[1].

ج- التوابيــت:

جمع تابوت وهي صناديق أعلاها متفتحة تنصب بأعلى الصواري، يصعد إليها البحارة ومعهم قطع من الحجارة يضعونها في مخلاة تعلق إلى جانب التابوت، يرمـــون بها الأعداء ثم يحتمون في التابوت[2].

د- المنجنيق والعرادة:

وهي تعد من الأسلحة الثقيلة التي تستخدم في الحروب وتقوم بقـــذف الأحجـــار الضخمة، حيث كان في بداية الأمر على شكل قاعدة من الخشب السميك "يرتفـــع فـــي وسطها عمود خشبي قوي، ويُركب في أعلاه ذراع المنجنيق قـــابلاً للحركـــة كـــذراع الشاذوف،... يتدلى منه صندوق خشبي، مملوء بالرصاص والحجارة والحديد"[3]، أمـــا العرادة فهي آلة تشبه المنجنيق وتستخدم لرمي الحجارة والسهام وقدور النفط[4].

هـ- النفط البحـــــري:

يستخدم هذا النفط في إحراق السفن، وهو من المواد السريعة الاشتعال المُركـــب من القطران والكبريت، ولا تخمد نارهُ عند ملامسته الماء، ويتم إطلاق هذا النفط عـــن طريق آلة صُنعت من النحاس أو الحديد تُعرف بالنفاطة، وكان النفـــاطون يســـتخدمون السهام والنشاب لقذف النفط، وأحياناً المنجنيق[5].

ومن المتعارف عليه أن للأسطول قائداً يقوم بتدبير أمر الحرب والقتال في البحر ويقوم كذلك بإجراءات السفن وإرسائها، وكان يُسمى القائد العام للأسطول باسم "أميـــر

---

(1) صبحي الصالح: المرجع السابق، ص508.

(2) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص170.

(3) صبحي الصالح: المرجع السابق، ص509-510.

(4) إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، 598/1.

(5) بشير التليسي وجمال هاشم: تاريخ الحضارة، ص181.

البحر" ومنه جاء لفظ "أميرال"، كما كان لكل أسطول رئيس يقال له الرُبان أو النواتية[*] يعملون بأمر الرئيس[1].

كان للبحرية أهمية كبرى في هذه الدولة ومما يدل على ذلك هو عدد السفن التي تركها ابن طولون وما قام به ابنه بعد ذلك من إكمال هذه المهمة والتـــي تمثلـــت فـــي الحفاظ على مصر والشام وتأكيد حدودها وحمايتها من الخطر البيزنطي الذي كان يحوم في تلك الفترة، وتطلعات الخلافة العباسية لاسترجاع ما يمكن استرجاعه من ممتلكاتها، وهذا ما حدث بعد وفاة أحمد بن طولون وخمارويه، فأصيبت الدولة بالضعف مما جعل استردادها أمراً هيناً على الخلافة.

(*) النوتي: هو الملاح = علي الشطشاط: المرجع السابق، ص169.

(1) عبدالحميد العبادي وآخرون: المرجع السابق، ص37. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص169.

الفصل الرابع
المظاهر الحضارية للدولة الطولونية

أولاً: الحياة الاقتصادية:

1. الثروة الزراعية والحيوانية.
2. الصناعة.
3. التجارة.

ثانياً: الحياة الاجتماعية:

1. طبقات المجمع:
   أ. طبقة الأشراف وكبار الملاك.
   ب. أهل الذمة.
   ج. اليهود.
   د. المسلمين.
2. الأعياد.
3. الألعاب الرياضية.
4. الطعام والموائد.
5. الغناء والموسيقي.

ثالثاً: الحياة الفكرية:

1. العلوم الدينية (علوم القرآن والحديث، علوم الفقه).
2. العلوم الأدبية (الأدب، الشعر، النحو، التاريخ).
3. العلوم العقلية (الطب، الفلك، والتنجيم، الرياضيات).

أولاً: الحياة الاقتصادية:

تتميز مصر منذ أقدم العصور بوفرة خيراتها وتنوع منتجاتها وذلك نتيجة لموقعها الجغرافي، إذ تطل على بحرين مهمين للتجارة والمواصلات هما البحر الأحمر والبحر المتوسط، كما أنها تعد حلقة وصل بين بلدان الشرق الإسلامي وغربه فضلاً عن كونها ممراً تجارياً مهماً لتجارة الهند والصين مع بلدان الغرب، وبالعكس كما تعد من أخصب أراضي العالم الإسلامي، فهي تجمع أهم عناصر الإنتاج الرئيسة من الأراضي الخصبة ومياه النيل الجارية ووفرة الأيدي العاملة [(1)].

هذا قد وصفت مصر في كتب الأقدمين، وذكرت أيضاَ في القرآن الكـريم حيـث قال تعالي "اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ "[(2)]، وقال تعالي أيضاً: "وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا"[(3)]، وقال عنها عمرو بن العاص وهو الفاتح لهـا والمطلع على أحوالها" ولاية مصر تعدل الخلافة "[(4)].

وبهذا فإن أهمية مصر تكمن بالدرجة الأولى فـي إنتاجهـا الزراعـي ووفـرة محاصيلها المتنوعة ونشاطها التجاري والصناعي.

1- الثروة الزراعية والحيوانية:

فاض العرب في وصف مصر وخصوبة أراضيها وكثافة سكانها وما تتميز به من تنوع المحصولات الزراعية فيها، وإحاطة الأشجار والمزروعات جانبي وادي النيل من أسوان في الجنوب حتى الإسكندرية في الشمال على ساحل البحر المتوسط، أما العمران فبلغ ذروته في المنطقة التي تقع بين الفسطاط والإسكندرية وقـدرت المسـافة ثلاثـين فرسخاً[(*)]، وهي منطقة آهله بالسكان والقرى والمدن والضياع والأسواق, والحمامـات، وبها مصائد متعددة للأسماك[(5)].

---

(1) سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة، ص166، 167، 168.

(2) سورة البقرة، الآية 60.

(3) سورة يونس، الآية 87.

(4) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، المرجع السابق، ص 263.

)*(الفرسخ: ثلاثة أميال أو ستة ويسمى بذلك لأن صاحبه إذ مشى قعد واستراح من ذلك كأنه سكن = ابـن منظور: المصدر السابق، 44/3.

(5) أبو إسحاق إبراخيم الاصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال، مراجعة شفيق غربال، دار القلم (القاهرة، 1961) ص50. كذلك ابن حوقل: صورة الأرض، ص 134، 147.

كذلك تميزت بعض المدن في مصر بكثرة إنتاجها الزراعي وتنوعه، مثال ذلك مدينة الفيوم التي يتم زراعتها مرتين في العام، وذلك لخصوبة تربتها ووفرة مياهها وكثرة قراها التي بلغت ثلاثمائة وستين قرية، حيث تنتج القمح، والشعير والأرز والقطان[*]، وأكثر جبايات مصر منها[1].

كذلك مدينة أسيوط، وهي أكبر مدن الصعيد، التي اشتهرت بزراعة قصب السكر والنخيل والكتان والقمح وسائر أنواع الغلات[2].

وكان لبعض المدن في مصر شهرة واسعة في إنتاج القمح مثل طحا[**] وبشمور[***] اللتين تنتجان القمح الذي يعرف باسم "اليوسفي المجزع"، في حين تكثر زراعة النخيل بمدينة قوص والأشمونين، أما في الواحات الخارجية فزرعت أصناف من النخيل والكروم والأرز[3].

كما اشتهرت أرض مصر السفلي بكثرة مدنها، وأيضاً تنوع إنتاجها وخصوبة أرضها[4]. وأما مدينة بلبيس[****]، فكانت كثيرة القرى والمزارع ومنها أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك، وكانت تجهز منها حمولة ثلاثة آلاف جمل محمل في كل أسبوع من الحبوب والدقيق[5]. أما مدينة الإسكندرية وقد عرفت أيضاً بكثرة أشجار الفاكهة والعنب الزيتون واللوز[6]، كذلك اشتهرت مدينة الرشيد بكثرة بساتينها وفواكهها مثل الرمان والموز[7]، كما اشتهرت مدينة الجيزة بالبساتين والضياع

)*(القَطَّانُ: من يتجر بالقطن = إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، 754/1.

(1) اليعقوبي: البلدان، ص331.

(2) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 159. كذلك ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص 62.

) **(طحا: كورة بمصر شمالي الصعيد في غربي النيل = ياقوت الحموي: المصدر السابق، 22/4.

) ***(بشمور: كورة بمصر قرب دمياط وفيها قرى وريف وغياض= ياقوت الحموي: المصدر السابق، 428/1.

(3) اليعقوبي: المصدر السابق، ص331، 332. كذلك الأصطخري: المسالك والممالك، ص41، 42.

(4) اليعقوبي: المصدر السابق، ص 337.

) ****(بلبيس: مدينة بينها وبين الفسطاط مرحلة = ابن حوقل: المصدر السابق، ص136.

(5) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 195.

(6) ابن إياس: المصدر السابق، ص 171.

(7) مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق سعد زغلول عبدالحميد، دار الشؤون الثقافية (بغداد، د. ت)، ص 89.

والمنتزهات[1].

يعود هذا التنوع من المحاصيل الزراعية في مصر، إلى وفرة مياه وادي النيل الذي كان محط اهتمام السلطات الحاكمة على مدى العصور، حيث شيدت الجسور على ضفتيه، وذلك لتيسير التنقل والاتصال فيما بينهم، وكان من أهم الجسور ما ذكره المقريزي وهـو جسر بين الفسطاط والجيزة أقيم لغرض تسيير التنقل، وبني عليه المنتزهات والحـدائق، وهو يشبه جسر بغداد[2] وهناك سد سردوس[*] وسدعين شمس المصـنوع مـن التـراب والحلفا، والذي وضع عليه حرس لمراقبته وحمايته ولتفقده قبل زيادة منسوب المياه حتـى إذا زاد الماء حجزه السد فيرتد الماء ويسقى الريف والضياع والقرى التي حوله[3].

وفي فصل الصيف تبدأ الزيادة في مياه نهر النيل نتيجة لسقوط الأمطار الصيفية، أما في فصل الشتاء فتبدأ بالنقصان[4]، لذلك أقيم مقياس عبارة عن عمود رخام أبيض له كيل وأبواب مُحكمة وقد زاره أحمد بن طولون مع صاحب خراجه أيوب وقاضيه بكار بن قتيبة، فأمر بإصلاحه وأنفق عليه ألف دينار[5].

لقد تلقت الزراعة عناية من أحمد بن طولون، فعمل على تحسـين الإنتـاج فـي مصر، حيث عمل على نشر الأمن والطمأنينة في كافة أنحاء البلاد، وقـام بالإشـراف بنفسه، فحسن وضع الفلاحين، ورفع عنهم الظلم، وأسـقط عـنهم ضـريبة المرافـق والمعادن، الذي كان عامل الخراج ابن المدبر قد فرضها على الفلاحين، والتي تؤخـذ منهم زيادة على الخراج، وبلغت قيمتها ألف دينار، واستمر ذلك طوال عهـده وعهـد خلفائه من بعده[6].

لم يعتمد أحمد بن طولون على الفلاحين وحدهم بل كانت الدولـة تسـاهم فـي الزراعة أيضاً، حيث استولى أحمد على الأراضي الزراعية التي تركها أصحابها، فقام بإصلاحها وزراعتها، وجعل مهمة الإشراف على هذه الأراضي إلـى ديـوان خـاص

---

(1) أبو علي أحمد بن عمر ابن رسته: الأعلاق النفيسة (ليدن، 1891) ص 116.

(2) ابن رستة: المصدر السابق، ص 116. كذلك المقريزي: المصدر السابق، 70/1.

(*) أحد خلجان مصر السبعة، وقد حفرهُ أحد الفراعنة، وهو يمر بقرى كثيرة بمنطقة الحوف = المقريـزي: الخطط، 1/ 70.

(3) المقدسي: المصدر السابق، ص 206.

(4) اليعقوبي: المصدر السابق، ص 339، 340.

(5) المقريزي: الخطط، 58/1، 59. كذلك ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص 179.

(6) البلوي: المصدر السابق، ص 74، 75. كذلك مصطفى طه: المرجع السابق، ص 153.

يسمى "ديوان الأملاك" عهد به إلى سليمان بن ثابت المعروف بـأبي ريشـة[1]، كـان الغرض منه إدارة وحماية هذه المزارع التي أصبحت ملكاً للدولة[2].

ومع هذا عملت الدولة على مساعدة الفلاحين، حيث مدت الفلاح بما يحتاج إليه من بذور وآلات زراعية ودواب لحرث الأراضي وريِّها، ومع هذا كانت تتقاضى الدولة ثمن هذه الخدمات بعد الانتهاء من المحصول أو موسم الحصاد[3]، حيث يبدأ الموظفون المكلفون بعملية تقدير العرام[*] في عملهم، فيقوم الخازن وأمين السلطان بخصم أجار الأرض، ويسلمون الباقي للفلاحين، وقد كانت الدولة تتقاضى ثمن إيجار الأرض إما نقداً أو عيناً عقب كل موسم[4].

أما إقطاعيو مصر وملاكها، فقاموا بزراعة أراضيهم واستغلالها بطريقة مباشرة لحسابهم الخاص، وذلك عن طريق تقسيم الأرض على الفلاحين قطع صغيرة لزراعتها، مقابل حصة تبلغ الثلث أو الربع، بعد خصم مصاريف البذور، وتعرف هذه الطريقة باسم "البقوط[**] أو المقاسمة "[5].

ولقد أشار ظهر الاهتمام بالزراعة والاعتناء بالبساتين واضحاً أيضاً في عهد خمارويه ويشير المقريزي إلى ولع خمارويه وما قام به في مدينة القطائع من استكثار البساتين والتأنق في زراعتها[6].

---

(1) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص 73. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص30.

(2) عبدالله محمد جمال الدين: في تاريخ مصر الإسلامية، ص 63.

(3) المقدسي: المصدر السابق، ص 212. كذلك سمير فراج: المرجع السابق، ص 182، سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 108.

(*) العرام: جمع عُرمَة، الكومة من القمح المَدُوس الذي لم يُذَرَّ = إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، 603/1.

(4) المقدسي: المصدر السابق، ص 212.

(**) البقط: جمعه بقوط هو التفرقة، وهو ما ليس بمجتمع في موضع ولا منه ضيعة كاملة وإنما هو شي متفرق في الناحية بعد الناحية، وأيضاً يعني أن تعطي الحبة على الثلث أو الربع: ابن منظور: المصدر السابق، 263/7، 364. كذلك جبران مسعود: الرائد معجم لغوي عصري رتبت مفرداته وفقاً لحروفها الأولى، دار العلم للملايين، ط6 (بيروت، 1990) ص332.

(5) سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 109. كذلك سمير فراج: المرجع السابق، ص183.

(6) المقريزي: الخطط، 316/1. كذلك حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص206؛ سمير فراج: المرجع السابق، ص183.

لقد أدى اهتمام الطولونيين بهذا النشاط إلى زيـــادة الإنتـــاج وانتشـــار الرخـــاء، وتضاعف الخراج، حيث بلغ في عهد أحمد وابنه خمارويه أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار (4.300.000)[1].

كانت مصر تمد بعض الدول الإسلامية بمنتجاتها الزراعية، وهذا يدل على رخاء الدولة وتنوع الإنفاق في مختلف الميادين والمرافق، وقد تميّزت هـــذه الدولـــة بنـــدرة الأزمات الاقتصادية ورخص الأسعار وخاصة القمح، حيث بيعت الخمســـة والعشـــرة الأرداب[*] من القمح بدينار واحد، وقد ازداد الرخاء في عهد خمارويه وابنه هـــارون، بحيث يزد فيها سعر الثلاثة أرداب من القمح عن دينار، كما قـــام خمارويـــه بفـــرض عقوبات صارمة على التجار المتلاعبين بالأسعار، مما أدي إلى وفرة المحاصيل طيلـــة العهد الطولوني حيث إن مقياس النيل لم يسجل انخفاضاً في منســـوب الميـــاه إلا فـــي السنوات الثلاثة الأخيرة من حكمه[2].

أما في بلاد الشام التي لم تكن عاصمة لهذه الدولة وإنما كانت مجرد ولاية تابعـــة فقط لها، فقد عانت تأخراً في الحياة الاقتصادية خاصة الحروب التـــي قامـــت نتيجـــة للتنافس بين الدول التي حكمت بلاد الشام، وكـــان لســـوء العلاقـــة بـــين العباســـيين والطولونيين الأثر الكبير في تأخرها، وأن مدينة حلب تعد من أكثر المدن التي تميـــزت بالأشجار تعرضت للقطع والإتلاف في معارك وحوادث عدة[3].

كما اعتمدت بلاد الشام في زراعتها وريها للمزروعات على مياه الأمطار فكانت القدس وقنسرين وحمص ومعرة النعمان هي أيضاً تعتمد على مياه الأمطار، أما مدينـــة أنطاكية يوجد بها مياه تجرى وتسقي القرى المحيطة بها، وقد اشتهرت بلاد الشام هـــي الأخرى بالعديد من المزروعات فكانت تزرع القمح والشعير والذرة والبسلة والسمســـم والزيتون وخاصة في فلسطين ونابلس التي اشتهرت أيضاً هي وحلب بصـــناعة زيـــت الزيتون، هذا وكان لبلاد الشام شهرتها في زراعة الكروم، والتفاح الذي ضـــرب بـــه

---

(1) البلوي: المصدر السابق، ص20. كذلك ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص125، مصطفي طه: المرجـــع السابق، ص154.

)*(الإردب: كيلُ كبير يستعمل في مصر لتقدير الحبوب، ويزن الإردب مائة وخمسين كيلوجرام = إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، 13/1.

(2) المقدسي: المصدر السابق، ص 113. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص110.

(3) أمنية بيطار: المرجع السابق، ص 331.

المثل لجودته، كما تمت زراعة قصب السكر في صور وبيروت وطبرية، والفستق الذي اشتهرت بزراعته قنسرين، هذا إلى جانب شهرة بلاد الشام بمزروعات أخرى(1).

إلى جانب ثروة مصر الزراعية فهي تمتلك ثروة حيوانية ومراعي خصبة، كما اشتهرت بعض المدن بتربية الحيوانات مثل مدينة الأشمونيين التي تربي الخيل والبغال والدواب الفارهه(*)، كما اشتهر أهالي منطقة الواحات بتربية الأغنام والإبل والأبقار حتى قيل إن بقر مصر ليس في الدنيا أعظم منها(2)، إضافة إلى مدن عديدة اشتهرت باهتمامها في تربية الحيوانات(3).

كذلك تميزت مصر بثروة سمكية، ساهمت في سد حاجة السكان من هذه الثروة، حيث نشرت مصائد الأسماك في وادي النيل وعلى ساحل البحر، ومن المدن التي اشتهرت بمصائد الأسماك مدينة الفرما(**) وتنيس، فضلاً عن مدينة نستراوة(***) التي اشتهرت بكثرة مصائدها وكان أغلب قوت أهلها من السمك(4). أما بلاد الشام فقد كانت الثروة الحيوانية متنوعة ومتعددة حيث انتشرت تربية الأغنام في عمان والجواميس في شمال الشام، وقد اعتمد أهالي فلسطين على لحومها وألبانها، واستخدموها في الزراعة، أما الأبقار فكانت تربي للاستفادة من لحومها وألبانها، كما اهتم أهالي بلاد الشام بتربية الخيل والبغال والحمير، وتربية النحل وخاصة في القدس، أما الثروة السمكية فاشتهرت

---

(1) الاصطخري: المصدر السابق، ص43. كذلك ابن حوقل: صورة الأرض، ص162، 164، أمنية بيطار: المرجع السابق، ص103، 117.

(*) الفارهة: الدابة النشيطة الحادة وعادة يقال في البغل والحمار والكلب = محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي: مختار الصحاح، دار المعرفة (بيروت، 2005) ص439.

(2) الأصطخري: المصدر السابق، ص 52. كذلك الكندي: فضائل مصر، تحقيق إبراهيم أحمد العدوى وعلي محمد عمر، مكتبة وهبة، (القاهرة، 1971)، ص 68، أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 334.

(3) الأصطخري: المصدر السابق، ص 46، 47.

(**) الفرما: حصن على ضفة البحر لطيفٌ لكنهُ فاسدا لهواء وَخُمِهُ لأنه من كل جهة حوله سباخُ تتوحَّل، وليس بها زرع ولا ماء يُشرب إلا ماء المطر، وهي مدينة بين العريش والفسطاط وبظاهرها نخل كثير وأكثر متاجر أهلها النوى والشعر والعلف لكثرة اجتياز القوافل بهم = ياقوت الحموي: المصدر السابق، 255/4.

(***) نستراوة: هي مدينة ليس بها خضرا وكانت عامرة في الزمان الأول والآن غلب عليها الرمل = ابن دقماق: المصدر السابق، ص113.

(4) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 201. كذلك ابن دقماق: المصدر السابق، ص113.

بحيرة طبرية بالأسماك البنية، والتي يقومون باستخراجها من خليج العقبة[1]. ومما سبق يتضح أن العهد الطولوني كان يتميز بازدهار الزراعة ووفرة الثروة الحيوانية مما ساهم في نمو الصناعة التي اعتمدت على ما تنتجه الأراضي الزراعيـة، وعلـى إمكانيـات مصر والشام الطبيعية والبشرية.

2- الصناعة:

اشتهرت مصر والشام بعدة صناعات كان لها الدور الأكبر في دعـم اقتصـادها، وعند مجيء الطولونيين عملوا على الاستفادة من هذه الصناعات التـي تميـزت بهـا مصر، وخاصة صناعة النسيج، حيث قاموا بالمحافظة عليها، فضـلاً عـن الاهتمـام بالصناعات الأخرى التي لا تقل أهمية عن هذه الصناعة[2].

كانت مصانع النسيج بعضها تابع للسلطة تقوم بإنتاج المنسوجات الخاصة بالخليفة والأمراء وكبار الموظفين، وغالباً ما ترسم أسماء الخلفاء والوزراء العباسـيين علـى أقمشة الطراز، إلى جانب مصانع أهلية تتولى توفير ما يحتاجه التجار مـن الأقمشـة المختلفة[3].

وخضعت مصانع النسيج لرقابة الدولة وذلك حرصاً على جودة المنتج، كمـا لـم تسمح الدولة للمصانع الخاصة والنساجين بحرية بيع إنتاجهم، واشترطت أن يتم البيـع عن طريق سماسرة يتبعون للدولة، ولأحكام الرقابة على الإنتاج فإنه يُختم بخاتم الدولة الرسمي، كما يتم تدوين ما يباع من أقمشة في سجلات خاصة، ويقوم عمال الحكومـة بربط هذه الأقمشة وشحنها، ويتقاضى كل عامل أجرة مقابل هذه العملية، أيضـاً كـان يُوضع على كل حزمة من القماش اسم أو علامة صاحبها عند تحميلها على المراكـب، وتخضع هذه المراكب عند إقلاعها للتفتيش[4].

---

(1) أمينة بيطار: الحياة الاقتصادية في بلاد الشام بين سنتي 132هـ و359هـ، مجلة دراسـات تاريخيـة، العدد الرابع (دمشق، 1980) ص137.

(2) أحمد شلبي: موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، الفكر الإسلامي، منابعـه وآثـاره، مكتبـة النهضـة المصرية، ط8 (القاهرة، 1986) 171/2. كذلك علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسـطى، ص 475.

(3) سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: مصر في عصر الطولونيين والأخشيديين، ص 111. كـذلك زكـي محمد حسن: المرجع السابق، ص 85.

(4) المقدسي: المصدر السابق، 213. كذلك، سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 111.

وتركزت أغلب وأهم مصانع النسيج في مدن الدلتا بالقرب من ساحل البحر المتوسط، فكانت دمياط مشهورة بصنع الثياب الصفاق(*) والحرير والقصب(**) وكان بها صناع مهرة في نسيج البز(***) (1)، ويبلغ الثوب إذا كان مذهباً ألف دينار ونحو ذلك، وإذا لم يكن فيه ذهب فيبلغ مائة أو مائتي دينار، كذلك اتصفت دمياط وتنيس وشطا بإنتاج النسيج الرفيع من الكتان والثياب الديبقية والدمياطي والشطوي، وكانت تصدر هذه الثياب إلى العراق(2).

أما مدينة تنيس، فكان أكثر أهلها حاكة، وينتج بها الثياب الرفيعة الصفاق، كما كانوا يصنعون ثوباً للخليفة يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداه ولحمة(****) وباقي الثوب منسوج من الذهب، وتصل قيمته ألف دينار(3).

أيضاً كان لدى مدينة تنيس أصناف أخرى من الثياب والأردية الملونة، وكان يصنع منها عمائم للرجال وملابس للنساء، وكانت مراكب تجار الشام والغرب تأتي المدينة لتتزود بإنتاجها من المنسوجات، فقد وصفها المقدسي، بقوله: "بأنها بغداد الصغرى ومتجر الشرق والغرب"(4). ومن مدن مصر الأخرى التي اشتهرت بمزاولة صناعة النسيج مدينة شطا(*****) التي تميزت بنسج الشروب الشطوية، ومدينة الفيوم، وهي التي اشتهرت بصناعة الستور والاستبرقات والستائر والخيام، وبها دور طراز تعمل لحساب السلاطين والخلفاء، كما كان يأتي إليها التجار من مختلف البلدان العربية،

(*) الثوب الصفيق: المتين الجيد كثيف النسج = ابن منظور: المصدر السابق، 204/10.

(**) القصب: ثياب تتخذ في كتان رقاق ناعمة واحدها قصبي= إبراهيم مصطفى وآخرون: المرجع السابق، 744/1.

(***) البز: متاع البيت من الثياب = ابن منظور، المصدر السابق، 311/5، 312.

(1) المقدسي: المصدر السابق، ص 202. كذلك المقريزي: الخطط، 1/ 177، سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص 283.

(2) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 143. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 465.

(****) السدى: من الثوب خلاف اللحمة وهو ما مد من خيوط واللحمة ما نسج عرضاً من الثوب = سيدة كاشف= مصر في فجر الإسلام، ص 283.

(3) المقريزي: الخطط، 177/1. كذلك سيدة كاشف: المرجع السابق، ص 283.

(4) المقدسي: المصدر السابق، ص 201. كذلك سيدة كاشف: المرجع السابق، ص 283.

(*****) شطا: بليدة بمصر كانت على ثلاثة أميال من دمياط وقد زال أثرها = أحمد بن يحيى البلاذري: فتوح البلدان، نشرهُ ووضع فهارسهُ صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، د.ت) 740/3.

ومدينة القيس[*] التي اشتهرت بصناعة الملابس، ومدينة طحا التي اشتهرت بصناعة ثياب الصوف، حيث قال الجاحظ: "إن خير الأكسية من الصوف المصرية"[1] ومدينة اخميم اشتهرت هي الأخرى بنسج المناديل، أما ثياب الكتان والقطن والحرير فقد اشتهرت بها مدينة الأشمونين، ومدينة أسيوط فقد أشهرت بصناعة الفرش القرمز وهو يشبه الفرش الأرميني، ومناشف الأبدان والأرجل، وكان لمصر أيضاً شهرتها في صناعة القراطيس[**] ومن مدنها المعروفة بهذا حصن بورة[***] ووسيمة[****] في منطقة الدلتا[2]. واشتهرت مدينة ديبق بالقماش الديبقي الثقيل الذي بلغ ثمن الثوب نحو مائة دينار وكانت تصنع الأقمشة الحريرية كذلك في الإسكندرية. هذا وقد زاد الإقبال على المنسوجات خاصة في عهد خمارويه، حيث وصل عدد الذين يعملون لإمداد هذا الأمير ونساء قصره نحو عشرة آلاف رجل. كما لعبت صناعة النسيج دوراً مهماً في هذه الفترة فكانت تعد مصدر دخل للطولونيين وذلك لإنتاجها الثياب الفاخرة التي اعتاد الأمراء إرسالها ضمن الجزية والهدايا التي ترسل إلى عاصمة الخلافة، وكان للتجارة دورها في التوسع في رواجها حيث تضاعفت الأرباح التي تعود إلى الدولة من ورائها[3].

وإلى جانب هذه الصناعة، كانت هناك العديد من الصناعات الأخرى، من بينها صناعة الأسلحة، التي ازداد نشاطها في عهد خمارويه حيث أتقن أهالي دمشق خاصة

(*) القيس: كورة بمصر غربي النيل بعد الجيزة وسيمت قيساً لأن فتحها كان على يد قيس بن الحارث المرادي= ياقوت الحموي: المصدر السابق، 422/4.

(1) أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ: التبصير بالتجارة، ط2، (القاهرة، 1935) ص 124. كذلك المقريزي: الخطط، 226/1.

(**) القراطيس: جمع قرطاس وهو ضرب من برود مصر، كما يتخذ القرطاس من البردي للكتابة= ابن منظور: المصدر السابق، 172/6.

(***) حصن بورة: على ساحل البحر قرب دمياط تنسب إليها العمائم البورية= ياقوت الحموي: المصدر السابق، 1/ 506.

(****) كورة في جنوبي مصر، وهي في الضفة الغربية من النيل = ياقوت الحموي: المصدر السابق، 377/5.

(2) اليعقوبي: البلدان، ص 331، 338. كذلك الأصطخري: المصدر السابق، ص 41، 42، المقريزي: المصدر السابق، 239/1.

(3) المقريزي: الخطط، 226/1. كذلك حسن أحمد محمود، المرجع السابق، 211، 212، زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر، ص90، مصطفى طه: مصر الإسلامية، ص156.

صناعة السيوف، ولشهرتها فقد أمر خمارويه بصناعة سبعة عشر سيفاً دمشقياً لغلمانه، وذلك مقابل سيوفهم التي تبرعوا بها للأعرابي الذي مدح خمارويه وكانت هناك مصانع للأسلحة حكومية تقوم بصناعة الأسلحة التي تخص الجيش والحرس الطولوني(1). كما نشطت صناعة السفن الحربية والتجارية لتعزيز الحركة التجارية الكبرى التي ازدهرت في هذا العصر(2).

إضافة إلى هذه الصناعة فقد شهد ذلك العصر صناعة الورق من نبات البردي الذي ينمو بكثرة في مستنقعات الدلتا والفيوم، وظلت مصر طوال عصر الولاة تحتكر هذه الصناعة(3). أما الشام فقد أشتهر أهلها بتجليد الكتب ومن أشهر الرحالة الذين برعوا في التجليد المقدسي، الذي كلما حلّ في منطقة يُطلب منه تجليد الكتب(4).

كما شهد ذلك العصر تطوراً في صناعة المعادن خاصة الذهب والفضة والنحاس، وتعد الصعيد المصدر الرئيس لهذه المعادن، حيث كان التجار يقصدون أسوان وقفط ووادي العلاقي، لنقل الذهب عبر ميناء عيذاب على ساحل البحر الأحمر إلى مكة والحجاز واليمن(5)، واشتهر أيضاً هذا الوادي بمعدن التبر(*)، فكان التجار يقومون باستخراجه وجمعه وتشكيله على هيئة سبائك، وذلك بعد استئجارا عبيداً من السودان ليقوموا بعملية الحفر(6).

استغل الطولونيون هذه الثروة وأبدعوا في صناعة الحلي من الذهب والفضة والجواهر، بحيث يناسب عظمة هذه الدولة وترفها وظهر هذا واضحاً في جهاز قطر الندى عندما تم زفافها إلى الخليفة المعتضد، وما أشارت إليه المصادر بأنها حملت في

---

(1) أبو علي المحسن بن علي التنوخي: المُستجاب من فعلات الأجواد، عنى بنشرهِ وتحقيقهِ محمد كرد علي، مطبعة الترقي (دمشق، 1946) ص135. كذلك أمينة بيطار: الحياة السياسية وأهم المظاهر الحضارية، ص 336.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص 208.

(3) سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة، ص 162. كذلك أمينة بيطار: المرجع السابق، ص336.

(4) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 336.

(5) اليعقوبي: البلدان، ص 332، 333. كذلك المقريزي: الخطط، 232/1، 233.

(*) التبر: بالكسر الذهب والفضة أو فتاتها قبل أن يُصاغا، فإذا صيغا فهما ذهب وفضة = محمد غريط: فواصل الجُمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان، المطبعة الجديدة (فاس، 1346) ص7. كذلك المقريزي: النقود الإسلامية، ص112.

(6) اليعقوبي: المصدر السابق، ص334. كذلك المقدسي: المصدر السابق، ص 203.

جهازها ألف هاون من الذهب[1].

ومن الصناعات الأخرى التي اهتم بها الطولونيون صناعة الصابون فقد اشتهرت بالس وحلب بهذه الصناعة[2]، كما أقيمت معاصر لاستخراج الزيت من السمسم وبعض الحبوب والبقول، كما قاموا أيضاً بعصر القصب ليصنعوا منه السكر، وصناعة زيـــت المصابيح من بذور البنجر واللفت ويسمونه الزيت الحار[3]. وبرع كذلك أهالي الصعيد باستخراج الأصباغ من شجر النيل الذي يزرع في الصعيد، أما أهالي الشام فقد برعوا في صناعته[4].

كما اشتهرت مصر أيضاً بصناعة الأخشاب حيث ازدهرت هذه الصناعة، ويذكر المقريزي: أنه كان للخشب أسواق في مدينة الفسطاط[5]. ومع هذا فقد عمل التجار على استيراد الأخشاب من بعض الدول المجاورة بالإضافة لما وُجد ببلاد الشام[6]. كما برع النجارون في الحفر على الخشب، ومثلت الأخشاب الطولونية طراز الحفر المنحـــرف الجوانب، خاصة على أبواب جامع بن طولون حيث تجلي فيها الإبـــداع والبراعـــة[7]، أيضاً اتخذوا نباتات زخرفوا بها الأخشاب واستخدموا الأخشاب المحفورة في مبـــانيهم وقصورهم ومساجدهم فعملوا بها السقوف والأبواب والمنابر وأشرطة الكتابة التاريخية. كذلك أبدع أهل دمشق أيضاً في هذا الفن[8].

إضافة إلى هذه المصنوعات فقد ظهرت صناعة الزجاج والتي كـــان مركزهـــا

---

(1) اليعقوبي: المصدر السابق، ص 334. كذلك المقريزي: المصدر السابق، 1/ 319، حسن أحمد محمـــود: المرجع السابق، ص 214.

(2) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 335.

(3) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 476. كذلك سيدة كاشف: أحمد بـــن طولـــون، ص 202، آدم متز: المرجع السابق، 311/2.

(4) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 335. كذلك حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 213.

(5) المقريزي: الخطط، 315/1. كذلك سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص 203.

(6) زكي محمد: المرجع السابق، ص 91.

(7) جمال حجرز: زخرفة الأخشاب في الفن المصري الإسلامي، مجلة رسالة الإسلام، العدد الأول، الســـنة الثانية، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، (القاهرة، 1950). كذلك نعمت إسماعيل علام: فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، دار المعارف، ط2 (مصر، د.ت) ص63، ص 89.

(8) شحاتةعيسى: القاهرة، دار الهلال (القاهرة، د.ت). كذلك أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 336، سعاد أحمد جمعة: الإبداع الفني في الصناعات المعدنية في العصور الإسلامية، مجلة منبـــر الإســـلام، العـــدد الرابع، السنة الثانية والثلاثون، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (القاهرة، 1974) ص153.

مدينة الإسكندرية والفسطاط والفيوم والأشمونين[1]، وما يدل على ازدهار هذه الصـــناعة كانوا يقومون بالنقش على دوارق الشرب ولقد عثر على أحدها تحمل اسم ربيعة بين أحمد ابن طولون الذي عاش حياة ترف ونعم[2]، أيضاً اشتهرت بلاد الشام بهذه الصناعة، حيث وصفها المقدسي بقوله: "أنه أرق من زجاج الشام وأصفي منه" حيث كـــانوا مهـــرة فـــي زخرفته بالذهب وتلوينه بألوان مختلفة. بالإضافة إلى صناعة الفخار وبعض الصـــناعات التي ذكرها المقدسي الخيش[*] والأحذية وحبال الليفّ الجيدة والحُصر والرخام[3].

ويتبين مما سبق أن الصناعة في عهد الدولة الطولونية وصلت إلى درجة كبيـــرة من الازدهار والتنوع حيث وصلت إلى أغلب دول الخلافة الإسلامية، وهذا يدل علـــى اهتمام الطولونيين بالصناعة ومواردها واهتمامهم بتسويقها وتنظيمها.

3- التجارة:

كانت مصر في عهد الطولونيين مركزاً تجارياً مهماً، لوقوعها بين أسواق الشرق والغرب، حيث قام أحمد بن طولون بالنهوض بمرافق البلاد التجارية، فأنشأ الأســـواق التي انتشرت في مصر كلها، وخصص لكل تجارة سوقاً خاصاً، وسُميت هذه الأســـواق بحسب أنواع سلعها، وخصص لأصحاب الحرف سوقاً منفرداً، وكانت هـــذه الأســـواق محل اهتمام وعناية من الدولة[4].

وكان لمصر علاقات تجارية مع العـــالم الإســـلامي وخارجـــه، حيـــث اســـتفاد الطولونيون من موقع مصر المتوسط للعالم الإسلامي إلى جانب إطلالها على بحـــرين لهما أهمية كبرى في التجارة العالمية آنذاك هما البحر الأحمر، والمتوسط، إلى جانـــب هذا وجود برزخ السويس الواصل بين البحـــرين، لـــذلك أصـــبحت محطـــة لليهـــود

---

(1) عمر رضا كحالة: العلوم العملية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية (دمشق، 1972) ص263.

(2) عبدالرؤوف علي يوسف: دارسة في الزجاج المصري، ورد ضمن كتاب أبحاث الندوة الدوليـــة لتـــاريخ القاهرة، مطبعة دار الكتب (الجمهورية العربية المتحدة، 1979) 650/2.

)*(الخيش: ثياب رقاق النسج غِلاَظُ الخيوط تُتخذ من مُشاقةِ الكتان ومن أردئِه = إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، 264/1.

(3) المقدسي: المصدر السابق، ص 303. كذلك أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 335، على إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 476.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص 53، 54. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمـــد محمـــود: المرجـــع الســـابق، ص113، 114.

والراذانية[*]، الذين كانوا يأتون من مقاطعة بروفانس بفرنسا، وأطلق العرب عليهم اسم "تجار البحر" فكانوا يسافرون بين الشرق والغرب ويجلبون الخدم والجواري والغلمان والديباج وغيرها من البضائع[1].

ومما زاد في مكانة مصر التجارية تأسيس ابن طولون داراً لسك النقود سميت بالنقود الأحمدية، فكانت تعير ويختم عليها من قبل مختصين يعرفون باسم المعدنيين أو السباكين وقام أحمد بن طولون بالإشراف على دار الضرب وعلى جميع متوليها، كما حرص على نقاء العيار حتى غلبت دنانيره في نقائها دنانير الخلافة في بغداد سامراء[2].

ولم يقتصر ضرب النقود في مصر فقط بل ضربت في مدن أخرى داخل وخارج مصر، مثل: مدينة الرافقة ودمشق وحمص وحلب[3].

أهم الطرق التجارية:

كانت هناك طرق ربطت مصر بالدول المجاورة ومن أهمها:

1- الطرق البرية:

كونت مصر علاقات تجارية مع العراق في وقت مبكر جداً ويرجع ذلك إلى الفترة التي سبقت الدولة العباسية، حيث تذكر بعض المصادر بأن جماعة من أزد البصرة رحلوا إلى مصر في العهد الأموي واستقروا هناك وأقيم لهم سوق يدعى سويقة العراقيين[4]. واتصلت مصر والعراق عبر الطريق البري الذي يبدأ من الفسطاط إلى

(*) الراذانية: الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية وكانوا يسافرون من المشرق إلى المغرب وبالعكس براً وبحراً لغرض التجارة، منهم دائماً على سفر ورحلاتهم لا تتقطع = ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص 153، 154.

(1) ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص153. كذلك سيدة كاشف: المرجع السابق، ص 207، 208، 209.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص196، 197. كذلك القلقشندي: المصدر السابق، 534/3، المقريزي: الخطط، 1/ 110.

(3) المقريزي: النقود الإسلامية، ص 74. كذلك سيدة كاشف: دراسات في النقود الإسلامية، المجلة التاريخية (المصرية، القاهرة، 1963)، 89/11.

(4) ابن دقماق: المصدر السابق، ص 43. كذلك المقريزي: الخطط، 298/1.

بلبيس ورفح وغزة والرملة إلى طبرية فدمشق ثم الرقة[1]، ومن هذا الطريـــق تســـير السفن إلى بغداد عبر نهر الفرات ونهر عيسى، حيث تقوم هذه السفن القادمـــة بـــإفراغ حمولتها من البضائع الشامية والمصرية في أسواق بغداد[2]، وتجبى الضـــرائب علـــى الطريق البري الواصل بين مصر والشام عند مدينة قطبا وهي أكثر الجهات متحصـــلاً وأشدها على التجار تضييقاً[3].

بالرغم من صعوبة المواصلات بين مصر والعراق، إلا أن التجار ظلـــوا علـــى استمرار في علاقاتهم التجارية بين البلدين، ومما يدل على ذلك استقرار التاجر معمـــر ابن محمد الجوهري وكان من أصدقاء ابن طولون الذين أقاموا في مصر وكان له نشاط واسع في التجارة وله عملاء في أسواق الشرق خاصة في العراق ما جعل ابن طولـــون يستفيد من هذه الصداقة فكان يقوم بإرسال الأموال إلى بغداد يرشو من يشاء من أولـــى الأمر والنفوذ دون أن يُفْضح سره فكانت هذه الأمور تتم عن طريق هـــذا التـــاجر[4]. حاول معمر أن يشرك ابن طولون في تجارة الكتان وعندما فعل ذلك، رأي في منامـــه كأنه يمص عظماً يستخرج منه المخ، فعلم تفسير هذا المنام فقام باسترداد المال الذي قام بوضعه في هذه التجارة ووزعه على الفقراء[5]. إلى جانـــب التـــاجر العراقـــي ابـــن الجصاص، الذي كون أغلب ثروته في مصر، عندما رحل إليهـــا فـــي عهـــد الأميـــر خمارويه سنة (270هـ/882م) وأصبح مُمولاً للقصور الطولونيـــة بـــالجواهر، وكـــان خمارويه يقول: "لا يُبتاع لناشئ إلا على يده"[6].

كانت أغلب تجارة الشرق الذاهبة إلى المغرب والأندلس تمر بالأراضي المصرية وبالعكس، مما اكسب بعض مدن مصر كالفسطاط مركـــزاً مهمـــاً للتجـــارة البحريـــة الخارجية ولوقعها على النيل في موضع متوسط بين الوجهين البحري والقبلـــي كـــذلك اتصال هذه المدينة بثغور مصر ومدن الصعيد عن طريق النيل والإســـكندرية[7] التـــي

---

(1) ابن خرذادبة: المسالك والممالك، ص 78، 80، 83.

(2) اليعقوبي: البلدان، ص 250.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 538/3.

(4) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 219. كذلك مصطفى طه بدر: المرجع السابق، ص154.

(5) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص 151.

(6) حسين علي المسرى: تجارة العراق في العصر العباسي، جامعة الكويت، (الكويت، 1982م) ص 355.

(7) ابن حوقل: صورة الأرض، ص130. كذلك سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص299، 310.

أصبحت محطة رئيسة للسفن التجارية القادمة من المغرب والأندلس المتجهة إلى الشام ومصر ومما زاد في أهميتها تطهير أحمد بن طولون قناتها وأصبحت صالحة للملاحة[1]، فأصبحت الإسكندرية من أكبر أسواق العالم وأكثر ثغورها ازدحاماً، وعظمت بها تجارة القمح والكتان والورق وغير ذلك[2].

كما كانت لمصر تجاره مع بلاد النوبة والبجة[*]، حيث وفد إليها بعض التجار يحملون البضائع النفيسة كالعاج والأبنوس وريش النعام وأنياب الفيلة التي كانت تباع في أسواق الفسطاط[3].

2- الطرق البحرية:

تعتبر الطرق البحرية هي أيضاً من أهم الطرق التجارية مع أقطار البحرين المتوسط والأحمر، حيث كسبت مصر في هذا العصر وعن طريق البحر الأحمر خاصةً مكاسب طائلة وظهر هذا بوضوح في المنشآت التي قام بها أحمد وابنهِ خمارويه، كما كانت البضائع التي تُرسل من بلاد الهند والصين تسلك دائماً طريق البحر الأحمر وتصل إلى إيطاليا وفرنسا، كذلك كان لهذا البحر أهمية أخرى حيث يُعد مرسى للسفن ويُعد من أهم حلقات الاتصال بين الشرق والغرب[4].

3- الطرق النهرية:

كان لنهر النيل دور مهم في الملاحة النهرية، حيث كانت السفن تنقل المحصولات من مدن مصر الجنوبية إلى دمياط والإسكندرية على ساحل البحر المتوسط، وكان التجار الغربيون يحصلون على ما يحتاجونه من بضائع، وقد أشار المقدسي إلى كثرة المراكب الراسية والسائرة في النيل[5].

---

(1) ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص 153. كذلك مصطفى طه بدر: المرجع السابق، ص 154.

(2) علي حسني الخربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط، دار العلم للملايين (بيروت، 1970) ص14.

)*(البجة: جيل من الناس كانوا يقيمون بالصحراء بين النيل والبحر الأحمر، وهم أهل البادية يتبعون الكلأ للرعي حيثما يكون = جرجي زيدان: أحمد بن طولون، دار الهدى الوطنية (بيروت، د.ت) ص116.

(3) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 475.

(4) السيد عبدالعزيز سالم: البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية، 1994) ص17. كذلك سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص205، 208.

(5) المقدسي: المصدر السابق، ص 198.

وقد تنوعت صادرات مصر تبعاً لتنوع مواردها، فهي تصدر الثياب الملونة والكتان والنعال والأرز والقباطي[*] والخيش والصوف والتمر والحبوب وزيت الفجل والحبوب[1]، كما كانت تصدر أيضاً البغال والحمير، كذلك صدرت ثياب الرقاق والقراطيس والكتان والمنسوجات الفاخرة التي عرفت باسمها في شرق آسيا[2].

كما كان لمصر ارتباط تجاري بحري آخر مع المدن الإيطالية فقامت هذه المدن بتدعيم علاقاتها التجارية مع مصر وذلك لأن الطريق التجاري الذي يمر بها أفضل من الطريق البحري الذي يخترق بلاد الجزيرة والشام، ولما يمتاز به هذا الطريق من رخص تكاليف النقل فيه[3]، كما أنها حافظت على علاقاتها مع بلاد الشام فكانت مدينة أمالفي الايطالية على صلة تجارية مع إنطاكية. وحافظت كذلك بلاد الشام على تجارتها مع الأقطار الإسلامية الأخرى فكانت تقوم بتصدير الحديد لصناعة الأسلحة إلى الفسطاط، مقابل استيرادها الجلود، وتقوم كذلك بتصدير منتجاتها الزراعية والحيوانية[4]. هذا وقد ساهم الفرس في رواج التجارة في مصر في هذا العصر حيث وفدوا إليها وقاموا بالمساهمة في زيادة الحركة التجارية[5].

وكان لرواج التجارة ونشاطها خلال العهد الطولوني الأثر في ارتفاع حصيلة الجباية وتدفق الأموال على خزائن الطولونيين بصورة لم تشهدها مصر من قبل، وقد انعكس رواج التجارة الخارجية على التجارة الداخلية فزاد بذلك الإنتاج وكثرت المصانع والأسواق، وذلك بفضل ما قام به الطولونيون من جهود، وإصلاحات إدارية، وتأمين الطرق التجارية[6]. وما يعكس هذه النهضة الاقتصادية هو ما شهدته مصر من عمران قام به الطولونيون حيث أصبح شاهداً على ثراء هذه الدولة وازدهارها، حيث أشارت المصادر إلى المبالغ التي أنفقها أحمد بن طولون في بنائه للمساجد

)*(القباطي: جمع قبط وهي ثياب كتان بيض رقاق تعمل بمصر= إبراهيم مصطفى وآخرون: المرجع السابق، 719/1.

(1) المقدسي: المصدر السابق، ص 203.

(2) اليعقوبي: البلدان، ص331. كذلك المقدسي: المصدر السابق، ص 203.

(3) أبو بكر أحمد بن إبراهيم ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، مكتبة المثنى (بغداد، 1303). كذلك سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص205.

(4) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص342.

(5) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص220.

(6) المرجع نفسه، ص 219 – 220.

والبيمارستانات كذلك قيمة ما يخرج من صدقات في كل شهر[1]، وقد أشار البلوي إلى الأموال الطائلة التي تركها ابن طولون والتي بلغت مليون وسبعمائة ألف دينار، غير مالهُ الخاص، وبلغ ما تركة لحاشيته في كل سنة مائتي ألف وخمسين ألف دينار[2]. ومما سبق يتبين أن موقع مصر والشام أعطى أهمية كبرى في ازدهار الدولة الطولونية، حيث كانت ملتقي الطرق التجارية، فضلاً عن النهضة الزراعية والصناعية التي شهدتها خلال هذه الفترة، وهذا بلا شك كان بفضل اهتمام الطولونيين بالمرافق الاقتصادية لدولتهم ونشر الأمن والاستقرار.

ثانياً: الحياة الاجتماعية:

تشمل الحياة الاجتماعية لأي شعب دراسة أحوال المجتمع، وطبقاته وطرق معيشته وعاداته وتقاليدهِ التي كانت موجودة بينهم، كذلك الأعياد والمناسبات القومية والدينية، وما تشتمل عليه هذه الحياة من أكل وملبس ومسكن...الخ[3].

طبقات المجتمع:

اشتمل المجتمع في العصر الطولوني على عدة طبقات منها:

أ - طبقة الأشراف وكبار الملاك:

تتألف هذه الطبقة من الأتراك الذين استطاعوا أن يحظوا بمكانه عظيمة في هذا العصر، إلى جانب ذلك فقد ساهموا في بناء هذه الدولة، كما استطاعت أن تنال النفوذ والثروات، وأن تحظى بالإجلال من الأمراء والشعب، فعاشوا حياة الترف والرخاء في القطائع، كذلك كان ابن طولون يولي قواد الجيش الطولوني بعناصره المختلفة مهام إدارية مختلفة، أو من زعماء الغلمان والحجاب ورجال البلاد، مما زاد في ارتفاع شأنهم في الدولة، حيث كان بعض الأمراء ينفقون ما تحصلوا عليه في شراء الدور وأفخم الأثاث، مثل فائق مولى أحمد بن طولون، الذي استطاع شراء دار بمبلغ عشرين ألف دينار، ومثل هذا المبلغ عند قيامه بتأثيثه، كما اتخذ نحو ثلاثمائة من الجواري والمحظيات[4].

---

(1) ابن عساكر: المصدر السابق، 124/3. كذلك ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/3.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص 341.

(3) إبراهيم أحمد العدوي: تاريخ العالم العربي وحضارته في العصر الإسلامي، دار نهضة مصر؛ (القاهرة، د.ت)، ص 193. كذلك حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، 421/3.

(4) المقريزي: الخطط، 300/1. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص98، 99.

ويذكر ابن تغري بردي أن في عهد خماريه وأبنائه لم يقل القواد عن فائق بل كانوا على ثراء ونفوذ فكان بدر وصافي يتمتعا بثروة كبيرة وكان "دأبهم المنافسة في حسن الزى وبسط اليد بالإنفاق في وجوه البر، وبني بدر الميضأة المعروفة به على باب الجامع العتيق، ووقف عليها القيسارية الملاصقة لها،... وكان صاحب صدقات بدر رجلاً يعرف بالليث بن داود، فكان الشخص يرى المساكين زُمَراً زُمَراً يتلو بعضهم بعضاً ينادون في الطريق: دار الليث، دار الليث"(1).

وقد استطاع القاضي محمد بن عبده بن حرب أن يبني داراً عظيمة له وبلغ مقدار ما أنفقه في هذا البناء مائة ألف دينار(2)، وقد كان أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية يقوم بإجراء الجرايات على الأشراف، ومنهم من كان ينال مائتي دينار في كل سنة(3). أما كبار التجار فكانوا ينعمون بحياة مترفة، فقد ذكرت سيدة كاشف وحسن أحمد محمود نقلاً عن كتاب المكافأة لابن الداية صورة لأحد التجار من أصحاب أحمد بن طولون، وكان اسمه هارون بن ملول قال: لما مات أبي ورثت عنه مالاً جماً ومستغلات نفيسة، وكان يتصرف على زي التجار(4).

بالإضافة إلى هذا فقد كان أغلب هؤلاء المقربين يمنحون الأعطيات والمرتبات ومنهم من كانوا يستغلون الأراضي فيستأجرونها، أو يقومون بشراء ضياع واسعة، أيضاً كان أصحاب أحمد يقومون بالخلع على أنصارهم ورجالهم مثلما يفعل الأمير نفسه(5)، ومن بين هذه الطبقات التي لها دور في الحياة الاجتماعية في مصر ظهرت طبقة تمتع أفرادها بمميزات جعلتها تتولى مناصب مهمة مثل: ولاية الخراج أو الكتابة أو الدايون وتتوارثها، ومن هذه الطبقات ظهور الماذرائيين(*) وبنو

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 101/3.

(2) الكندي: الولاة والقضاة، ص 516.

(3) أدم متز: المرجع السابق، 285/1.

(4) سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 101.

(5) سمير فراج: المرجع السابق، ص 172.

(*) بدأ ظهورهم عام 266 هـ / 879م، في عهد أحمد بن طولون، عندما تولى جدهم أحمد بن إبراهيم الماذرائي الاطروش الخراج، وانفرد بولاية الخراج في مصر و ارتفع شأنهم بعد وفاة أحمد حتى أصبح على بن أحمد في عهد خمارويه كاتب الأمير ووزيره والمشرف على ضياعه وأمواله الخاصة وموضع ثقته وأيضاً تميزوا بالثراء والحياة الاجتماعية المترفة ونفوذهم البعيد = سيدة كاشف وأحمد حسن محمود: المرجع السابق، ص 100.

مهاجر(*) وكان لهذه الطبقتين حياة اجتماعية يغمرها الترف(1).

ب - أهل الذمة:

تألفت طبقة أهل الذمة من الأقباط واليهود والمسيحيين حيث إنهم تلقوا معاملة على قدم المساواة، مع المسلمين فقد كان أحمد حريصاً على بقاء روح الأخوة بينهم وبين المسلمين، هذا وقد تلقي الأقباط معاملة حسنة من أحمد بن طولون، وأظهر لهم التسامح، مما جعلهم يتمتعوا بهدوء وطمائنينه لم يتمتعوا به منذ زمنٍ طويل، وقد قام أحمد، بتخفيف الضرائب، وما يدل على ذلك، ما قام به من مكاتبة ابن المدبر ليخفف عنهم ما قد فرضه عليهم، كذلك طلب منه إعفاء رهبان دير القصير(**)، وذلك بعد أن شكوا إليه أمر ابن المدبر عند مطالبته بالجزية(2)، وقد أظهر أحمد بن طولون عطفه على الرهبان مجدداً وذلك بعد أن بلغه أن قائدهُ الذي وجهه إلى بعض الأرياف في حمل مال وإصلاح حال قد قام بأخذ خمسمائة دينار من أحد الرهبان، فأمره أحمد بعد أن علم بذلك بردها إليه(3)، ومما يدل على سماحة ابن طولون أيضاً، ما ذكره ابن تغري بردي "وهو عند دخوله إلى دمشق، وكان معه أبو زرعه البصري وكاتبه أبو عبدالله أحمد ابن محمد الواسطى، حدث حريق عند كنيسة مريم العذراء، "فأمر أحمد بسبعين ألف دينار من ماله وأن يعطى لكل من احترق له شيء، ويقبل قوله ولا يستخلف، فأعطوا لمن

(*) هم من أهل فارس من نسل عبدالحميد الكاتب، خدم أربعة من أفرادها هذا البيت: حسين الخادم في بلاد الشام ثم التحق إلى خدمة أحمد بن طولون، وتولى أعمال البريد وأصبح من المقربين، وكانوا يعيشون في مصر وينهجون منهج الماذرائيين في حياتهم الاجتماعية وفي إقبالهم على الترف = سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 101.

(1) سمير فراج: المرجع السابق، ص 172.

(**) هذا الديرفي أعلى الجبل.. وهو دير حسن البناء محكم الصنعة، نزه البقعة، فيه رهبان مقيمون به،... وفي هيكله صورة مريم في حجرها صورة المسيح عليه السلام، والناس يقصدون الموضع للنظر إلى هذه الصورة، وفي أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارويه، لها أربع طاقات إلى أربع جهات= أبو الحسن على بن محمد المعروف بالشابشتي: الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، ط2، (بغداد، 1966) ص 284.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص118. كذلك أحمد الشرباصي: ابن طولون ورفقه بأهل الذمة، مجلة رسالة الإسلام العدد الثاني، السنة الثانية، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، (القاهرة، 1952)، ص 204، 205.

(3) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص 206، 207. كذلك حسن أحمد محمود: المرجع السابق،، ص199.

ذهب ماله، وفضل من المال أربعة عشر ألف دينار"[1].

ومع ذلك لم يفقد الأقباط امتيازاتهم، وظلت لديهم الخبرات الفنية والصناعية، كما بقيت في أيديهم بعض الوظائف في العصر الطولوني، وما يدل على هذا أن أحمد بـــن طولون عهد إلى سعيد بن كاتب الفرغاني النصراني، ببناء أحد الجوامع[2]، أيضاً كـــان هناك رجل أخر منهم يدعى بأبي الذؤيب، كان من حجاب القصر أحسن إليـــه أحمـــد، وكان ملازمه، وقد وصفه البلوى" ربما أكل معه، وربما جلس ينادمه بين يديه"[3]، وقد استشاره أحمد بن طولون في بعض الأمور، وهذا يدل على مدى اطمئنان أحمد لبعض الأقباط، كذلك أظهر خمارويه تسامحاً كبيراً معهم ومع المسحيين واتخذ إســـحاق ابـــن نصر العبادي كاتباً له[4].

لم يجد الأقباط في هذا العصر إهمالاً لشكواهم، حيث إنهـــم أنصِـــفوا، وشـــارك الطولونيون الأقباط في أعيادهم وكان لذلك الدور الكبير في حياتهم[5]، وعند وفاة أحمد أظهر الأقباط والرهبان حزنهم الشديد عليه[6].

ج- اليهود:

لقي اليهود أيضاً معاملة حسنه، كما أنهم لقوا الأمن والطمأنينة، وأصبحوا عنصراً من عناصر المجتمع، وأفرادهم من الأغنياء، أيضاً برعوا فـــي الاتجـــار فـــي العملـــة وحصدوا من هذه التجارة أموالاً جمة، كذلك اشتغلوا في أسواق الفسطاط والقطائع فـــي الصيرفة، إضافة إلى ذلك فقد كان هناك طبيب يهودي من أصل مصري اسمه إســـحاق بن سليمان[*] (320هـــ/932م)، سُمح له بالانتقال إلى إفريقية والاستقرار بـــالقيروان،

---

(1) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 14/3. كذلك علي إبراهيم حسن: مصر فـــي العصـــور الوســـطى، ص509، عبدالرحمن الرافعي وسعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق، ص 120.

(2) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص 181. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 104.

(3) البلوي: المصدر السابق، ص 217.

(4) مصطفي طه: مصر الإسلامية، ص 161. كذلك علي حسني الخربوطلي: الإسلام وأهل الذمة، المجلـــس الأعلى للشئون الإسلامية، (القاهرة، 1969م) ص 171.

(5) سيدة كاشف وأحمد حسن محمود المرجع السابق، ص 104.

(6) علي حسني الخربوطلي: المرجع السابق، ص 171.

) *(إسحاق بن سليمان الإسرائيلي: ولد بمصر سنة (236هـــ/850م) كان عالماً بالطـــب والفلســـفة وعلـــم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم، لهُ عدة مؤلفات منها "كتـــاب=

واتصل بالأمير زيادة الله بن الأغلب[1].

وقد شارك اليهود الأقباط في مناسباتهم الدينية، وإحداها عندما قام أحمد بن طولون بهدم مقابر الأقباط، ليُشيد على أنقاضها قصره، أيضاً خروجهم بجانب بعض يحملون التوراة والإنجيل، ذاهبين إلى جبل المقطم، ليدعوا الله بأن يتم الشفاء لأحمد عندما كان مريضاً[2].

د - المسلمون:

كان أصل أغلب المسلمين الذين استقروا في مصر، إما قد هاجروا قديماً أو من الذي جاءوا مع الفتح الإسلامي واستقروا بها، وكذلك بعض الهجرات العربية الأخرى التي جاءت بعد الفتح خلال فترات زمنية متعددة، نتيجة للاضطرابات السياسية والاجتماعية، أو من أجل التجارة والحصول على الرزق لما تمتاز به مصر من كثرة خيراتها وثرواتها المختلفة[3].

حافظ بعض العرب في مصر بانتسابهم إلى قبائلهم فوجدت بعض الشواهد على مقابر أسوان والفسطاط اسم المتوفى يتبعه اسم قبيلته، وذلك خلال القرنين الأولين للهجرة أو الإقليم الذي ينسب إليه المتوفى، فيكتب فلان الكوفي أو المصري[4].

2- الأعياد:

دلت الأعياد التي يحتفل بها المسلمون على رقّة المظهر الإسلامي[5]، فكان الشعب في مصر يحتفل بالأعياد سواءً كانت أعياداً للمسلمين أو للنصارى، كما احتفلت الأسرات بأعيادها الخاصة، فكان الطولونيون يخرجون أيام عيد الأضحى وعيد الفطر وفي يوم الجمعة إلى الجامع، الذي قام أحمد ببنائه، كما جعل ابن طولون رحبة فسيحة

=الأغذية والأدوية"، وكتاب "الاسطقسات"، وكتاب "بستان الحكمة"، وكتاب "في الحدود"، ويعد أول من نبغ من اليهود في الفلسفة في بلاد المغرب = ابن جلجل: المصدر السابق، ص87. كذلك شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة، ص146.

(1) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص 218.

(2) مصطفي طه: المرجع السابق، ص 161. سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص 218.

(3) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص 219، 220.

(4) سيدة كاشف: مصرفي فجر الإسلام، ص 258.

(5) أدم متز: المرجع السابق، 282/2.

في قصره، يجلس ويكبر فيها اثنا عشر من المكبرين، ويتناوبون الليل، وتعلو الأصوات المكبرة الشجية معاً، ويقومون بالتسبيح وقراءة القرآن، وعندما كان خمارويه يجلس للشراب، يضع الكأس عند سماعه للمكبرين ويكبر معهم، فكان لهذه الأعياد الدينية التي تقام في مصر مظهر رائع، خاصة عندما يقوم الجيش بعرض كبير، فتقام المآدب للناس فيأكلون ويحملون ما يريدون من الطعام[1].

وبالإضافة للأعياد الدينية الإسلامية، كانت مصر تحتفل بالأعياد المسيحية، وكان المسلمون يشاركون فيها على حد سواء، ومن هذه الأعياد والاحتفالات عيد الغطاس[*] فكانت "لليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام فيها الناس...". وكان صاحب الشرطة السفلانية يركب في ليلة الغطاس في موكب عظيم ويطوف الشوارع وبين يديه الشموع والمشاعل[2]. وأيضاً عيد الزيتونة الذي يسمى يوم الشعانين[**] تظهر الوصائف في هذا العيد في أحسن الملابس الغالية والجميلة وفي أيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون[3]. وكان يُرافق هذه الاحتفالات كثير من الشعوذة يقوم بها القساوسة للتأثير على المسيحيين[4].

ومن الأعياد الأخرى التي يشارك فيها المسلمون النصارى عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة، حيث يطوف العامة قبل خروجهم للسجن بالطبول والأبواق، ويقوموا بجمع ما يستطيعون جمعه من التجار لكي ينفقونه عند خروجهم[5]، أيضاً شارك العامة في عيد النيروز[***] فكان العامة يقومون بانتخاب رجل يسمونه أمير النيروز، فيطلي وجهه بالدقيق أو الجير ويركب على دابة في الشوارع، وعليه ثوب أحمر وأصفر

---

(1) على إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ص 511، 512.

(*) أصله عند النصارى أن يحيى بن زكريا عليهما السلام غسل المسيح في بحيرة الأردن، وعندما خرج المسيح من الماء اتصل به روح القدس فصار النصارى يغمسون أولادهم في الماء في هذا اليوم = المقريزي: الخطط، 265/1.

(2) المقريزي: الخطط، 265/1. كذلك حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص196.

(**) ومعناه التسبيع، ويكون في سابع أحد من صومهم= المقريزي: المصدر السابق، 264/1.

(3) المقريزي: المصدر السابق، 264/1.

(4) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص354.

(5) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 196.

(***) هو أول السنة القطبية بمصر، وسنتهم فيه إشعال النيران والتراش بالماء، وكان من مواسم لهو المصريين قديماً وحديثاً. المقريزي: المصدر السابق، 267/1.

ويسير معه جمع كبير، وكان الطولونيون يخرجون في موكب حافل في هذه الأعياد وكان الوالي، ويشاركهم ممتطياً حصاناً وممتشقاً سيفاً يسير في موكب حافل وعظيم، كما تفتح أبواب القصر أيام الأعياد، ويشارك الوالي في هذه الاحتفالات التي تقام في القصر الطولوني، ويجلس ليرى مدى سعادة الغلمان ومرحهم بالعيد، كما كانت تقام في الموائد والولائم، والتي تجمع في الغالب كبار رجال البلاد والخاصة والوفود الذين يأتون من بغداد وسامراء[1].

والذي يتضح من هذا انه رغم اختلاف الديانات والأعياد إلا أن الشعب المصري يشارك بعضه البعض في هذه المناسبات التي كانت مظهراً للفرح والبهجة.

3- الألعاب الرياضية:

اهتم الطولونيون بالألعاب الرياضية، فقد أولوها اهتماماً كبيراً وكان من أشهرها لعبة الفروسية، التي اهتم بها المسلمون على مختلف العصور[2]،وقد تم ذكر الخيل في القرآن الكريم في قوله تعالي : (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ)[3]، أيضاً فقد روى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة"[4] فضلاً عن ما ذكره بعض الشعراء في وصف الخيل ومن بينهم أبو الطيب المتنبي، الذي قال:

فالخيل والليل والبيداء يعرفني والسيف والرمح والقرطاسَ والقلمُ

قام ابن طولون ببناء ميدان أمام قصره، لسباق الخيول، كما كان الفرسان يزاولون لعبة الصوالجة التي أخذها العرب عن الفرس أو اليونان[5]، وكانت الخيول تعرض في الأعياد، وتبدو حلبة السباق في منظر خلاب حيث يجلس الناس للمشاهدة عندما تطلق

---

(1) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 512.

(2) الغزالي حرب: الألعاب الرياضية في التاريخ والشعر، مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة الثالثة، العدد الثالث، تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر، (بيروت، 1981) ص 72.

(3) سورة الأنفال، الآية (60).

(4) أبو زكريا محيي الدين النووي: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، عنى بتحقيق أصولهِ رضوان محمد رضوان، دار الإرشاد (بيروت، 1968) ص328.

(5) موريس لومبار: الإسلام في مجده الأول من القرن 2 إلى القرن 15 هـ / 8-11م) ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط3، (المغرب، 1990)، ص 206. كذلك الغزالي حرب: المرجع السابق، ص 72.

هذه الخيول وتمر بعضها متفاوتة بعضاً، يمتطيها غلمان ابن طولون في نظام حسن[1]، بينما يجلس خمارويه يرى ويتأمل هذه الخيول في الحلبة كيف تقبل[2]. وسُمِّي المكـــان الذي يستعرض فيه الخيل "بالمنظرة"[3].

وقد وصف أغلب المؤرخين عرض هذه الخيول فقد ذكر فؤاد فـــرج نقـــلاً عـــن القضاعي وصف إسطبلات خمارويه وخيوله وعرضها قائلاً: "كان عرض الخيل مـــن عجائب الإسلام الأربع، وهي عرض الخيل بمصر ورمضان بمكة والعيد بطرســـوس، والجمعة ببغداد[4].

كذلك فقد كان خمارويه مولعاً بالصيد، في ذلك ولع أبيه، وخاصة صيد الحمـــام، وهذا ما كان العرب السابقون مغرمين به حيث كانوا يفخرون بالصيد بواسطة السيوف والحراب، ويحتفظون بها في حدائقهم[5]، كما أحب خمارويـــه صيد الأسود، حيث إنـــه "ما لا يكاد يسمع بسبع إلا قصده ومعه رجال عليهم لُبُـــود[*] فيـــدخلون إلـــى الأســـد ويصطادونه بأيديهم من غابته عنوة وهو سليم، فيضعونه في أقفاص من خشب محكمة الصنع تسع الواحد من السباع وهو قائم، فإذا قدم خمارويه من الصيد سار القفص بـــين يديه"[6].

أيضاً فقد أشار المقريزي من أخبار أبي الجيش "أنه مر بقرية وهو ســـائر إلـــى الشام، فخرج إليه أهلها وشكوا سبعاً في جوارهم وأنهم عزموا من خوفهم منـــه علـــى الهرب من أوطانهم لأنه ما يظفر برجل أو امرأة أو بهيمة ألا وقد أكله، فقال: وأين هو قالوا: بين يدي الأمير" [7]، وهذا يدل على أن خمارويه كان محباً للصيد، مما جعلهُ يقوم ببناء بيوت للسباع، وأيضاً جعل لكل نوع من الحيوانات إسطبلاً خاصاً به، وقـــد قـــام بزرع ضياع خاصة بنبات القرط لأجل هذه الحيوانات.

---

(1) علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ص 512.

(2) المقريزي: المقفي، 825/3. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 60/3.

(3) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 512.

(4) المقريزي: الخطط، 318/1. كذلك فؤاد فرج: المرجع السابق، ص 363.

(5) حسن أحمد محمد: المرجع السابق، ص 182.

(*) اللبود: الصوف المتجمع المتلبد الذي لا ينفذ منه ظفر السبع= علي إبراهيم حســـن: المرجـــع الســـابق، ص513.

(6) ابن تغري بردي:المصدر السابق، 60/3. كذلك سيدة كاشف وأحمد حسين محمود: المرجع السابق، ص97.

(7) المقريزي: المقفى، 823/3. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 60/3.

4- الطعام والموائد:

سادت أنواع مختلفة من الأطعمة أيام الطولونيين، ومن أشهر هذه الأطعمة، لحم الجدي ولحوم الضأن والدجاج والأسماك، وأنواع من الحلوى، فكانوا يعرفون الفالوذج(*) واللوزينج(**) والقطائف، والمأمونية، أو العصيدة وغيرها، وكان بإمكان الفرد شراء هذه الأطعمة التي كانت شائعة بين مختلف طبقات الشعب بدرهم أو درهمين، كما عُرف في هذا العصر اللحم البارد والماء المثلج، وإذا أراد الشخص شراء بعض الأنواع من هذه الأطعمة يتجه نحو الأسواق الخاصة بها في دار الحريم[1]، كذلك تعددت الأطعمة في الشام فكانوا يقومون بقلي الفول بالزيت بعد سلقه، وبيعه مع الزيتون كما أكثروا من أكل الترمس بعد تمليحه، كما اشتهرت فلسطين بالقلقاس(***) الذي يعتبر من المأكولات الشائعة وخاصة في فصل الشتاء، هذا وقد كان يُقدم للفقراء في كل يوم العدس بالزيت وإذا أراد الأغنياء أكله فلهم ذلك[2].

كانت هذه المطابخ في هذا العصر دليلاً على البذخ وما كان ينفق عليها شهرياً، ويذكر البلوى، بأن أحمد بن طولون ينفق يومياً على مطبخه ألف دينار[3]، بينما انفق خمارويه على مطبخه ثلاثة وعشرين ألف دينار شهرياً[4]، وكان هناك مشرفون يقومون بالإشراف على تحضير هذا الطعام، أيضاً خدام مرتبون يقومون بتقديمه، فكانت تنصب الموائد ويحضر الفقير والغني هذه الولائم، بعد أن يُنادي في مصر لمن أراد الحضور حضر، بينما يجلس أحمد أعلى قصره ينظر إليهم[5]، "ويسجد ويحمد ربّه على هذه النّعم، وساعة يقف ويصلي ركعتين... ويطلب الناس بأن يزلوا ولا يخرج أحد إلا ومعه

(*) الفالوذج: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل = ابن تغري بردي: المصدر السابق، 58/3.

(**) اللوزينج: من الحلواء شبه القطائف تعمل بدهن اللوز = ابن تغري بردي: المصدر السابق، 58/3.

(1) المقريزي: الخطط، 318/1. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 513.

(***) القلقاس: شئ على قدر الفجل المدور يشبه البطاطس عليه قشر وفيه حدة يقلي في الزيت= المقدسي: المصدر السابق،ص 204. كذلك آدم متز: الحضارة الإسلامية، 303/2.

(2) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 355.

(3) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص 351.

(4) المقريزي: الخطط، 318/1.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 17/3.

الزلة[*] الكبيرة العظيمة" [1]، وبهذا أرى أن هذه الدولة تميزت بتعدد أنـــواع الأطعمـــة وقيامها بالولائم والموائد مما جعل مصر لا تشهد مجاعة، كذلك فإن ما كان ينفق علـــى هذه المطابخ شهرياً يدل على ثراء هذه الدولة وازدهارها.

5- الغناء والموسيقى:

لا يخلو عصر من عصور الدولة التي مرت من مجالس الغناء والطـــرب، وفـــي عهد أحمد كانت هذه المجالس قليلة، ورغم ذلك كان لدى أحمد ميل إلى سماع الطـــرب والغناء والمستطرف من القول، وكان لديه مغني خاص يسمى "كنيز" وذات يوم اقتـــرح عليه أحمد أن يغني له ويسمعه صوتاً لم يسمعه منذ خروجه من العراق، فكانت إحـــدى هذه الأغاني ما ذكرها البلوي:

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم[2].

وكان أحمد في بعض الأحيان يقبل على الشراب دون علم حرمه بذلك ودليل ذلك ما نقله حسن أحمد عن ابن سعيد وهو أنه ذات يوم دخلت أعرابية تسمي عقبـــة علـــى مجلس أحمد وكان مع خواصه يشرب فأمر لها بكأس، وقام بإدخالها على نساء قصـــره وقال لها لا تُعلمي أحداً من حرمي بشربي جرعة نبيذ[3].

كما قام خمارويه بإعطاء مُغني له يدعى المَعْزِفَانِي مائة ألف دينار وذلك مقابـــل كلمة أبدلها بعد أن غني له ذات ليله بينما كان خمارويه يتنزه في مرج عذرا بدمشـــق فقال:

قَد قُلتَ لمَا هَاجَ قَلبِي الذكري وأعرضت وَسَط السَمَاءِ الشعري
كَأنها ياقوتةُ في مـــــــرزي ما أطيب الليل بسر مـــــن رأي

فجعلها المعزفاني: ما أطيب الليل بمرج عذار[4].

(*) الزلة: ما يُحمل من مائدة الصديق أو القريب = جبران مسعود: المرجع الســـابق، ص779. والزَّلـــةُ: العرُسُ والوليمة: يُقال اتخذ فلان زلةُ، صنيعاً للناس = إبراهيم مصطفى: المعجم الوسيط، 400/1.

(1) البلوي: المصدر السابق، ص 351.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص 348. كذلك علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوســـطى، ص 511، حسن أحمد محمود: حضارة مصر في العصر الطولوني، ص 183.

(3) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 183.

(4) ابن عساكر: المصدر السابق، 176/5.

عرفت في الدولة آلات موسيقية وأشهرها العود والدف والصـاجات النحاسـية، وكانت الدنانير الذهبية تنثر على المغنيات، وقد بلغ ثمن الجارية التي تجيد الغناء ثلاثة آلف دينار، وهذا ما قام به خمارويه في بلاطه عندما انغمـس فـي التـرف واللهـو والجواري، كذلك جعل خمارويه الموسيقيين يحيطون به عند جلوسه مع حريمه علـى المائدة، ينشدون الأغاني الدينية البهيجة، واتخذ الرجال ذوي الأصوات الشجية يرتلـون القرآن ويؤذنون الفجر، أما أبو العساكر جيش وأبو موسى هارون فقد انغمسا في الترف والملذات، وانصرفا إلى مجالس السمر والغناء[1].

نتيجة لهذا فقد دب الانحلال والفساد في هذه الدولة خاصة بعد وفاة أحمد وانغماس أبنائه بمجالس الغناء واللهو... مما جعل الخليفة العباسي يبسط يده على البلاد من جديد.

ثالثاً: الحياة الفكرية:

1- العلوم الدينية:

تعددت العلوم الدينية في القرن الثالث الهجري، وخاصة في مصر منـذ الفـتح الإسلامي حتى نهاية الولاة العباسيين، وكان لكل علم من العلوم مظهر قوي في مصر، أيضاً في بلاد الشام التي كانت في وحدة مع مصر[2]، حيث واكب الطولونيـون كـل مراحل تطور هذه العلوم والثقافة العربية، كما قاموا أيضاً بتشـجيع الحركـة العلميـة والأخذ بالنهوض بها[3]، ومن أشهر هذه العلوم:

1- **علوم القرآن والحديث**[*]: كان أحمد بن طولون من الذين اهتموا بحفـظ القـرآن الكريم، وكان يسأل عمن يحفظه جيداً، وجعل جامعـه ملتقـى الفقهـاء والعلمـاء

---

(1) علي إبراهيم حسين: المرجع السابق، ص 511. كذلك فؤاد فرج: القاهرة، ص 363، سيدة كاشف وأحمد حسن محمود: المرجع السابق، ص 97. أمينة بيطار، المرجع السابق، ص 357.

(2) محمد كامل حسين: الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطميـة، مكتبـة النهضة المصرية، (القاهرة، 1959)، ص 32.

(3) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 223.

(*) لعلم الحديث قسمان رئيسيان: أحدهما علم الحديث رواية ويقوم على النقل المحرر الدقيق لكل ما أضيف إلي النبي (ص) من قول أو فعل أو تقرير، وعلم حديث دراية مجموعة من المباحث والمسائل يعرف بها حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد = النعمان القاضي: الحديث الشـريف راويـة ودرايـة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، (القاهرة، 1975)، ص 77.

والمحدثين، وجعل فيه الربيع بن سليمان المـــرادي (174- 270هـ/ 790- 883م) يجلس ليقوم برواية الحديث[1]، والذي كان مـــن أشـــهر المحـــدثين فـــي العصـــر الطولوني، تميز بحفظ مذهب الشافعي وروايته، وذلك لأنه كان تلميـــذاً لـــه ومـــن المقربين لديه حتى كان الشافعي يقول: "الربيع روايتي"[2] عاش الربيع في الدولـــة الطولونية قرابة ستة عشر عاماً، ويعد أول من أملى الحديث في جامع ابن طولون، فقام أحمد بمنحه ألف دينار عند إلقائه أول درس في الجامع[3]، هذا وقد كان علـــم الحديث علماً رائجاً في مصر، وذلك أن المحدثين كانوا يفدون على مصر من كـــل الأقطار المختلفة، وظلت مصر مقصداً لكل الطلاب كي يبتلقوا هذا العلم فيمكثـــون في مصر مدة يتزودون فيها بحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الـــذي رُوي عن صحابته عندما تم الفتح الإسلامي، ويقومون بكتابة ما يمكنهم كتابته[4]، وصار في مصر عدد كبير من الثقات المحدثين الذين أُسندت إليهم الأحاديث، كالبخـــاري والنسائي والنيسابوري، وابن ماجه القزويني وابن داوود، والترمذي. أيضاً لم تخلو بلاد الشام من العلماء ومن الذين قصدوها طلباً لهذا العلم، محمد بن إبراهيم مـــولى ثقيف حيث استقر في بيت المقدس[*] وحّدث بها، كذلك محمد بن يعقوب المعروف بالفرخي (271 هـ/884م) الذي كان مشهوراً بالفقه ويعظ في جامع الرملـــة وقـــام بإنفاق أغلب ماله في طلب العلم والإحسان إلى الفقراء وابن ماجه القزويني الـــذي جاء إلى الشام طالباً للحديث وكان من أشهر مصنفاته "كتاب السنن"، - وقـــد زار

---

(1) المقريزي: الخطط، 266/2. كذلك أحمد أمين: ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، ط5، (بيروت،1969) 161/1، شحاته عيسى: المرجع السابق، ص 48.

(2) عماد الدين ابن كثير: طبقات الشافعية، تحقيق عبدالحفيظ منصـــور، دار المـــدار الإســـلامي (بيـــروت، 2004) 142/1.

(3) المقريزي: الخطط، 266/2. كذلك جلال الدين عبدالرحمن السيوطي: طبقات الحُفاظ، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة (د.م، 1973) ص252، أحمد أمين: ظهر الإسلام، 161/1، شحاته عيسى: المرجـــع السابق، ص 48.

(4) محمود مصطفى: الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي، قدم لهُ شـــوقي ضيف، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر (القاهرة، 1967) ص152.

(*) هي مدينة الحرم القدسي وثالث الحرمين الشريفين، وكانت تدعى إيليا, وهي المدينة التي بناها الرومـــان بعد هدم أورشليم = عبدالسلام الترمانيني: أحداث التاريخ الإســـلامي بترتيـــب الســـنين، (د.م، 1988م) 446/1.

العديد من علماء الأندلس الشام، نذكر منهم القاضي عبدالله محمد بن أحمد مولى عبدالرحمن الناصر الأندلسي[1]، وبذلك استقطبت مصر والشام أعداداً هائلة من العلماء.

2- **علوم الفقه**[*]: انتشر في مصر العديد من المذاهب حيث كانت مصر في البداية لا تعرف غير مذهب الإمام مالك[**]، وكان أول كتاب دّون فيه الفقه "موطأ الإمام مالك بن أنس" إمام الحجازين. وتعد أول كتاب تجمع فيه الأحاديث النبوية الشريفة وهو مرتب على أبواب الفقه، مثل العبادات، وفقه المعاملات... وألفت بعد ذلك كتب كثيرة على منواله كشروح ومختصرات ونحوها، وقيل أنه كتاب الموطأ جمعهُ من مائة ألف حديث وألفه في أربعين سنة وعرضهُ على سبعين فقيهاً مدنياً توفي الإمام مالك سنة (179هـ/75م)[2]، فقد أخذ الفقهاء المالكية تشريعهم من القرآن الكريم والحديث الشريف، ومما جعل هذا المذهب ينتشر في مصر، أن أهلها يفضلون علماء أهل المدينة، ومن بينهم الإمام مالك أكثر من علماء الأقطار الإسلامية الأخرى[3].

ومن أشهر فقهاء المالكية في هذا العصر، محمد بن عبدالله بن عبدالحكم (268 هـ/881م)، الذي كان محدث أهل مصر، وانتهت إليه رياسة المالكية فيها ويعد أفقه أهل زمانه وله مصنفات كثيرة وتتلمذ عليه كثير من أهل المغرب والأندلس، وعرف عنه "بصاحب الشافعي لأنه أسند عنه،... وامتحن بعد أن حُمِل إلى بغداد فثبت

---

(1) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 372. كذلك محمد كامل حسين: المرجع السابق، ص 37.

(*) هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبطة من الأدلة التفصيلية = عبدالحميد العبادي ومحمد مصطفى زيادة وآخر: الدولة الإسلامية، ص 66،65.

والفقه لغةً الفهم واصطلاحاً معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب، وهي متلقاة من الكتاب والسنة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه = عمر رضا كحالة: علوم الدين الإسلامي، مطبعة الحجاز (دمشق، 1974) ص107.

(**) هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، نسبة إلى ذي أصبح من ملوك اليمن، رأس المتقين، وكبير المتثبتين = محمد علي قطب: عُلوم الحديث، دار الإرشاد (بيروت، 1967) ص113.

(2) السباعي بيومي: تاريخ الأدب العربي، الجزء الثالث في العصر العباسي بالمشرق، مكتبة الانجلو المصرية، (القاهرة، 1953م)، ص 242. كذلك محمد علي قطب: المرجع السابق، ص114.

(3) محمد كامل حسين: المرجع السابق، ص 39، 40.

على السنة"[1]. وروح بن الفرج أبو الزنباع الزّبيرّي[*] الذي توفي سنة (282هـ/895م)، وأحمد بن الحارث بن مسكين (311هـ /923م)، ومحمد بن أصبغ بن الفرج، (275هـ/888م) والذي كان فقيها مفتياً، بمصر، أيضاً من الفقهاء المالكية الذين نبغوا في هذا العصر ابن المواز أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الإسكندراني (309هـ/921م) الذي انتهت إليه الرياسة في مذهب مالك في مصر وغيرهم من الفقهاء[2].

كما عُرف أيضاً مذهب الإمام الشافعي[**]، الذي نافس مذهب الإمام مالك وأخذ ينتشر انتشاراً واسعاً في مصر، وكان لظهور هذا المذهب الأثر الكبير في الحياة العلمية في مصر، كما أن أحمد بن طولون قام بمساعدة الفقهاء الشافعية، الذين كثروا وبرز العديد منهم، وكان أشهرهم الربيع بن سليمان وأبو علي كنيز[***]، وأبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني[****] (264هـ/877م)، الذي كان يُعتبر إمام الشافعيين وأعرفهم بطرق الشافعية وفتاويها وله العديد من التصانيف منها: "الجامع الكبير" و"الجامع الصغير"، و"مختصر المختصر" و"المسائل المعتبرة" وغيرها من الكتب، قال فيه الشافعي لو ناظر المزني الشيطان لغلبه[3].

وكان أول شافعي يتولى القضاء عن أحمد بن طولون هو أبو زرعه محمد بن عثمان بن إبراهيم الدمشقي ونقل هذا المذهب إلى مصر عن طريق القضاة العراقيين

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 44/3. كذلك مصطفي طه: المرجع السابق، ص 176.

(*) كان عالم فقيه على مذهب مالك من أهل مصر وكان من أوثق الناس في زمانة ورفعه الله بالعلم = السيوطي: حسن المحاضرة، 374/1.

(2) السيوطي: المصدر السابق، 374/1. كذلك مصطفى طه: المرجع السابق، ص 177.

(**) هو أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس بن عبد مناف جد جد النبي (ﷺ) ولد بغزة سنة (150هـ/767م) = عبدالغني الدقر: الإمام الشافعي فقيه السُنة الأكبر 150-204هـ، دار القلم (بيروت، 1972) ص25، 43.

(***) كان خادم الخليفة المنتصر بن المتوكل، حبسه أحمد بن طولون سبع سنين عندما سعوا به إليه وقالوا له: هذا جاسوس، ولما مات ابن طولون ذهب إلى الإسكندرية وأقام بها سبع سنين وأعاد كل صلاة صلاها في الحبس ثم الشام، وأقام يُقرئ بجامع دمشق = السيوطي: المصدر السابق، 338/1.

(****) المزني: هو أبو إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم المزنى من مزينة قبيلة من قبائل اليمن أخذ عن الشافعي وكان ورعاً فقيهاً على مذهب الشافعي = ابن النديم: الفهرست، مكتبة خياط (بيروت، د.ت) ص212.

(3) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 39/3. كذلك محمد كامل حسين: المرجع السابق، ص 44، مصطفي طه: المرجع السابق، ص 107، عبدالغني الدقر: المرجع السابق، ص151.

الذين تولوا القضاة في مصر[1].

كما برز من الفقهاء الشافعين قحزم بن عبدالله الأسمواني الذي يكني بأبي حنيفة، يذكر السيوطي "أن أصله قبطياً، ويعد من أجلة أصحاب الشافعي الآخذين عنه، كان مقيماً في أسوان يفتي بها على مذهبه ومات بها سنة (271هـ/884م)"[2]. كذلك أبو القاسم بشر بن منصور البغدادي[*]، (302هـ/914م) الذي رحل إلى مصر وتفقه على هذا المذهب "وكان مُتضلعاً من الفقه ديناً"[3].

ومع هذه المذاهب ظهر مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، الذي برز فيه العديد من رجاله وفقهائه، ومن أشهرهم في العصر الطولوني، القاضي بكار بن قتيبة، الذي تولى قضاء مصر سنة (246هـ/ 860م) وتمتع بكار باتساع العلم والمناظرة، وحدَّث في مصر بهذا المذهب، وحكم به بين الناس، كذلك أبو جعفر الطحاوي[**]، الذي كان كاتباً لبكار وسمع منه الحديث ومن غيره والذي تفقه على المذهب الشافعي، ثم تركه وصار إمام المصريين في مذهب الحنفية، توفي أبو جعفر في القاهرة سنة (321هـ/933م)[4]، بعد أن صنّف العديد من الكتب المفيدة منها كتاب "المختصر في الفقه" و"معاني القرآن" أو "معاني الآثار والشروط"، وكتاب "مشكل الآثار" الذي يحتوي على أبواب لبيان ما رُوى عن النبي (r) عن الحق والسموات وعن بيان مشكل ما رُوى في الأكل والاستئذان وعن الساعة، وكتاب "الوصايا" وكتاب "المحاضر والسجلات" وكتاب "الفرائض" وكانت له مؤلفات في التاريخ والنوادر الفقهية، عاصر الطحاوي الدولة الطولونية وترك مصر في

---

(1) ابن كثير: طبقات الشافعية، 156/1. كذلك السيوطي: المصدر السابق، 338/1. محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامي (عصر الولاة)، دار الفكر العربي، (القاهرة، د.ت)، ص 59.

(2) السيوطي: المصدر السابق، 337/1. كذلك مصطفي طه: المرجع السابق، ص107.

)*(يعرف بغلام عرق= السيوطي" المصدر السابق، 338/1.

(3) السيوطي: المصدر السابق، 338/1. كذلك محمود محمد الحويري: مصر في العصور الوسطى من العصر المسيحي حتى الفتح العثماني، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ط2 (القاهرة، 2002)، ص113.

) **(هو أحمد بن محمد بن سلامة بن عبدالملك بن سلمه بن سليم بن سليمان الازدي الحجري أبو الطحاوي، ولد سنة (238هـ / 852م) في قرية طحا إحدى قرى صعيد مصر تفقه على مذهب الشافعي، تم تحول إلى المذهب الحنفي ورحل إلى الشام سنة (268هـ /881م) فاتصل بأحمد بن طولون فكان من خاصته = أبو جعفر الطحاوي: معين الأمة على معرفة الوفاق والخلاف بين الأئمة، تحقيق وتعليق حمدي الشبغ، دار اليقين (المنصورة، 2007)، ص 13.

(4) محمد كامل: أدب مصر الإسلامية، ص 61، 62، 63.

حركة حنفية تساير حركة الربيع الشافعية[1]، ومن الفقهاء الذين اشتهروا في هذا العصر أيضاً أبو بكر بن الحداد[*] الذي كان أكبر من مثل الثقافة الدينية في مصر، فقد كان يُلقب بفقيه مصر وفصيحها وعابدها توفي سنة (344هـ/955م)، أما سيبويه المصري، فقد كان من أشهر الفقهاء علماً، كان يعلم كثيراً من معاني القرآن، وقراءاته وغريبه وإعرابه، عالماً بالحديث والنحو وغرائبهما وهذا ما جعله يلقب بسيبويه[2].

كان هؤلاء العلماء النابغون في علم الفقه والحديث وغيره يرجع أصلهم إما من العرب الذين قطنوا مصر قديماً أو من القبائل العربية الفاتحة، أو من الأقباط ثم أسلموا، وبهذا جمعت مصر العديد من الفقهاء على اختلاف مواطنهم مما جعل لهذا العلم الأثر الكبير لإنشاء الثقافة الدينية خاصة أن عدد المدارس في ذلك العصر كان قليلاً وكانت معظم الدروس تلقي في المساجد، أو في بيوت الأمراء والوزراء والعلماء، وكانت الكتب تباع في سوق الورّاقين[3].

2- العلوم الأدبية:

1- الأدب: اهتم الخلفاء والأمراء ورجال الدولة الإسلامية على مر العصور بالأدب وعلومه، ويَلقى الشعراء والكتاب اهتماماً بالغاً، حيث كان هؤلاء يتذوقون الأدب الرفيع، ويبدون إعجابهم بالأخبار الطريفة، والروايات المستلحمة، وعندما تولى أحمد بن طولون الحكم لم يهمل هذا العلم فقام كعادته بتشجيعه مثله مثل العلوم الأخرى التي ارتفع شأنها في عصره[4].

---

(1) أبي محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان: سر الفصاحة، دار الكتب العلمية (بيروت، 1982) ص163. كذلك ابن النديم: الفهرست، ص207، سامح كريم: أعلام في تاريخ الإسلام في مصر أفكار للتحديد ومواقف للحياة، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، 1996) ص192. شحاتة عيسى: القاهرة، ص 48، أحمد أمين: المرجع السابق، ص162، محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص 63.

(*) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد الكناني المصري، كان الملوك والرعايا تكرمهُ وتُعظمهُ وتقصدهُ في الفتاوى والحوادث = عباس القمي: الكنى والألقاب، مؤسسة الوفاء، ط2 (بيروت، 1983) ص263.

(2) أبو بكر محمد بن محمد الوليد الفهري الطرطوشي المالكي: سراج الملوك، حققه وعلق عليه نعمان صالح الصالح، دار العاذرية، (الرياض، 2005)، ص 120. كذلك أحمد أمين: المرجع السابق، ص 163.

(3) أحمد أمين: المرجع السابق، ص 163، 164.

(4) عبدالرزاق حميدة: الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى الفاطميين، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1951) ص230.

وكان من أبرز أئمة الأدباء والكتاب في العصر الطولوني أبو عبدالله الواسطي، الذي وفد من العراق، ويعقوب بن إسحاق وكذلك إسحاق بن نصير(*) وأحمد بن أيمن، وكان من أبرز هؤلاء الكتاب ابن عبد كان، الذي رأس ديوان الإنشاء(1)، وهو يُعد من أشهر الكتاب الطولونيين وذلك بما امتاز به من بلاغة وحسن الكتابة الأمر الذي جعل أهل بغداد يحسدونه عليه، وخطاطهُ طبطب الذي برز في ذلك الوقت وكان محرراً، ويقولون كان في مصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما(2). وقد طلب منه أحمد، كتابة رسالة، إلى العباس بن أحمد بن طولون عند خروجه على أبيه، فكانت الرسالة تحتوى على التأنيب والتهديد لكي يرجع عما قام به، وتضمنت ما يلي: "من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه العاصي لربه، الملم بذنبه، المفسد لكسبه، العادي لطوره، الجاهل لقدره، الناكص على عقبة المركوس(**)، في فتنه المنجوس، من حظ دنياه وأخريه..."(3).

فكانت هذه الرسالة تدل على بلاغة صاحبها وعلى دقة الأسلوب وروعته وحسن كتابته، ومن الكتاب أيضاً الذين كان لهم دور وشأن في هذه الدولة جعفر بن جذار(***)، الذي حرَّض العباس الخروج على أبيه وطلب الحكم لنفسه، وما أن فشلت تلك الثورة حتى أُحضر ابن جدار وضُرب ثلاثمائة سوط، وأُلقي في الدكّه بعد أن قطعت يداه

(*) كاتب الرسائل بديوان مصر بعد محمد بن عبدالله بن عبد كان = ياقوت الحموي: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، اعتني بتصحيحه د.س مرجليوت، الطبعة الهندسية بالموسكي، ط2، (القاهرة، 1923م) 237/1.

(1) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الأدب ومطبعتها بالجماميز، (د.م، د. ت) 69/3.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 95/1. كذلك يوسف عاد: الكتابة، مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة التاسعة، العدد التاسعة والتسعين، تصدر عن دار النشر العربية (بيروت، 1987م) ص 22، إبراهيم جمعة: دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة مع دراسة مقارنة لهذه الكتابات في بقاع أخرى من العالم الإسلامي، دار الفكر العربي (القاهرة، د.ت) ص156.

(**) المركوس من الركس، وهو قلب أول الشيء على أخره. مصطفي الشكعة: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب النثر، الدار المصرية اللبنانية، ط3، (القاهرة، 1993)، ص 402.

(3) البلوي: المصدر السابق، ص 260. كذلك مصطفي الشكعة: المرجع السابق، ص 402.

(***) هو جعفر بن محمد بن أحمد بن جذار، لم يكن مثلةٌ في وقته كثير الشعر، حسن البلاغة، عالم، له ديوان شعر، ومكاتبات كثيرة حسنة = عبد عون الروضان: موسوعة شعراء العصر العباسي من (132هـ/750م) إلى (350 هـ/ 165م) دار أسامة للنشر والتوزيع (عمان، 2001) 100/1.

ورجلاه وذلك في سنة (268هـ/881م)[1]، أما أحمد بن أبي يعقوب يوسف بن إبـــراهيم المعروف بابن الداية، فقد كان من أشهر الكتاب الطولونيين والمؤرخين في هذا العصر، كان من بين الكتاب الفصحاء، ومن الذين اتصل بأحمـــد ابـــن طولـــون واســـتطاع أن يستغـــل الشرف والشهرة التي تمتع بها والده في هذا العصر حيث كان أبوه في خدمـــه إبراهيـــم بن المهدي فتولي كتابه إقطاعاته وعند وفاة المهدي خرج إلى مصر وعـــاش بها، وأحبوه أهل مصر إلا أن ابن طولون قام بسجنه فتوسط له محبوه في مصر فأُفرِجَ عَنهُ[2].

وقام أحمد بن الداية بتأليف العديد من الكتب منها: ســـيرة أحمـــد بـــن طولـــون، والمكافأة وغيرها، كما برع في علوم عديدة منها الطب والهندسة والفلك[3].

كما اتخذ أحمد بن طولون جعفر بن عبدالغفار المصري كاتباً له رغم عدم كفائته وقد أشار أحمد بن خاقان على أحمد بن طولون أن يعزله إلا أن ابن طولون رفض ذلك مُعللاً قوله بأنه مصري وهذا دليل على أن أحمد بن طولون أراد أن يكون الذي يتـــولى هذه المناصب من أهل البلد، أما إذا اتخذ كاتباً من غير بلده فقد لا يســـتطيع أن يخـــدم بحماس وإخلاص وغالباً ما يرغب في العودة إلى بلده[4].

2- **الشعر**: برز في هذا الدولة العديد من الشعراء وكان مـــن أنـــواع شـــعرهم مـــدح وهجاء، ونجد أحمد ابن طولون أيضاً في هذا المجال يقوم بتشجيع الشعراء، الذين كان من أبرزهم الجمل الأكبر[*]، والذي مدح أحمد بن طولون بقصيدة يقول فيها:

له يدكم خلدّت من يـــــد   سحابة عمت بأنوائهـــــــا
وهو لدى الهيجـــــاء إذا   ما ثقلت قام بأعبائهـــــــا
أنظر إلى مصر بسلطانه   ترى الهدي فاض بأرجائها[5].

(1) محمد كامل حسين: الحياة الفكرية والأدبية بمصر، ص 200، 201، 203.

(2) أحمد بن الداية: الفلسفة السياسية عند العرب، حققه وقدم له عمر المـــالكي، الشـــركة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيع، ط2،(الجزائر، 1980)، ص 26. كذلك محمود مصطفى: المرجع السابق، ص 1337.

(3) سيدة كاشف وأحمد حسن محمود: المرجع السابق، ص 121.

(4) محمود الحويري: المرجع السابق، ص 115. كذلك سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص 191، 192.

(*) هو الحسن بن عبدالسلام من شعراء الفسطاط في هذه الدولة، وتوفي سنة (259هـ / 872م) كان يصحب الشافعي رضي الله عنه = ابن تغري: النجوم الزاهرة، 30/3. كذلك محمود مصطفي: الأدب العربي في مصر، المرجع السابق، ص129.

(5) محمود مصطفى: المرجع السابق، ص 129.

ومن الشعراء أيضاً الذين مدحوا أحمد بن طولون قعدان بن عمرو الـذي أخـذ يدعو الناس ويحثهم على الخروج لنصرة الخليفة أحمد ضد الموفق، وتضـمنت أبياتـه الآتي:

طَالَ الهدى بِابن طولوَن الأمير كما يزهو به الدين عن دينٍ وإسـلامِ
قَادَ الجيوش من الفُسْطَاط يقدمهـا منه على الهول ماضٍ غير محُجامِ
في جحفل للمنايا في مَقَانِبِـه مكامن بين رايات وإعـلامِ[1]

وظهر أيضاً منصف بن خليفة الهذلي، فكان من الشعراء الذين مدحوا ابن طولـون فقال:

يا عُزّة الدنيـا الـذي أفعالُـهُ غُرَرُ بها كل الوري تتعـلقُ
أنت الأميرُ على الشاَم وثَغْرِها والرَّقتَّين وما حواه المشـرقُ
وإليك مصرَ وبَرقةُ وحجَازهُـا كلَّ إلي،ك ف،ؤادُه متشـوقُ
هتك الخلافة صاعُدُ وخليلـه إسحاقُ لعْباً والُحسودُ الأخرقٌ
أسيافُنا بيضُ المنونُ فليتهـا بِنَجيع[*] من خَذَل الإمام تُخلَّق[**]
تُمسى وتُصبْح ضارباً من دونه بُمِهَنّدٍ منـهُ الحتـوفُ تَفَـرقُ[2].

أما من شعراء الهجاء فقد كان الشاعر محمد بن داوود الذي قلل من قيمة أحمد بن طولون وما قام به من منشآت حيث قال عند بناء المارستان.

ألا أيها الأغفال أيها تأملوا وهل يوقظ الأذهانَ غير التأمل
ألم تعلموا أن ابن طولَون نقمةٌ تُسيَّر من سَفل إليكم ومن عَـلِ
لولا جنايات الذنوب لما علت عليكم بعد العِلج السحيف المَجَّهِل
فيا ليت مـارستانه نيط باسته وما فيه من علج عتل مقلـل[3].

فكانت هذه الأبيات تدل على السخرية، كما ذم القائمين على هذا البناء[4].

وعند بناء أحمد المرَكب الحربي اتخذها أيضاً وسيلة لهجائه فقال:

---

(1) الكندي: ولاة مصر، ص 252. كذلك عبدالرزاق حميدة: الأدب العربي في مصر، ص 234.

)*(النجيع: الدم المائل إلى السواد = الكندي: ولاة مصر، ص 253.

) **(تخلق: تعطر أي تطيب بالخلوق وهو لون من الطيب = الكندي: الصدر السابق، ص 253.

(2) محمد كامل حسين: الحياة الفكرية والأدبية، ص 117، 118.

(3) مصطفي طه: المرجع السابق، ص 181.

(4) عبدالرزاق حميدة: المرجع السابق، ص 232.

لما ثوى ابن بَغا بالرقَتين مَلاَ   ساقيه زَرْقا[*] إلى الكْعبَين والعَقِــب
بني الجزيَرة حصناً يُستجَن به   بالعسف والضرب والصناُع في تعب
له مراكب فوق النيل راكدُةُ   فما سوى القار للُنظار والخشـــــبِ
يُرىَ عليها لباس الذل قد بنيت   بالشط ممنوعةً من عزَّة الطلــــب
فما بناها لغزو الروم محتسباً   لكن بناها غداة الرَّوعِ للهـــــرب

ولم يتوقف هذا الشاعر في ذمهِ وهجائه لأحمد حتى بعد وفاته فقال:

مضى غير مفقود وما كان عمره   سوى نقمة للخلق شنعاء صيلـــم
لقد زيد في اليحموم بالرحبس لعنة   ولم يسق بالمرجوس ترب المقطم
ولم تبكه الأرضون لكن تبسمــت   سروراً ولولا موته لم تبســـم
بشره إبليس عند قدومـــــه   عليه بأحمر بقعة في جهنـــم[1].

وكان من الشعراء الذين زاروا مصر في عهد أحمد بن طولون وابنـه خمارويـه البحتري[**] الذي قاما بمدحهما مدحاً عظيماً حيث مدح أحمد بن طولون بقوله:

وَعِندَ أَبي العَبَاس لَوْ كَانَ دانيـــاً   يُرَجيّ الفِنَاءُ السّهلُ والكنفُ الرّحُب
سُيُوفٌ لهَا في كل دارٍ عِـــدًى ردًي   وَخَيلٌ لهَا في كل دارِ عدِىّ نَهـب
عَلَتْ فوقَ بَغْرَاسٍ[***] فضَاقتْ بما جنتْ   صُدُورُ رِجالٍ حينَ ضَاقَ بها الدرّبْ[2].

وقد مدح البحتري مرة أخرى أحمد بن طولون عند انتصاره على سيما الطويـل والي إنطاكية وقتله سنة (265هـ/878م) فيقول:

وما شَكَّ قومٌ أوْ قَدُوا نارَ فِتنـــةٍ   وسِرْتَ إليهم أنَّ نارَهُمُ تَخبْــوُ

) *(الزرق: براز الطائر وكني بذلك عن خوفه = الكندي: المصدر السابق، ص 245.

(1) محمد كامل حسين: الحياة الفكرية الأدبية بمصر، ص 119.

) **(هو الوليد بن عبدالطائي وكنيته أبو عبادة ويكنى أيضاً أبو الحسن، واتخذ هذه الكنية لما جاء العـراق لأنها أقرب إلى الحاضرة من كنيته الأولى ولقُب بالبُحتري نسبة إلى بُحتر أحد أجداده.= نـديم عـدى: تاريخ الأدب العربي، مكتبة ربيع ط2 (حلب، 1954) 87/1. كذلك بطرس السبتاني: أدباء العرب فـي الاعصر العباسية حياتهم، أثارهم ثقافتهم، دار المكشوف، ط6 (بيروت، 1968) ص 212.

) ***(بغراس: مدينة بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ، على يمين القاصد من حلب إلى أنطاكية في الـبلاد المطلة على نواحي طرسوس = الكندي: ولاة مصر، ص 255.

(2) الكندي: المصدر السابق، ص 255.

كأنْ لم يَرَوْا "سِيما الطويلَ" وجَمعْهُ   وما فَفَلتْ فيه وفي جَمعِهِ الحَربُ[1].

ونال خمارويه حظه من مديح البحتري الذي قال فيه:

وزائرٍ زار من أعتقتـــــهُ   يَميلُ وَزْناً بأُنسِهِ ذُغُـــرهُ
كأنهُ جاءَ مُنجراً عَـــــدةً   وبتَ في الراقبيَن انتطِرُهْ
لم أنسهُ مؤشُكاً على عَجَلٍ   مُدامجاً للحديث يختصِرهُ[2].

وفي ثنية العقاب سنة (274هـ/ 887م) قال الشاعر القاسم بن يحيي المريمي[*]:

فُتُوحُ الأمِيرِ نُجُومُ تلوحُ   فليست تُقَاس إِليَهْا فُتُوحُ
تَسِيرُ لَها في جميع البلادِ   رِكَائِبُ تَغْدُو بِهَا وتَرُوحُ
إِذا حَادَ عَنْ أَمِرِه حَائدُ   أَتَاحَ لَهُ الحَتْفَ منه مُتِيحُ[3].

وكان لظهور الشعراء في هذه الدولة الأثر الكبير في ازدهار هذا الفـــن، الأمـــر الذي يتبين منه اهتمام الطولونيين بهذا الفرع الأدبي المهم.

3- النحو[**]: ظهر في هذا العصر، علماء اشتغلوا بالنحو، وكان مـــن أشهـــر هؤلاء العلماء، الوليد بن محمد التميمي النحوي المعروف بولاَّد[***] ومحمـــد بن عبدالله بـــن مسلم (330هـ/941م) الذي علم أبناء خمارويه النحو وكان إمـــام الجامع العتيـــق فـــي

---

(1) الوليد بن عبدالطائي البحتري: ديوان البحتري، عني بتحقيقه وشرحه والتعليـــق عليـــه حســـن كامـــل الصيرفي، دار المعارف (القاهرة، د.ت) 125/2.

(2) علي بن الحسين الشريف المرتضي: طيف الخيال، تحقيق حسن كامل الصـــيرفي، مراجعـــه إبـــراهيم الابياري، دار أحياء الكتب العربية، (د.م، 1962) ص 22.

(*) المريمي: من شعراء مصر المشهورين، كان مختصاً بخدمة خمارويـــه = عبـــدالرزاق حميـــدة: الأدب العربي في مصر، ص240.

(3) عبدالرزاق حميدة: الأدب العربي في مصر، ص 241.

(**) علم النحو: هو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستنبطة مـــن استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها ليحترز بها عن الخطأ في التركيب = أبو يعقـــوب بـــن علـــي السكاكي: مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي (القاهرة، 1937) ص37.

(***)كان نحوياً مجوداً أصله من البصرة ونشأة بمصر، ولم يكن بمصر شيء من كتب النحو واللغة قبله = السيوطي: بُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبـــراهيم، مطبعـــة عيســـى البابي الحلبي (القاهرة، 1965) 318/2.

مصر، كذلك أبو جعفر النحاس(*) (338هـ/949م) الذي تعلم النحو في العراق وكانت له العديد من المؤلفات، منها "تفسير القرآن" و"الناسخ والمنسوخ" و"شرح أبيات سيبويه"، وكتاب "الكافي في النحو"، و"الأخفش الأصغر"(**) الذي ألف كتاب "التثنية والجمع" وكتاب "المهذب"، ومن النحويين أحمد بن جعفر الدينوري (289هـ/901م) الذي لهُ كتاب "المهذب في النحو"، وغيرهم من النحاة الذين عاصروا هذه الفترة من هذه الدولة[1].

4- **التاريخ**: نشطت الكتابة في التاريخ في بداية مطلع القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، حيث تمت الكتابة في جميع الفروع(*)، وظهر في العصر الطولوني العديد من المؤرخين والقصاص، وكان أشهرهم عبدالرحمن بن عبدالله ابن عبدالحكم الذي يُعد من أقدم المؤرخين وهو صاحب كتاب "فتوح مصر والأندلس والمغرب" وهو من الكتب القديمة التي تناولت أخبار الفتح العربي لمصر، وتوفي في سنة (257هـ/870م) بعد أن سار على نهجهِ العديد من المؤرخين ويُعد ابن الحكم أول مؤرخ لخطط مصر الإسلامية[2]، كذلك برز عمارة بن وثيمة بن موسى أبو رفاعة الفارسي صاحب كتاب " التاريخ على السنين" الذي توفي سنة (289هـ/901م)[3].

أيضاً كان أبو سعيد عبدالرحمن بن أحمد بن يونس (347هـ/958م) من المؤرخين الذين عاشوا في العهد الطولوني وحتى الاخشيدي، وكان يعنى بحوادث مصر ورجالها يؤرخها، وقد جمع لها تاريخين، كان أحدهما يختص بالمصريين منشأً

(*) أبو جعفر النحاس: أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي من أهل العلم بالفقه والنحو والقرآن، كان واسع العلم غزير الرواية = عبدالصاحب عمران الدجيلي: أعلام العرب في العلوم والفنون، مطبعة النعمان، ط2 (النجف، 1966) 167/1.

(**) هو أبو الحسن على سليمان كان عالماً روى عن المبرد وتعلب واليزيدي وأبي العيناء = محمود مصطفي: المرجع السابق، ص 154.

(1) السيوطي: بُغية الوعاة، 301/1. كذلك مصطفي طه: المرجع السابق، ص 170. أحمد أمين: المرجع السابق، ص 170.

(***) يقصد به بجميع الفروع التاريخ العام، "تاريخ التراجم"، تاريخ الأدب، تاريخ الأنساب، تاريخ الطبقات، السيرة النبوية".

(2) محمود مصطفي: المرجع السابق، ص 152، كذلك محمود الحويري: المرجع السابق، ص115.

(3) السيوطي: حسن المحاضرة، 452/1. كذلك سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص 234، مصطفي طه، المرجع السابق، ص 179.

وهو الأكبر والأخر فيمن ورد على مصر من الغرباء وهو الأصغر[1].

ومن المؤرخين الذين عاصروا بني طولون كان المؤرخ اليعقوبي، عاش في هذه الدولة أربع سنوات ووقف تاريخهُ عند سنة (259هـ/872م) وكان من الرحالة الذين يحبون الأسفار، ومن الواضح أنهُ كان عاملاً على خراج برقة عندما ثار العباس على أبيه أحمد بن طولون ولهُ العديد من المؤلفات منها كتاب "البلدان" الذي يبحث في أهم المدن في العالم الإسلامي، والذي تضمن معلومات قيمة عن البلدان التي زارها، وهو من الكتب المطبوعة، أيضاً كتاب "تاريخ اليعقوبي"، وهو من مجلدين، كما حرص اليعقوبي على تدوين تواريخ الأسر الحاكمة والمجتمعات التي تعرَّف عليها[2].

أما محمد بن يوسف الكندي، فيعد من أكبر مؤرخي مصر وهو أعلم الناس بتاريخها، وكان من أهم الكتب التي أرخها والتي تعد من مصادر التاريخ "الولاة والقضاة"[*] وكتاب "فتوح مصر والمغرب والأندلس"[3].

كما برز كذلك في هذه الدولة ابن دحية الحسن بن قاسم، كان إخبارياً، توفى في مصر سنة (327هـ/928م)، ومن أشهر القصاصين الذين زاروا مصر في الدولة الطولونية أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد الواعظ البغدادي عُرف بعد ذلك بالمصري عندما أقام في مصر وله العديد من المصنفات في الحديث والزهد، توفى سنة (338هـ/949م) هذا ويُعد أبو محمد عبدالله بن محمد المديني المعروف بالبلوي أشهر من أرخ في تاريخ مصر، كان عالماً وفقيهاً وواعظاً، ويُعد كتاب "سيرة أحمد بن طولون" من أهم المصادر لدراسة تاريخ مصر في هذه الفترة إلى النصف الثاني من

---

(1) السيوطي: المصدر السابق، 300/1. كذلك أحمد أمين: المرجع السابق، ص165.

(2) أحمد سومة: الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية، أشرفت على التنفيذ لجنة من نقابة المهندسين العراقية (د.م، 1974) ص69. كذلك سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص10. كذلك السيد عبدالعزيز سالم وسحر عبدالعزيز سالم: محاضرات في تاريخ الحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية، 2001) ص252.

(*) تحدث فيه عن تاريخ مصر منذ فتحها العرب حتى سنة (335هـ/946م) ورتبه حسب الولاة الذين تولوا مصر، أيضاً له كتاب "تاريخ القضاة" الذي يمتاز بجمع عدد كبير من أهم القضايا التي نظرها القضاة وأحكام القضاة فيها.

(3) شحاته عيسى: القاهرة، ص 48. كذلك محمد كامل حسين: الحياة الفكرية والأدبية بمصر، ص60، أحمد أمين: المرجع السابق، ص166.

القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، كما أن لديه مؤلفات أخرى منها كتاب "الأبواب" وكتاب "المعرفة" وكتاب "الدين وفرائضه"[1].

3- العلوم العقلية :

1- الطب[*]: يعد الطب من أقدم العلوم التي عرفها الإنسان، وازدهر بعد ذلك بسبب ازدهاره في العصور القديمة السابقة[2]، رغم أن مدرسة الإسكندرية[**] لم تبد اهتماماً لهذا العلم في البداية ونظروا إلى أن هذه العلوم وما يُدرس في هذه المدرسة لغير المسلمين، غير أنه سرعان ما أخذت هذه المدرسة بهذه العلوم، وأنشأت منهجها تعليماً لتدريب الأطباء، حيث نبغ الكثير من الأطباء بعد الفتح العربي لمصر، وكان لهذه المدرسة الأثر الحسن في نقل الثقافة اليونانية إلى العرب[3]. واشتهرت مصر في العصر الطولوني بتقدمها في هذا العلم وبعلمائها، كان منهم سعيد بن توفيل، كان نصرانياً في خدمة أحمد بن طولون الذي كان صادقاً في صناعته حذقاً فيها [4]. كذلك اشتهر طبيب نصراني آخر في هذا العصر من أطباء فسطاط مصر، وهو سعيد بن البطريق (328هـ/929م)، وكان على دراية بعلوم النصارى ومذاهبهم، وقد عُين بطريركاً على الإسكندرية ولهُ كتاب في الطب،

---

(1) السيوطي: حسن المحاضرة، 451/1. كذلك مصطفى محمود: الأدب العربي في مصر، ص153، محمود الحويري: المرجع السابق، ص116.

(*) الطب علم يتعرف منهُ أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصح ويزول عن الصحة حاصلة ويستردها زائلة وينقسم الطب إلى نظر وعمل، وهي فرع من فروع الطبيعيات = أبو علي الحسين بن علي بن سينا: القانون في الطب، دار صادر (بيروت، د.ت) 3/1. كذلك محمد رضا البغدادي: تاريخ العلوم وفلسفة التربية العلمية، دار الفكر العربي (القاهرة، 2003) ص49.

(2) علي حسين الشطشاط: تاريخ الجراحة في الطب العربي من القرن (3-7هـ/9-13م)، منشورات جامعة قاريونس، (بنغازي، 1999)، 33/1.

(**) كانت مدرسة الإسكندرية في بدء القرن الثالث الميلادي، وتعتبر الإسكندرية أساس الثقافة الإغريقية بعد تأسيس الإسكندر لها سنة 323 ق.م. وقد أضاف البطالسة إلى مكتبتها كثيراً من الكتب التي وجدوها في خزائن أثينا = ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، دار الثقافة العربية، ط3 (بيروت، 1975) ص419.

(3) علي حسين الشطشاط: الطبيب والمترجم والناقل ثابت بن قرة الحراني، منشورات جامعة قاريونس، (بنغازي، 1990)، ص 45، 47.

(4) موفق الدين أبي العباس أحمد بن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتعليق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت، 1965) 3/ 86. كذلك السيوطي: المصدر السابق، 443/1، حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 232.

كما ترجم كتاب "الحيوان" لأرسطو، وكتاب "السماء والعلم" أيضاً لأرسطو وكتاب "نظم الجوهر" وكتاب "الجدل بين المخالف والنصراني"[1].

كما اشتهر الحسن بن زيرك أيضاً في هذا العصر، وكان ممن اشترك في علاج ابن طولون، وكان هذا الطبيب " حاذقا " في صناعته مقدماً فيها[2]، وكان الطبيب إذا قابله أمر استعصى عليه، يجمع الأطباء للوصول إلى رأي سديد، وهذا ما حصل عندما اشتدت عله ابن طولون أمر بجمع أطباء البلد الموصوفين في التقدم في الصناعة والحذق.. وكانوا متوافرين[3].

وكان للأطباء في هذا العصر ملابسهم الخاصة، ولكل طبيب أعوان ومساعدون، كان اسمهم " الشاكرية"، مهمتهم دق العقاقير، وعجن الأدوية حسب ما أمرهم الأطباء، أو نفخ النار تحت الأدوية المطبوخة، كما كانت لديهم وسائل في الفحص والعلاج وتحديد نوع الأطعمة التي يتناولها المريض أثناء مرضه، كما اُستخدم علم النفس في العلاج، والذي قام به الحسن بن زيرك في علاجه لأحمد بن طولون، مما سهل على أحمد علته، وجعلهُ يأنس ويفرح، وشعر بالراحة في داره والطمأنينة. هذا وقد اشتهر علي المتطبب المعروف بالديدان في صناعة الطب وكان على معرفة بكتب أفلاطون ورموزهِ، ومع هذا، ظلت مصر تعني بالطب حتى بعد الطولونيين[4].

2- علم الفلك[*] **والتنجيم**[**]: ازدهر علم الفلك والتنجيم ازدهاراً كبيراً في مصر، خاصة في هذه الفترة، كما تأثر المسلمون، في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بالفلك اليوناني خاصة بعد ترجمة كتاب المجسطي، لبطليموس، كما أنشاء المسلمون مراصد لدراسة الفلك، ومن أهمها مرصد جند يسابور وذلك في أوائل القرن الثالث،

---

(1) ابن أصيبعة: المصدر السابق، ص541. كذلك أحمد أمين: المرجع السابق، ص 174، شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، دار المعارف، ط2 (القاهرة، 1990) ص151، 152.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص 321، سمير فراج: المرجع السابق، ص 197.

(3) البلوي: المصدر السابق، ص 322، 324، كذلك سيدة كاشف: المرجع السابق، ص 236.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص321. كذلك: سيد كاشف: أحمد بن طولون، ص235، 236.

) *(الفلك هو مجرى النجوم، وسمي فلكاً لاستدارته وكذلك في العربية هو ما استدار والفلك قطعة من الأرض مستديرة = أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري: كتاب الأنواء في مواسم العرب، صحح عن النسخ المحفوظة من مكتبة بودلين (أكسفورد، د.ت) ص124.

) **(هو علم دراسة الإجرام السماوية، تبدأ برصد مواقعها وحركاتها لتعيين الفترات الزمنية = محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة، ص 1311.

وتعددت بعد ذلك هذه المراصد، فقد كان المصريون، يقومون برصد النجوم لمعرفة عدد أيام السنة، وشهر رمضان، ولتحديد مواسم الأعياد، التي كان المصريون يحتفلون بها(1).

أما التنجيم(*) فقد كان فرعاً من فروع الفلسفة اليونانية، وكان أمراء مصر مثلما يحتاجون إلى الأطباء، فهم لا يستغنون عن المنجمين وكانت مدرسة الإسكندرية قبل الإسلام ممزوجة بالسحر والطلاسم والتنجيم، ولهذا فلا غرابة أن نجد هذا اللون في ألوان التفكير ينتشر في مصر، كما برز أيضاً قبل العصر الفاطمي(2).

3- علم الرياضيات(**): تعتبر العلوم الرياضية جزءاً مهماً من ناحية موقعها العام بالنسبة لبقية العلوم الأخرى، ولما لهذا العلم من أهمية واضحة وملموسة في فهم تلك العلوم، كما كان بعض المنجمين يرصدون النجوم لا لمعرفة الغيب ولا لمعرفة المستقبل، بل لمعرفة الأرصاد الفلكية، التي يُقصَد منها عمل التقاويم، وكانوا علماء في الرياضيات لا منجمين(3).

ومن أشهر العلماء الذين نبغوا في هذا المجال، أبو كامل شجاع بن أسلم بن محمد بن شجاع، وهو من الذين بحثوا في علم الرياضيات وفروعهِ، عاش أبو كامل في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وله العديد من المؤلفات منها كتاب "الخطأين" وكتاب "المخمس والمعشر" وكتاب "المساحة الهندسية" وكتاب "الجبر

---

(1) عبدالحميد العبادى وآخرون: المرجع السابق، ص 76.

(*) كان المنجمون فئة من موظفي الدولة، كما كان شأن الأطباء والكتاب ولهم الرواتب والأرزاق، وكان الخلفاء يستشيرونهم في كثير من أحوالهم الإدارية والسياسية، فإذا خطر لهم عمل هام خافوا عاقبته استشاروا المنجمين فينظرون في حال الكواكب والفلك ثم يشيرون بموافقة ذلك العمل أو التوقف عنه = حسين الحاج حسن: حضارة العرب في العصر العباسي، المؤسسة الجامعية للدراسات (بيروت، 1994) ص17.

(2) أحمد أمين: المرجع السابق، ص 174. كذلك محمد كامل حسين: الحياة الفكرية والأدبية في مصر، ص 64، 65.

(**) الرياضيات هو من العلوم الباحثة عن أمور يصح تجريدها عن المادة في الذهن فقط، فالتربيع أو التثليث أو التدوير والعدد وخواصه أمور ترجع إلى المادة من حيث وجودها فقط، ولكنها لا ترجع إليها في حدوها، وكانت تسمى بالعلوم الرياضية، أو بالعلم التعليمي = أحمد مصطفي الشهير بطاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق كامل كامل بكري وعبدالوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة (القاهرة، د.ت) 371/1، 372.

(3) خضير عباس محمد المنشراوي: تاريخ علم الرياضيات عند العرب، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1999) ص 71. كذلك محمد كامل حسين: المرجع السابق، ص 65.

والمقابلة" و"الوصايا بالجبر والمقابلة" وكتاب "طرائف الحساب"، وكان أغلب اهتمام أبو كامل منصباً على دراسة علم الجبر وخاصةً كتاب الخوارزمي[1]، كما اهتم أبو كامل بدراسة الأشكال الهندسية ويُعد أول من شرح المعادلة التي درجتها أعلى من الثانية بوضوحٍ تام[2].

وبهذا فقد كانت الحركة العلمية في الشام في هذا العصر صورة للحركة في مصر، ولكن بصورة أصغر، وذلك بسبب أن مصر كانت مركز الولاة، غير أن الشام تميزت عن مصر في مجال الشعر فكانت أرقى، وهذا لا يعني أن مصر لم تبد اهتماماً بهذا العلم وباقي العلوم الأخرى[3].

---

(1) القفطي: تاريخ الحكماء، ص211. كذلك خضير عباس: المرجع السابق، ص197، 380، 385.

(2) علي عبدالله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية، مؤسسة الرسالة، ط2 (بيروت، 1983) ص198، 199.

(3) عمر رضا كحالة: مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام، مطبعة الحجار، (دمشق، 1974م) ص 156.

الفصل الخامس

العلاقات الخارجية للدولة الطولونية

أولاً: العلاقات الخارجية:

1. مع الدولة العباسيـــة.
2. مع الدولة البيزنطية.
3. مع إقليم برقــــــة.
4. مع دولة الأغالبـــة.

ثانياً: أسباب سقوط الدولة:

1. انقسام البيت الطولوني.
2. ضعف الجيش وانحلاله.
3. يقظة الخلافة العباسيـــة.
4. ضياع بلاد الشـــــام.
5. ظهور القرامطـــــــة.

ثالثاً: غزو مصر وسقوط الدولة الطولونية:

أولاً: العلاقات الخارجية للدولة الطولونية:

1. مع الدولة العباسية:

لقد بسط أحمد بن طولون نفوذه على مصر منذ توليـــه الحكـــم، فقـــام بخطـــوات استقلالية واضحة، ونهج جديداً يختلف عن الولاة السابقين. وذلك لضمان بقائه في مصر وعدم عزله من قبل الخلافة، فسعى إلى الاعتراف به والياً عليها، فقام بتنظـــيم جـــيش قوي يعتمد عليه، كما استطاع التغلب على الصعوبات الداخلية، وقام بإصلاحات إدارية واقتصادية، كما استطاع إزاحة القوى المتحكمة في مصر، فسيطر علـــى الإســـكندرية وبرقة[1]، وما لبثـــت أهدافه وأطماعه تتجه نحـــو الشام، مما جعلتهُ فـــي صـــدام مـــع الخلافة العباسيـــة التي أرادت أن تستعيـــد سيطرتها وقوتها في عهد الموفـــق، الـــذي سعى إلى مواجهـــة القوى التي تحاول الإنفـــراد بالسلطة والانفصـــال عـــن حاضـــرة الخلافة[2].

وجد أحمد بن طولون نفسه أمام قوة كبيرة عقب مبايعة الخليفة المعتمد بالخلافـــة فظهر عداء بينه وبين الموفق بالله أبي أحمد طلحة أخ الخليفة المعتمد رغم أن أحمد ابن طولـــون حاول الحصول على رضا الخلافة ومما يدل على حرصه علـــى أن تكـــون ولايتـــه شرعية، وقد ساعدت ظروف الخلافة أحمد بن طولون على بسط سيطرته على مصـــر، وذلـــك بفضل سياسته الحكيمه وخططه السليمة التـــي جعلتـــه يصـــل إلـــى غايته[3].

أما عن بداية الخلاف الذي كان بين أحمد بن طولون والموفق، فقد كان الموفـــق الآمر الناهي في بغداد، رغم أن الخليفة آنذاك هو المعتمد والذي كان لا يرى في أخيـــه الكفاية ولا أهلية للخلافة، ومما زاد في حقد الموفق على المعتمد هو تفويضـــه لابنـــه "المفوض" ولاية العهد، وكان المعتمد قد قام بتقسيم أملاك الدولة بين ابنه وأخيه، حيـــث خص الموفق بالأملاك الشرقية، وضم إليه البصرة والكوفة، والأملاك الباقية خصصها لابنه "المفوض"، وهي القسم الغربي من الدولة العباسية[*]، ووضع لذلك شروطاً[**] ووثيقة

---

(1) الكندي: الولاة والقضاة، ص 217. كذلك ابن خلدون: العبر، 297/4، 298، عمر محمد أبـــو القاســـم: المرجع السابق، ص114.

(2)عمر محمد أبو لقاسم: المرجع السابق، ص 114.

(3) المرجع نفسه، ص 115.

)*(يشمل المغرب والشام والجزيرة وأرمينية = ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 33/3.

وُضعت على جدار الكعبة[1]، وفي عام (262هـ/ 875م) بدأ الخلاف بين أحمد ابن طولون والموفق، حيث طلب الأخير من أحمد بن طولون أن يمدهُ بالأموال التي يحتاج إليها في حربه مع صاحب الزنج[***]، رغم أن مصر كانت من ضمن أعمال المفوض وعندما علم الخليفة المعتمد بذلك أرسل كتاباً إلى أحمد بن طولون يطلب منه إرسال الأموال المعتاد إرسالها إليه مباشرة، كما قام الخليفة المعتمد بتحذير أحمد بن طولون من الموفق وما يضمره له وأنه قد أرسل إليه رسولاً[****] لكي يتقصى أخباره ويراقب تصرفاته، ويحرِّض قواته عليه[2].

وبفضل ذكاء ابن طولون عمل على كسب الجواسيس لمعرفة ما يضمره الموفق وبفضلهم استطاع معرفة الكتب التي ترسل إلى الخلافة ضده وكثرة المعارضين له، ولخوف الخليفة على أحمد بن طولون أرسل إليه كتابا يقول فيه "أما بعد فإنا رأينا أن نرد إليك أمر دارنا بالحضرة وتدبير مملكتنا، فإذا قرأت كتابنا هذا فاستخلف على مصر من أحببت والبلد لك وباسمك وأشخص إلينا بما ندبناك إليه ورأيناك أهلاً له"[3].

ويدل هذا الكتاب على تأييد الخليفة المعتمد لحكم أحمد بن طولون وخوفه عليه من المعارضين، خاصة أن أحمد بن طولون قام ببعض الأعمال التي تدل على استقلاله بحكم

(**) الشروط هي: إذا حدث في القسم الخاص بأحدهما ما يستدعي إنفاق شيء في المال فإن نفقته تكون من مال خراج ذلك القسم وكانت مصر من القسم الذي يشرف عليه المفوض ابن الخليفة = علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 244، 245.

(1) المسعودي: مروج الذهب، 123/4. كذلك مصطفى طه: المرجع السابق، ص 136، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 244، 245.

(***) الزنج هم طائفة من عبيد افريقية أثاروا الرعب في حضرة الخلافة العباسية وقائدهم رجل فارسي يسمي علي بن محمد أدعى انه من نسل علي زين العابدين بن الحسين بن علي، ولكنه لم يجهر بعقائد المذهب الشيعي وجهر بمذهب الخوارج ودعا صاحب الزنج إلى تحرير العبيد في البصرة وضواحيها واستمال قلوبهم وساروا في عام 254هـ/ 868م إلى بغداد والقوا الفزع في أهالي البلاد الإسلامية، وقاموا بالاستيلاء على 1900 سفينة تحمل بعض الحجاج إلى مكة، واستولوا على البصرة وارتكبوا مذابح كثيرة وخربوا مسجدها الأعظم= ابن الأثير: المصدر السابق، 263/6، 264. كذلك ابن كثير: المصدر السابق، 42/11، 43، سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد، دار الفكر، ط2 (بيروت، 1977) ص 308- 309.

(****) يسمى رسول الموفق " نحرير" = علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 246.

(2) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 245، 246. كذلك أمينة بيطار، المرجع السابق، ص 117.

(3) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص57.

مصر، حيث قام بحماية البلاد وثغورها، وأخذ الحيطة من الموفق وأتباعه[(1)].

خَشى أحمد بن طولون عند قراءته هذا الكتاب وما يحوي من دهاء وذكاء المعتمد من دسائس تُحاك ضدهُ من قبل الموفق، وأنها حيلة ومؤامرة للإيقاع به ولإبعاده عن مصر، فقام بإرسال هدايا وأموال مع كاتبه أحمد بن محمد الواسطي إلى الخلافة، وإلى الوزير الحسن بن مَخْلَد وزير المعتمد، وعند وصول الكاتب مع ما يحمل إلى الوزير، قال لأحمد الواسطي: "لن نزعجه عن عمله ولا يُقبل فيه قول ساعٍ سعى فيه"[(2)].

وعند وصول رسول الموفق إلى بن طولون "أنزلهُ في دارٍ معه في الميدان ومنعه من الركوب إلى موضع من المواضع، ولم يمكّنهُ من الخروج من الدار التي انزلهُ فيها، إلى أن أخرجهُ من البلد وتلطف في الكتب التي كانت معهُ فأخذها وحمل معهُ مليونا ومائتيِ ألف دينار وخرج معه ابن طولون ومعه العُدول حتى العريش"[(3)].

وبالرغم من معرفة أحمد بن طولون ما يضمرهُ له الموفق، إلا أنه أراد مساعدته في حربه مع الزنج، حماية للدولة العباسية ومحافظةً على أركانها من أن تتصدع، فقام أحمد بن طولون بإرسال مبلغ بسيط من المال إلى الموفق الأمر الذي أغضب الموفق وأدى إلى اشتعال نار العداء بينهما وأرسل إليه كتاباً استصغر فيه المال، ويقول له فيه:" إن الحساب يوجب أضعاف ما حمله إليه"[(4)]. وعندما قرأ أحمد بن طولون كتاب الموفق قال: "وأي حساب بيني وبينه أو مال يوجب مكاتبتي بمثل هذا وغيره"[(5)].

ودفع هذا الموقف أحمد بن طولون إلى إرسال كتاب مهم للموفق يُعد من أهم الوثائق في تاريخ الصراع بينهما، فقد أشار أحمد بن طولون في كتابه هذا لعدة أمور منها:أنه عون للموفق ونصير له لما يتميز به من قوة ومكانة بقوله "وكان أسعده الله حقيقاً بحسن التخير له في اختياره مثلي وتصييره إياي عمدته التي يعتمد عليها، وسيفه الذي يصول به وسنانه الذي يتقى الأعداء بحده"، أما الأمر الآخر الذي أشار إليه أحمد ابن طولون في كتابه إلى الموفق هو أنه على استعداد للوقوف ضد أي عدو يواجه

---

(1) المقريزي: الخطط، 315/1، 316. كذلك محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة (247-656هـ/861-1258م) دراسة ونصوص، مؤسسة الرسالة، ط2 (بيروت، 1982) ص332.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص 57

(3) المصدر نفسه، ص 80-81.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص 81- 82. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 246.

(5) البلوي: المصدر السابق، ص82. كذلك المقريزي: المقفى، 434/1.

الخلافة بقوله "فاحتملت الكُلف العظام، والمؤن الثقال باجتلاب كل موصــوف بشــجاعة ... صيانة لهذه الدولة وذبًا عنها" ثم نبه أحمد بن طولون الموفق بأنه لا سلطة له علــى ولايته بقوله " أن العمل الذي أنا بسبيلهِ لغيرهِ، والمكاتبة في أموره إلى سواهِ، وتقليــدي ليس من قبله ولا ولايته" وقد ضم أحمد في كتابه تهديداً باستخدام القوة إذا دعت الحاجة فيقول: " إلى أن أجعل ما قد أعددته لحياطة الدولة من الجيــوش المتكاثفــة والعســاكر المتضاعفة التي قد حرست رجالها من الحروب وجرت عليهم محن الخطوب مصروفاً إلى نقضها، فعندنا وفي حيزنا من يرى أنه أحق بهذا الأمر وأولى من الأمير"[1].

دفع هذا الأمر الموفق أن يعمل بكل الطرق للخلاص من أحمد بن طولون وإبعاده عن مصر، فقام بعدة محاولات منها: تفويض "أماجور" والي دمشق بتوليه مصر بــدلاً من أحمد بن طولون، إلاّ أن "أماجور" كان مدركاً تمام الإدراك بإنه لا يستطيع التصدي لابن طولون ولا مواجهته لما لهُ من قوة وسيطرة وجواسيس يعتمد عليهم، فباءت خطة الموفــق بالفشــل[2]، ولكنــه لــم ييــأس وزاد إصــراره باختيــاره "موســى بــن بغا"(264هــ/877م) لملاقاة ابن طولون وإبعاده عن مصر، فخرج موسى إلــى الرَّقَــة وظل فيها عشرة أشهر خلال سنة (262هـ/ 875م) وهو ينتهز الفرصة للإغــارة علــى مصر، غير أن جندهُ انقلبوا عليه وثاروا ضدهُ مطالبين بأرزاقهم، فدعت الضرورة إلى رجوع موسى إلى سامراء، وفشلت حملة الموفق الثانية على ابن طولون[3].

ومع هذا فلم يتوقف الموفق في محاولاته لإبعاد ابن طولون وإيجاد أسباب يظهــر فيها أن ابن طولون ليس أهلا لولايته، فوجد أن حرمانه من الثغور ســبب آخــر فقــام بمكاتبة الخليفة المعتمد يقول لهُ: "إن الثغور الشامية ضائعة وإنها تحتاج إلى مــن يُقــيم فيها ويغزو بأهلها، وبأن أحمد بن طولون مهمل لأمرها"[4]. فاستطاع الموفــق إقنــاع المعتمد بأنه يجب أن يتولي الثغور ولاة مستقلون وتحت سلطة الخلافة فتم تعيين محمد ابن هارون التغلبي، إلا أنه قُتل قبل أن يصل إليها فعــين محمــد علــي بــن يحيــى

---

(1) البلوي: المصدر السابق، ص 82، 83، 84. كذلك المقريزي: المقفى، 1/ 453، أحمد حسين: موســوعة مصر الإسلامية، 484/2، عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق، ص 121.

(2)علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ص 247.

(3) البلوي: المصدر السابق، ص 87. كذلك ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 344/6، 345، ابــن خلــدون: المصدر السابق، 330/3، أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 118.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص89.

الأرمني[1]، الذي ثار عليه أهل طرسوس وقتلوهُ بعد أن حرَّضهم سيما الطويل[*]، عندما منعه الأرمني من دخول إنطاكية، فقام الموفق باختيار "أرخوز بن يولغ بن طرخان" وأمرهُ أن يقبض على "سيما" إلاّ أنه لم يكن الشخص المناسب فتشاغل واستولى على أموال الجند وأخَّرَ عن أهل لؤلؤة[**] أرزاقهم، كما قام بحرمانهم من المعونات التي أرسلها أهل طرسوس[***]، وبطمع أرخوز وانقلاب أهالي لؤلؤة انضمت هذه القلعة إلى الروم لأنها "كانت شجا في حلق العدو ولم يكن يخرج الروم في برٍ أو بحرٍ إلا رأوهُ وأنذروا بهِ"[2].

أدى هذا الأمر إلى فشل الموفق مرة أخرى في القضاء على أحمد بن طولون الذي استطاع أن يتولى الثغور مرة أخرى من قبل الخليفة المعتمد، رغم عدم رضا الموفق، ولم يجد الموفق بعد ذلك حيله تمنعهَ من إبعاد أحمد بن طولون مرة أخرى، فلم يكن هدفه حماية الثغور التي استطاع الروم السيطرة على بعض منها بقدر ما كان يهدف إلى القضاء على أحمد بن طولون، فما كان من أحمد بن طولون إلا إرسال "طخشيِ بن بلبرده"[****] عامله على الشرطة في عام (269هـ/882م) الذي استطاع طرد الروم وأحسن معاملة أهل طرسوس، وظلَّ قائماً عليها حتى وفاتهِ[3]، ومع هذا فلم يكفّ الموفق عن تفكيره في القضاء على ابن طولون، فحاول هذه المرة تأليب عُماله عليهِ، فوقع الاختيار على لؤلؤ، الذي استخلفه أحمد بن طولون على الشام، فأصبحت قنسرين وحلب وحمص في يده فاستغل لؤلؤ خروج أحمد بن طولون للقضاء على حركة ابنه العباس في برقة سنة (269هـ/ 882م) فقام بقطع الدعاء له في كافة المناطق التابعة له وبعد ذلك اتجه إلى العراق بعد أن استولى على مليون دينار وبدأ تمرده بسك اسمه على العملة بجانب اسم ابن

---

(1) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص89. كذلك ابن خلدون، العبر، 300/4.

)*(سيما الطويل: أحد قواد بني العباس ومواليهم حلب والعواصم = ابن العديم: تاريخ حلب، 75/1.

) **(لؤلؤة: قلعة قرب طرسوس = البلوي: المصدر السابق، ص 90.

) ***(سبب ثورة أهالي لؤلؤ أنهم ضجوا من تأخر ما يحمله الميرة فكتبوا أهالي طرسوس يعرفونهم أنهم إن لم ينفذوا إليهم ما يحتاجون إليه سلموا القلعة إلى الروم فحمل أهالي طرسوس المال إلا أن أرخوز عرض عليهم حمل المال فاستولي على المال فما كان على أهل لؤلؤ ألا إن سلموا القلعة إلى الروم= البلوي: المصدر السابق، ص 90.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 347/6. كذلك أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 119.

) ****(يذكره ابن خلدون: (العبر، 300/4) طخشي بن بكر.

(3)) البلوي: المصدر السابق، ص91. كذلك ابن خلدون: العبر، 300/4.

طولون وأخذ يُخضع المناطق والمدن لسلطة العباسيين المباشرة[1]، ويذكر ابن الأثير أن "لؤلؤ اشترط على الموفق شروطاً أجابه بعد ذلك إليها إلا أنه لم يُفصح عن هذه الشروط"[2]. وسار لؤلؤ من الرقه ونزل في عسكر الموفق وكان آنذاك لا يزال في حربه مع الزنج بعد أن نزل قرقيسيا[*]، وكان بها " ابن صفوان العُقيليُّ الذي كان والياً عليها، فحاربهُ وأخذها منهُ وسلمها إلى أحمد[**] بن مالك بن طوق"[3].

خرج أحمد بن طولون بعد ذلك من مصر للقضاء على المتمرد لؤلؤ، وكان قبل ذلك قد خاطبهُ ليرجع عما يهدف إليه، إلا أنه أبى ذلك واستمر في عصيانه، ما جعل أحمد يُعجل بالخروج لردعهِ في مائة ألف، وقبض على أهل لؤلؤ وصادر أمواله، في حين شارك لؤلؤ الموفق في حربه ضد الزنج واستطاع لؤلؤ والموفق الانتصار على حركة الزنج وقتل صاحب الزنج سنة (269هـ/882م). ونلاحظ أن انضمام لؤلؤ للموفق نصرٌ استطاع الموفق تحقيقه في حين كان هذا الانضمام فشلاً لأحمد بن طولون، فلم يستطع أن يقضي على هذا المتمرد الذي أخضع أغلب المناطق التي كانت تحت سيطرة الطولونيين[4].

ومع هذا فقد استمر الطرفان في سعيهما للنيل من بعضهما البعض فنجد أحمد ابن طولون يقوم بخطوة تعد من الخطوات المهمة وهي نقل الخلافة إلى مصر مستغلاً أوضاع الخليفة المعتمد واستبداد أخيه الموفق له، واستبعاده عن أمور كثيرة في الدولة، مما

---

(1) كامل بن حسين بالغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة الماردينة (حلب، د.ت) 36/3. كذلك كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقلهُ إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط6 (بيروت، 1974) ص222، أمينة بيطار: المرجع السابق، ص119.

(2) ابن الأثير: المصدر السابق، 415/6. كذلك أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، 53/2، سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 40.

(*) قَرْقَيَسيَا: بفتح أوله وإسكان ثانية بعد قافٍ أخر مكسورة وياء وسين مهمله وياء أخرى وألف كورة من كورة ديار ربيعة وهي كلها بن الحيرة والشام = البكري: معجم ما استعجم، عارضهُ بمخطوطات القاهرة وحققهُ وضبطهُ وشرحهُ مصطفى السقا، عالم الكتب (بيروت، د.ت) 1066/3.

(**) لم أجد له ترجمة إلا أن المصادر تذكر مالك بن طوق وهو أحد الأشراف والفرسان الأجواد، ولي أمر دمشق للمتوكل، وهو الذي بني الرحبة التي على الفرات وإليه تُنسب واعتقد أنه ابنه = محمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار صادر (بيروت، د.ت) 231/3.

(3) ابن الأثير: المصدر السابق، 415/6. كذلك ابن خلدون، المصدر السابق، 303/4، عمر محمد أبو القاسم، المرجع السابق، ص 128.

(4) ابن العديم: المصدر السابق، 79/1. كذلك أمينة بيطار: المرجع السابق، ص119.

اضطر الخليفة المعتمد إلى مكاتبة أحمد بن طولون سراً يشكو إليه الحال، فاستغل أحمد هذا الأمر وأشار عليه بالمجيء إلى مصر لينصره، وقد أرسل إليه كتاباً يوضّح فيه مدى قلقه عليه، يقول فيه "قد منعني الطعام والشراب والنوم خوفي على أمير المؤمنين في مكروه يلحقه...وأنا أرى لسيدي أمير المؤمنين الانجذاب إلى مصر..."[1].

اقتنع الخليفة المعتمد بفكرة ابن طولون، وخاصة أن ابن طولون قد بعث من ينتظره في الرّقة من عسكر، فخرج الخليفة مستغلاً انشغال الموفق بحربه مع الزنج، متنكراً في سنة (269هـ/882م)[2] وبوصوله إلى الرقة انكشف أمره، فكتب إسحاق بن كنداج إلى صاحب الرقة والجزيرة كتاباً يخبر فيه الموفق بهذا الأمر قائلاً: "متى اتفق ابن طولون مع المعتمد لم يبق منكم باقية"[3].

فأرسل الموفق على الحال كتاباً إلى إسحاق ابن كنداج عامل الموصل والجزيرة يطلب منه منع الخليفة المعتمد من الوصول إلى مصر، كما بيّن له أنّه إذا استولى ابن طولون على الخلافة سيكون ذلك سبباً في زوال الخلافة العباسية، فخرج إسحاق من نصيبين[*]، في أربعة آلاف إلى الموصل، وقام بالقبض على المعتمد ومن معه، وأخذ بمعاتبته ولومه على ما فعله مع أخيه فقال لهُ[4] "أخوك في وجه العدو، عدوك وعدو دولتك يقف على زوالك عن مستقرك ومدينة أبائك، فينصرف عن مقاومته، ويخلي بينه وبين دار مُلكِك"[5]. ثم قيد ابن كنداج قواد الخليفة وقام بإرجاعهم مع الخليفة إلى سامراء، "ووكل به قائداً في خمسمائة رجل يمنعون أن يدخل إليه أحد"، وبهذا فشلت محاولة ابن طولون في نقل الخلافة إلى مصر، في حين كان النجاح حليف الموفق

---

(1) البلوي: المصدر السابق، ص281.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 415/6. كذلك أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، 53/2، خليل إبراهيم السامرائي وطارق فتحي سلطان وآخر: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي (132-656هـ/749-1258م)، منشورات دار الكتب (الموصل، 1988) ص118.

(3) يذكر الذهبي: (دول الإسلام، ص148). أن ابن كنداج أرسل إلى الموفق يقول له "متى اتفق أخي مع المصري لم يبق منكم باقية".

(*) مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وهي اليوم أشبه بقرية كبيرة= البلوي: المصدر السابق، ص291.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، 43/11. كذلك الحنبلي: شذرات الذهب، 155/2.

(5) البلوي: المصدر السابق، ص 292، بينما يذكر الحنبلي:(المصدر السابق: 155/2) أن إسحاق عاتب الخليفة المعتمد بقوله " أخوك يا أمير المؤمنين في وجه العدو وأنت تخرج عن مستقرك فمتى علم رجع عن قتال الخبيث فيغلب عدوك عن دار أبائك".

بإعادة أخيه إلى دار الخلافة[1].

ازداد غضب ابن طولون على الموفق وما قام به ضد أخيه الخليفة المعتمد، فقام بخطوة تُعد من أهم ما قام به ابن طولون ضد الموفق وتدل على مدى ما وصل إليه من قوة وتحدٍ، حيث قام بجمع القضاة والفقهاء والأمراء، وقام بإرسال كتاب إلى أهل مصر يوضح فيه إلى أي مدى وصل حال الخليفة المعتمد، فيقول: "إن أبا أحمد الموفق نكث بيعة المعتمد وأسّره وحرس عليه في دار أبي أحمد بن الخصيب، وأن المعتمد قد صار من ذلك إلى ما لا يجوز ذكرهُ وأنه بكى بكُاءً شديداً"[2]. فخطب الخطيب يوم الجمعة وقام بذكر ما صار فيه المعتمد وقال: "اللهم اكفهِ من ظَلمه وحصره"[3]. فتم الاتفاق على خلع الموفق وإسقاط اسمه من الطراز وقطع الدعاء له على المنابر في الخطب[4]، فمما أن بلغ الموفق ما قام به ابن طولون بادرهُ بنفس الفعل، حيث جعل المعتمد يصدر قراراً بلعن ابن طولون، ففعل ذلك مُكرهاً، حيث تجمعه مع أحمد بن طولون صداقة قوية كما ذكر من قبل، "فتم لعن ابن طولون على المنابر في بغداد وسائر العراق"[5]، ووصل لعنهُ حتى مكة التي حاول بن طولون أخذها من عامل العباسيين فحدثت معركة[*]، بين الجيشين وانتهت بهزيمة بن طولون[6].

ونستنتج مما سبق محاولة كل الطرفين وبكل الطرق القضاء على بعضهما البعض فاستعملا كل الحيل باستمالة المصريين المقربين، وعلى الرغم من عدم نجاح كل المحاولات إلا أن بعضها كان لها مردود إيجابي واستطاع الموفق القضاء على ثورة

---

(1) المقريزي: المقفى، 1/ 423. كذلك الحنبلي: المصدر السابق: 155/2، حسين أمين: سامراء في ظل الخلافة العباسية، موسوعة العتبات المقدسة، دار التعارف (بغداد، د.ت) ص107.

(2) الكندي: الولاة والقضاة، ص 226. كذلك المقريزي: المقفى، 423/1.

(3) الكندي: المصدر السابق، ص 226.

(4) ابن كثير: المصدر السابق، 43/11. كذلك ابن خلدون: المصدر السابق، 304/4، أحمد مجاهد ومحمد مصطفي: المرجع السابق، ص162.

(5) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص148.

(*) كانت هذه الواقعة بمكة حيث جمع بن طولون جيشا مع قائدين سيرهم إلى مكة فوصلوا إليها وجمعوا الحناطين والجزارين وفرقوا فيهم مالاً، وكان عامل مكة هارون بن محمد والحملة بقيادة جعفر الناعمودي، واستطاع هارون التصدي لهم وهزم الطولونيين وقتل منهم نحو مائتي رجل وانهزم الباقون وقري كتاب في المسجد الجامع بلعن ابن طولون: ابن الأثير: المصدر السابق، 416/6. كذلك ابن كثير: المصدر السابق، 43/11.

(6) علي إبراهيم حسين: المرجع السابق، ص 251.

الزنج وفشل في إبعاد أحمد من الثغور في حين أن أحمد بن طولون استطاع أن يُثّبت نفسهُ وذلك بحماية الثغور وسك عُملة باسمه، وحافظ على مصر، رغم فشله في نقل الخلافة إليها.

وأخيراً كان لابد لهذا الصراع من نهاية، فقام الموفق بالمبادرة بالصلح فأمر كاتبه صاعد بن مخلد وجماعة من خاصته بمكاتبة أحمد بن طولون فكان فحوى هذا الكتاب أن الموفق عاتب أحمد بن طولون بما قام به من لعنه على المنابر، وإسقاط اسمه وأن ما فعله ضده كان من غير إرادته وأنه غير راض عما جرى بينهما، فسرَّ أحمد بن طولون بهذا الكتاب حيث تأكد من نية الموفق تجاههُ فقام أحمد بن طولون بمكاتبة الموفق بكتاب يبرر فيه ما قام به ضده حيث قال فيه: "إن الموفق أحد مواليه وإنه إنما انحرف عنهُ لحصره الخليفة، وأسره إياه، وأنهُ لو خلاه مع اختياره، وأزال عنهُ الموانع التي ألزمه إياها... ولم ينحرف عن طاعته، ولا عدل عن محبته وإرادته لكان كبعض خدمه وإن جميع ما في يده من مال عمله محفوظ للخليفة" (1). وأوضح للموفق بأن كل ما قام به كان حرصاً منه على الخليفة والخلافة، وبعد أن وصل كتابه إلى الموفق بادر بتكريم الخليفة المعتمد وإطلاق أسره، وظلت هذه المكاتبات بين الطرفين(*)، حتى اتفقا على إسقاط اللعن والسب على المنابر وقام الموفق بالاعتراف بشرعية أحمد بن طولون في حكمه على مصر والشام غير أنه بوفاة أحمد بن طولون سنة (270هـ/883م) أخذ الصراع شكلاً آخر بتولي ابنه الخلافة وخاصة بعد أن أرسل الموفق الحسن بن عطاف بكتاب فيه إسقاط اللعن عن ابن طولون فتراجع بعد أن علم بوفاتهِ إلى حاضرة الخلافة(2).

تجددت رغبة الموفق في القضاء على الطولونيين بعد تولي خمارويه الحكم على الرغم من أن الأمور آلت إلى الصلح، فقد قام الموفق بمساندة إسحاق بن كنداج الذي عقد له الخليفة على مصر والشام وأنه صاحب الحق الشرعي في الحكم، في حين لم تعترف الخلافة بعد بحكم خمارويه، الذي وجد نفسه مضطراً إلى تثبيت نفسه وتجديد الصلح وأن يأخذ الصبغة الشرعية في توليته مصر والشام، كما تَوجَّب عليه مواجهة

---

(1) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص 304.

)*(عند المراسلات التي حدثت بين الموفق وأحمد بن طولون انظر البلوي: المصدر السابق، ص 304، 305.

(2) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص123. كذلك عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق، ص 136.

إسحاق الذي بدأ بالعمل ضد الطولونيين، حيث أرسل إلى الموفق كتاباً يطلب منه مساندته ودعمه، فأمره الموفق بقصد بلاد الشام، ووعده بإنفاذ الجيوش إليه(1). ووجد خمارويه نفسه مضطراً إلى الوقوف في وجه الموفق وأن يتصدى له خاصة أن رغبته في مساعدة إسحاق كانت دليلاً على رغبته في القضاء على الطولونيين(2).

بدأ خمارويه في مواجهة أول أعداءِ وهم حلفاء الموفق أمثال أحمد الواسطي كاتب أبيه، وإسحاق بن كنداج، وابن الساج، وسعد الأعسر، وكان انتصار خمارويه على هؤلاء القادة، واستيلائه على الشام والموصل وأرمينية وخضوع باقي الجهات له أكبر دليل على انتصاره على الموفق(3).

كان خمارويه هذه المرة هو من قام بطلب الصلح، ولقي هذا الطلب رضا من قبل الموفق الذي كتب له كتاب الصلح هو وابنه العباس تعظيما لهُ وأعطاه حكم مصر والشام ثلاثين عاماً(4)، وبهذا تم الكف عن لعن الموفق، والدُعاء لهُ، وهذا التفاهم جعل الدولة تأخذ الصيغة الشرعية مما جعل العلاقة بين الخلافة والدولة الطولونية في هدوء ووفاق(5).

غير أن خمارويه شعر بعد وفاة الموفق عام (278هـ/891م) والمعتمد عام (279هـ/892م). بخوف آخر عندما تمت المبايعة لأبي العباس بن أحمد الموفق الذي لقُب بالمعتضد. فعمل على كسب رضا الخليفة الجديد بإرساله الهدايا القيّمة مع ابن الجصاص، وقد بادر الخليفة المعتضد خمارويه بالرد عليه بإرسال الهدايا من جانبه أيضاً(6)، مما جعل العلاقة بين المعتضد وخمارويه تزداد تقارباً، ثم عُقدت معاهدة جديدة بينهما(7)، استطاع بعد ذلك خمارويه أن يستكمل شرعية دولته في مصر والشام، كما أن هذه المعاهدة أعطت لخمارويه حرية تعيين القضاة وعمال الخراج(8). ولاستكمال مرحلة الوفاق وتوطئة لهذه العلاقة عرض خمارويه على الخليفة تزويج ابنته من الأمير

---

(1) المقريزي: المقفى، 813/3. كذلك عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق، ص 137، 138.

(2) أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص 135.

(3) مصطفي طه: المرجع السابق، ص 139. كذلك علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 252.

(4) المقريزي: المقفى، 817/3. كذلك ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 51/3.

(5) عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق، ص 144.

(6) المقريزي: الخطط: 321/1. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 53/3، أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 136.

(7) ينظر الفصل الثاني من هذه الرسالة ص39، 40.

(8) عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق، ص 146.

المكتفي، فاختارها لنفسه سنة (281هـ/894م)[1]. وتُشير المصادر إلى أن المتعضد أراد بهذا الزواج إفقار الدولة، وخاصة أنه على علمٍ تام بما تتميز به مصر وما لها من أموال، وهذا يؤكد أنه رغم الصداقة التي تجمعهما إلا أن المعتضد لا يزال يضمر في نفسِه القضاء على هذه الدولة مثلما كان يطمح إليه الموفق[2]، وبوفاة خمارويه نجد أن الدولة ستدخل مرحلة جديدة، تختلف عما كانت عليه في عهده وعهد أبيه أحمد بن طولون، بأن تصبح مصر والشام تابعة للدولة العباسية من جديد.

وبعد تولي أبو العساكر سنة (282هـ/845م)، الذي لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره، تدهورت أوضاع الدولة لِمَا عُرف عنه من انصرافه للهو والشرب وعدم اهتمامه بأمور الدولة[3]، فكان هذا الأمر لصالح الخلافة التي بدأت تستفيد من أوضاع الطولونيين، ومما يدل على عداء الخلافة هو ما قام به محمد بن إسحاق وخاقان المفلجي من خروج على أبي العساكر، حيث قام الخليفة باستقبالهم وإيواءهم في بغداد وجعل لهم الوظائف وصنع في أمرهم كل جميل[4]. ومما زاد الأمر سوءاً بين الطرفين، أنه عندما تولى هارون الحكم بعد أبي العساكر سنة (283ه/896م) أراد تجديد العهد الذي أعطاه الموفق لخمارويه وهو حكم مصر والشام ثلاثين عاماً، إلا أننا نجد أن بعض الولاة رفضوا بيعته مثل راغب والي طرسوس الذي قام بالدعاء لبدر مولي المعتضد، وترك الدعاء لهارون. كذلك خروج كلٍ من أحمد بن طغان ودميانة، ورفض طغج مبايعته، مما جعل منطقة الثغور تخرج عن طاعة هارون، فحاول هارون جاهداً أن يُبقي الشام تابعة لهُ، فاستغل طغج هذا الأمر لصالحه مقابل أن يبايع طغج لهارون، وأن تبقى ولاية الشام له[5]. وبهذا وجد هارون أن الدولة بدأت بالانهيار وخاصة أن منطقة الثغور أصرت على عدم مبايعته وأن أبا جعفر محمد بن أبي، الذي كان وصياً عليه معهُ بدر الحمامي وفائق وصافي الذين استطاعا أن يحصل كل منهم على فريق

---

(1) مصطفي طه: المرجع السابق، ص 143. كذلك أمينة بيطار: الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، ص 131.

(2) ابن خلكان: المصدر السابق، 21/2.

(3) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 130.

(4) ابن تغري بردي: نجوم الزاهرة، 95/3.

(5) ابن الأثير: المصدر السابق، 490/6-496. كذلك أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 134، 135، أحمد إسماعيل علي: المرجع السابق، ص56.

من الجيش يخضع له خضوعاً تاماً[1]، فما كان من هارون إلا أن حاول جاهداً كسب ودّ الخلافة والاعتراف به، فقام بطلب تجديد الاعتراف بحكمه لمصر والشام، إلاّ أن الخليفة لم يرد على طلبه[2]. فوجد هارون نفسه يتنازل عن أعمال حلب وقنسرين والعواصم إلى العباسيين ويضم معهُ ديار بكر وربيعه مقابل الاعتراف به والياً على مصر وكان ذلك في عام 286هـ/899م[3].

2- مع الدولة البيزنطية:

رغم قلة المعلومات، التي تخص العلاقة بين الطولونيين والبيزنطيين إلا أن البعض من المصادر التاريخية تذكر بعض الأخبار، حيث كان ابن طولون قبل أن يتولي مصر مقيماً في طرسوس، ولأهمية هذا الثغر فقد نشأ أحمد نشأة حربية فبها تلقى العديد من العلوم[4]. أما عن أول اتصال بين البيزنطيين والطولونيين فقد بدأ عندما ضَعُفَ حماة الثغور، وأصبحت معرضة للخطر، خاصة أنهُ في سنة (261هـ/874م) استطاع الإمبراطور باسيليوس الأول أن يستولي على حصن لؤلؤة، الأمر الذي أدى إلى قلق الخليفة المعتمد، والذي اصدر أمراً بتولية أحمد بن طولون الثغور، إلا أن أحمد عيّن "طخشى بن يلبرد" عليها، وذلك لأنه كان مشغولاً بتوطيد سلطانه وانشغاله بخلافه مع الموفق، ومع هذا فلم يهمل أمرها فقد قام طخشى بالأمر على أكمل وجه، فوقف أمام البيزنطيين ووجه إليهم ضربات عنيفة، مما دفع الإمبراطور إلى طلب الهدنة، وقد عَرفَ أحمد من خلال هذا ما أصابهم من مهاجمي الثغور، إضافة إلى أن في الهدنة والصلح مصلحة للبيزنطيين وراحة لكي يعدون عدتهم من جديد[5]، وقد وافق أحمد على الهدنة التي نصت على إطلاق الأسرى وبعض الشروط الأخرى[6]، وكان ذلك سنة (264هـ/877م) حيث قام البيزنطيون بإطلاق سراح عبدالله بن راشد بن كاوس[*] عامل الثغور، الذي كان أسيراً لديهم إثر خروجه لمقاتلتهم، كما أطلقوا معهُ العديد من الأسرى

---

(1) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 136.

(2) ابن العديم: المصدر السابق، 86/1.

(3) ابن الأثير: المصدر السابق، 503/6. كذلك أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، 58/2.

(4)علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص253.

(5) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص 117. كذلك أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 273.

(6) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 274.

)*(يذكر ابن الأثير "عبدالله بن رشيد بن كاوس"، 350/6.

المسلمين وقد كان ذلك بمثابة عربون لهذهِ الصداقة وذلك سنة (265هـ/878م)[1]، كما قاموا بإرسال الهدايا إلى بن طولون، التي تشمل بعض المصاحف الكريمة، إلاّ أن هذه الهدنة لم تدم طويلاً ففي سنة (265هـ/878م)، قام البيزنطيون بالاعتداء على ديار ربيعة فاضطر أحمد بن طولون إلى إرسال حملة في سنة (266هـ/879م) لقتالهم وألحق بهم هزائم فادحة[2]، وقد أنتهز أحمد فرصة عقده الهدنة في تقوية الشام وبناء أسطول قوي قادر على مواجهة الهجوم البيزنطي، وإنشاء قاعدة بحرية في عكا وتحصين يافا وباقي الموانى الشامية، حتى وصل قيمة ما أنفقه على ممرات الثغور وعلى حصن يافا مبلغاً وقدرهُ مائتا ألف دينار[3]، استمر هذا الأسطول الذي أعده ابن طولون بمهاجمة أساطيل البيزنطيين حتى وصلت هذه الهجمات إلى بحر إيجه، وأصبحت طرسوس من أهم المدن واكتسبت طابعاً حربياً وأهمية كبرى في الصراع بين الطولونيين والبيزنطيين، وذلك بسبب قربها من شواطئ آسيا الصغرى[4]، وعيّن أحمد بن طولون بعد وفاة طخشى "خلف الفرغاني" قائداً على الثغور "الذي استطاع غزو الروم وقتل منهم بضعة عشر ألفاً، وغَنِم حتى بلغ السهمُ أربعين دينارا"[5]، وقد حاول أحد أمراء البحر البيزنطي ويدعى هيمريوس السيطرة على أسطول طرسوس وكريت إلا أن محاولته باءت بالفشل[6]، كما كان ليازمان شهرة في جهاده ضد البيزنطيين رغم خروجه عن طاعة أحمد بن طولون، الذي توفي قبل أن يقضى عليه وعلى تمرده[7].

أما في عهد خمارويه، فظل الحال على ما كان عليه في عهد أبيه من حماية الشواطئ والأساطيل. كذلك اهتم بميناء طرابلس الشام الذي ضمّ في ذلك الوقت عدداً

---

(1) ابن الأثير: المصدر السابق، 363/6. كذلك سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص 118، السيد أحمد دحلان: الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، المكتبة التجارية الكبرى (مصر، 1354هـ) 312/1.

(2) أحمد شلبي: المرجع السابق، 77/5. كذلك سيدة كاشف: المرجع السابق، ص 118.

(3) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 274.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص351. كذلك عمر عبدالسلام تدمري: تاريخ طرابلس، 190/1، أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 274.

(5) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 44/3. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص50.

(6) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 275.

(7) أحمد حسين: المرجع السابق، 486/2. كذلك سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص119.

كبيراً من السفن، حيث واصل التصدي للبيزنطيين الذين جددوا غـــاراتهم حتـــى ســـنة (270هـ/883م)، كما أغارت السفن البيزنطية واستطاعت الاستيلاء على أحد المراكـــب وقامت بأسر من فيه، وكان ضمن الأســـرى المحـــدث الكبيـــر خيثمـــة بـــن ســـليمان الأطرابلسي(*)، الذي ظّل أسيراً أربعة أشهر لدى البيزنطيين ثم افتدي على يد رســـول خمارويه مع عدد من الأسرى[1]، استطاع يازمان السيطرة على الثغور واشتهر بغزوه ضد البيزنطيين ففي سنة (274هـ/887م)، غزا الروم من جهة البر، وما لبث في السنة التالية أن قام بغزوة بحرية استطاع على إثرها الاستيلاء على أربعة مراكـــب تخـــص البيزنطيين، كما استطاع الوصول إلى بعض الجزر اليونانية، وســـيطر علـــى بعـــض مواني آسيا الصغرى، وظل يازمان مستمراً في غزواتـــه حتـــى أصـــيب فـــي ســـنة (278هـ/891م) أثنا غزوه أمام حصن سلندو وعلى أثرها توفي[2].

كما حدث في سنة (283هــ/896م) فداء آخر في عهد المعتضد وقد كان على يد أحمد بن طغان(**)، وآليون بن بسيل أبي قسطنطين بن آليون إمبراطور الروم، فتم هذا الفداء بين الدولتين حتى عقب مقتل خمارويه، فورد إلى المعتضد كتابُ من أحمد بـــن طغان يخبرهُ بإتمام عملية الفداء في هذا العام[3]، وقد استمرت الثغور بقوتها وصلابتها، حتى بعد وفاة يازمان كما كان لطغج بن جف جهود واضحة فـــي الـــدفاع عنهـــا فقـــد استطاع فتح بعض المناطق البيزنطية ففتح مدنية ملورية، وظلت قوتهم حتى بعد وفـــاة خمارويه بسبب وقوف هؤلاء الولاة في وجه البيزنطيين[4].

وقد استمرت الفداءات حتى في عهد جيش بن خمارويه فوصل عدد ممن أُطلـــق سراحهم من الرجال والنساء والصبيان إلى " 2504"(*) أسير وأطلـــــق رســـول ملـــك

)*(هو خيثمة بن سليمان بن حيدرة أبو الحسن الأطرابلسي، سمع الحديث على كِبر وحدث عن شيوخ الشـــام والساحل وحمص ودمشق وغيرهم من الكوفيين والبغداديين = المقريزي: المقفى، 833/3، 834.

(1)عمر عبدالسلام تدمري: المرجع السابق، ص 190، 191.

(2) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 275.

) **(أمير الثغور الشامية وإنطاكية من قبل أبي الجيش خمارويه = رضا السيد حسن: المعارك والأسرى بين العرب والروم، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت، 1985) ص226.

(3) المرجع السابق، ص 226.

(4) أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر، 492/2. كذلك أمينة بيطار: المرجع السابق، ص276، سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: مصر في عهد الطولونيين والإخشديين، ص 61.

)*(يذكر المقريزي: الخطط، 192/1 بأن عدد من فودي به من المسلمين في هذه السنة (2495) أسير.

الروم "أسيمون" مقابل إطلاق الروم يحيِ بن عبدالباقي رسول المسلمين المتوجه في الفداء[1].

عندما تولى أبو جعفر الأمر في عهد هارون سادت فترة من الهدوء النسبي بين الدولتين مما دفع أبا جعفر إلى الاهتمام بالعمران، إلا أن العلاقات ساءت بعد ذلك، حيث دخل أبو جعفر في صراع معهم، وقد استطاع الطولونيون الوقوف في وجه البيزنطيين وذلك بمنع سفنهم من الاقتراب من شواطئ الشام، إلاّ أن الخليفة المعتضد قرر حماية هذهِ الثغور والدفاع عنها بنفسه، وإن استردادها من أيدي الطولونيين بعد أن شكا أهلها إليه[2].

يتضح مما سبق أن أحمد بن طولون قد حاول جاهداً حماية هذهِ الحصون والثغور والدفاع عنها، وظهر هذا واضحاً بإحاطة عكا ويافا بأسوار وكذلك ببنائه للأساطيل التي تحمي الشواطئ، وأيضاً تعيينه لقادة كبار كان لهم الفضل في صد البيزنطيين.

3- مع برقة:

شكلت برقة منذ الفتح الإسلامي جزءاً من إقليم مصر[3]، وفي سنة (257هـ/870م) تولى محمد بن هرثمة بن أعين الذي لُقب بعامل المعونة حكمها بعد أن أرسلهُ الخليفة المعتمد آنذاك، إلا أنه خرج هارباً بعد أن ثار عليه جندها في سنة (258هـ/871م) إلى الفسطاط[4]، فتولى من بعدهُ عيسى الصفدي، الذي ظل في برقة، حتى تسلمها أحمد بن طولون (258ه/871م)، فجعل عليها محمد فروج الفرغانيِ وأحمد بن أبي يعقوب على خراجها[5]، وقد ثار بعد ذلك أهل برقة على محمد بن فروج

---

(1) رضا السيد حسن: المرجع السابق، ص 227.

(2) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 276.

(3) أتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي، دار الثقافة، (بيروت، 1974)، ص71.

(4) اليعقوبي: المصدر السابق، 2/ 508، 510. كذلك صالح مصطفي مفتاح: ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، (طرابلس، 1978)، ص115.

(5) إحسان عباس: تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري، دار ليبيا للنشر والتوزيع، (بنغازي، 1967) ص 57.

ولم يرضوا به والياً عليهم، وقاموا بإخراجه من البلد، فعلم ابن طولون بـذلك فأرسـل إليهم جيشاً بقيادة أبي الأسود الغطريف ويزبك الفرغاني(*)، وأعـد أسـطولاً مـزودًا بالأسلحة والمنجنيق، ولرغبة أحمد في القضاء على هذه الثورة القائمة أرسل مـع هـذا الأسطول البحري جيشاً برياً، جعله بقيادة غلامه لؤلؤ ، كما أرسل أحمد جيشـاً آخـراً بقيادة شعبة بن خركان[1]. "وأمر رئيس كل جيش منهم بالتوقف عن الحرب والتسـاند وبذل السلامة والأمان إن قبلوا الصلح، وتقديم المعذرة وترك العجلة، فإن أجـابوه وإلا السيف"[2].

قام القواد بضرب الحصار على برقة بجعل كل فريق من الجند على بـاب مـن أبواب المدينة، حيث بدأت المفاوضات مع أهلها، وقد أوهمهم أهل برقة أنهم اسـتجابوا للصلح، وقاموا بفتح الباب ليلاً والواقف عليه جيش الغطريف الذي سرعان مـا وقـع عسكره وقتلوا جميعاً(**)، وظل باقي الجيش دون قائد مما جعلهم ينضمون إلى عسـكر لؤلؤ[3]، الذي قام بمكاتبة أحمد بن طولون يطلعهُ على مجريات الأمور ولأخذ المشورة فيما يفعل، فكتب إليه يأمره بقتالهم ويقول له "قـد أحسـنتم فـي تـوقفكم، وأنـتم الآن تنتصرون بمشيئة الله وعونه"[4].

وتنفيذاً للأوامر جهز لؤلؤ جيشه ونصب المجانيق تجاه برقة، فما كان من أهلهـا بعد أن ضاق بهم الحال، وما لقوهُ من لؤلؤ وجيشه إلا طلبوا الأمان، وفتحـوا الأبـواب فدخل لؤلؤ وقبض على جماعة من زعماء الفتنة"[5]. فضربهم بالسـياط وقطـع أيـدي جماعة منهم، وصلب البعض الآخر، وكتب إلى مولاهُ بالفتح[6].

)*(يزبك الفرغاني: هو من حُجاب أحمد وهو صاحب الرحبة المجاورة لدور المـاذرائيين المسـماه بـه= البلوي: المصدر السابق، ص70.

(1) صالح مصطفي مفتاح: المرجع السابق، ص 115، 116. كذلك عبداللطيف البرغوثي، المرجع السـابق، ص197.

(2) البلوي: المصدر السابق، ص 70.

) **(من القواد الذين بعثهم أحمد بن طولون عندما ثار أهل برقة على أميرها محمد بن فـروخ = البلـوي: لمصدر السابق، ص70.

(3) إحسان عباس: المرجع السابق، ص 58.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص72.

(5) إحسان عباس: المرجع السابق، ص58.

(6) البلوي: المصدر السابق، ص72. كذلك ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 327/6.

وصل بعد ذلك إلى برقة جيش ابن خركان الذي أرسله أحمد بن طولون، فعين لؤلؤ بن خركان والياً على برقة سنة (262 هـ/875م)[1]، وعاد إلى مصر ودخل الفسطاط ومعهُ بعض الأسرى، "فخلع عليه أحمد خلعة فيها طوقان فوضعها في رقبته وطاف بالأسرى في البلد"[2].

وبذلك ظلت برقة تحت سلطة خمارويه بعد وفاة أبيه حيث جدد عهده مع المعتضد بولاية مصر والشام وبرقة لمدة ثلاثين عاماً لهُ ولأولادهِ[3].

2. مع دولة الأغالبة:

بفضل موقع مصر الجغرافي ظلت لها صلة مع المغرب العربي طِوَال فترة الحكم البيزنطي، وزاد أثر هذه الصلة بظهور الإسلام فكانت تنطلق منها الحملات لفتح المغرب[4]، وكذلك كانت طريقاً للحجاج والرحالة وطالبي العلم والتجُار، وكان يحكم في تلك الفترة إبراهيم الثاني الأغلبي (261- 289هـ/ 874- 901م)[5].

فقد خضعت دولة الأغالبة خضوعاً اسمياً للعباسيين وظلت مصر تؤازرهم وتساندهم في مواجهة المشاكل الداخلية التي تعترضهم، وتقوم بإسناد هذه المهام إلى والى مصر، حيث استطاعوا القضاء على العديد من الثورات وحركات التمرد التي حدثت في تلك الفترة[6]. وباستقلال أحمد بن طولون بمصر أصبح لهذه العلاقة الودية شأن آخر، حيث تغيرت عما كانت عليه، إلا أن الطرفين لم يشأ التصادم، وذلك لانصراف أحمد في سياستهِ إلى بلاد الشام والثغور، وانصراف الأغالبة إلى مواجهة القوى المعادية في البحر المتوسط، إلاّ أن العلاقة بينهم أخذت طابع العداء بكيد الطرفين لبعضهما، مما أدى إلى قيام المفرج بن سالم بثورة على أمير القيروان، وطلبه بعد ذلك أن يكون تابعاً لأحمد بن طولون، مما جعل الأغالبة يقومون بإثارة سكان برقة على

---

(1) عبداللطيف البرغوثي: المرجع السابق، ص 197.

(2) ابن الأثير: المصدر السابق، 327/6. كذلك صالح مصطفي مفتاح: المرجع السابق، ص 117.

(3) أحمد حسين: المرجع السابق، ص 491.

(4) محمود إسماعيل: الأغالبة (184- 296هـ) سياستهم الخارجية، مكتبة وراقة الجامعة، ط2 (فاس، 1978)ص 72.

(5) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص 120.

(6) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص120. كذلك محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص73.

أحمد بن طولون، والتي استطاع الطولونيون القضاء عليها[1].

ومما جعل العلاقة بين الطرفين تزداد سوءاً تفكير العباس بن أحمد بن طولـــون بغزو إفريقية[*]، مستغلاً خروج أبيه لإنطاكية، حيث عمل الذين معـــه علـــى تشـــجيعه وتزيين الأمر لهُ، وسهلوا عليه أمر إبراهيم بن الأغلب فقام بتجهيز حملة إلى أفريقيـــة لغزوها، وبمكاتبة إبراهيم بن الأغلب يخبرهُ بان "الخليفة المعتمدٌ قلدهُ إفريقية وأنه أقـــرهُ عليها"[2]، وفي سنة (266هـ/879م) دخل مدينة لبدة، فتلقاه عاملها وأهلها وأكرمـــوه، إلا أن العباس قام بالنهب وقتل رجالهم وسبي نسائهم[3]. فاستنجد أهلها بزعيم الإباضية[**] الذي كان معادياً للطولونيين[4] وهو إلياس بن منصور الزناتي النفوسي، وكان العبـــاس قبل ذلك قد كاتبهُ "يأمرهُ بالسمع والطاعة لهُ وإلا رحل إليه، ووطئ بلدهُ"[5]. فرد عليـــه زعيم الإباضية جواباً مع رسوله يقول له" قل لهذا الغلام إنك أقـــرب الكـــافرين منـــيِ وأولاهم بمجاهدتي وقد ظهر من قبيح فعلك مالا يمكننيِ معه التخلف عنك وعن جهادك، وأنا على أثر رسالتي إليك"[6].

جهز إلياس جيشاً عدده اثنا عشر ألف مقاتل، من البربر وقام إبراهيم بن الأغلـــب بإرسال غلامه "بلاغ"[*] إلى محمد بن قرهب عامله على طرابلس، للخروج إلـــى قتـــال العباس فالتقى الطرفان، وأبلى العباس بلاء حسناً، إلا أنه انهزم واستبيحت أمواله، وقتل أغلب جيشِه، وقد نجا العباس بعد أن فقد[7]، "سواده وذخائرهُ وجميع ما كان معـــه مـــن

---

(1) ابن الأثير: المصدر السابق، 263/5. كذلك محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 75.

)*(يذكر البلوي أن العباس خرج بسبب حماقته = البلوي: المصدر السابق، ص 253.

(2) ابن خلدون العبر، 301/4. كذلك محمد الطالبي: الدولة الأغلبية(184-296هـ /800- 909م) التـــاريخ السياسي، نقلة إلى العربية المنجـــي الصـــيادي، دار الغـــرب الإســـلامي (بيـــروت، د.ت)، ص 379، عبداللطيف البرغوتي: المرجع السابق، ص 198.

(3) البلوي: المصدر السابق، ص 253. كذلك ابن خلدون: المصدر السابق، 302/4.

) **(الإباضية فرقة من الخوارج تقول بإمامة عبدالله بن أباض وجمهرتهم اليوم في تونس وطرابلس وعمان وزنجبار= البلوي: المصدر السابق، ص 253.

(4) الكندي، ولاة مصر، ص 248.

(5) البلوي: المصدر السابق، ص 254. كذلك محمد الطالبي: المرجع السابق، ص 382.

(6) البلوي: المصدر السابق، ص 254. كذلك إحسان عباس: المرجع السابق، ص 62.

) *(أحد الموالي من أصل صقلي، كان يتمتع بثقة إبراهيم الثاني الكاملة = محمد الطالبي: المرجع الســـابق، ص382.

(7) ابن عساكر: تاريخ ابن عساكر، 219/7. كذلك ابن خلدون: المصدر السابق، 302/4، محمود إسماعيل:

المتاع والأموال والسلاح وما تحصل عليه من مصر"[1]. واستطاع العباس الهرب إلى برقة وهناك تم أسره وإرجاعه إلى أبيه[2]، وقد تحصل الأغالبة من هذهِ الموقعة على غنائم كثيرة استفادوا منها في إحداث رواجٍ اقتصادي في افريقية، كما عملوا على تنصيب والٍ على برقة بعد أن تفقدوا أحوالها وأصلحوا ما أمكنهم إصلاحه، بينما لم يتحصل جيش الأباضية على شيء زهداً وتعففاً منهم[3].

ثانياً: أسباب سقوط الدولة الطولونية:

ظلت هذه الدولة قرابة ثمانية وثلاثين عاماً تسيطر على مصر واستطاعت خلالها أن تمد ملكها حتى الشام وبرقة وأسيا الصغرى، وفلسطين، وأن تُقيم نهضة عمرانية تمثلت في القطائع والميدان والجامع. كذلك قيامها بتقريب العلماء وبتشجيعهم على العلم[4]، كما كونت جيشاً يُعتمد عليه يدين بالطاعة والولاء للأسرة الطولونية، إلا أن هذه الدولة بدأت في الاضمحلال والانهيار وذلك في السنوات العشر الأخيرة وتورد الأسباب التي أدت إلى سقوطها وانهيارها وما ترتب على ذلك من نتائج.

1. **انقسام البيت الطولوني:**

انقسام البيت الطولوني:

يُعد مقتل خمارويه بداية النهاية لهذه الدولة فقد ظهرت عدة أحزاب وفرق طامعة في قيادة الدولة وتتمثل في الأتي:

1. أبناء خمارويه الذين كانوا غير أهل للخلافة لأن أعمارهم لم تكن تتجاوز الرابعة عشر.
2. أعمامه الطامعون في السلطة.
3. غلمان خمارويه وجنده وقادة جيشه.

فلقد كانت الفئة الأخيرة تتمتع بنفوذ كبير في عهد خمارويه فتدخلت بعد استقرار

المرجع السابق، ص78.

(1) البلوي: المصدر السابق 255. كذلك الكندي: الولاة والقضاة، ص222، 223.

(2) ابن عساكر: المصدر السابق، 220/7.

(3) إحسان عباس: المرجع السابق، ص62. كذلك محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 78.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص 20. كذلك على إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 84.

البلاد وتخلصها من متاعب الحرب في الشؤون الداخلية للدولة، كما عمل خمارويه على تقريب القادة والجند إليه واسترضائهم، فكانوا حريصين على الاستمرار في التمتع بهذه الامتيازات، فكان هذا الحرص سبباً دفعهم بان يتركوا أبناء أحمد بن طولون وكان فيهم ذو الشجاعة والبأس والفطنه، والذين كان بمقدورهم الحفاظ على الدولة بسياسة حكيمة ولكنهم آثروا مبايعة الأمير جيش بن خمارويه ولم يبلغ الرابعة عشرة[1]، وكان "حبيساً لم يؤدبه الزمان ولا مَحَنة التجارب والعرِفان"[2]. ليكون هو الحاكم اسمياً، أما مُحِـركَ الأحداث فهو راجعٌ لهم، كما حرِصُوا على أن تسوُء العِلاقة بينه " جيش" وبين أعمامه مضر وشيبان وربيعة لزيادة تحقيق أطماعهم، وكان طبيعياً أن يختل نظام دولة يحكمها طفل مُنصرف عنها باللهو والشراب يحيط نفسه بطغمة من عابثي العامة الذي أدى إلى هيجان العامة عليه وخاصةً جند وغلمان أحمد بن طولون وموالية الذين لم يسوءهم حال الدولة بقدر ما ساءهم تقلص نفوذهم، لأنهم أصبحوا في المرتبة الثانية في عهد جيش بن خمارويه، مما أدى إلى اشتعال الفتنة وحدوث أول انشقاق في الجيش الطولوني سنة (283هـ/896م) والذي قاده بعض القواد من مصر وهم محمد بن إسحاق ابن كنداج وخاقان المفلحي وبدر بن جف، إلا أن محاولتهم لم يُكتب لها النجاح فلاذوا بالفرار إلى بغداد عقب فشلهم وانكشاف أمرهم[3]، ثم بدأت المحاولة الثانية والتي أدت في النهاية إلى مقتل جيش بن خمارويه وحرق بيته ومصادرة أمواله إثر قيامه بقتل عمه "نصر". تم بعد ذلك مبايعة هارون بن خمارويه سنة (284هـ/897م)[4]. ولم يكن قد أتم الرابعة عشر من عمره، وكان هدف هؤلاء القادة الأهداف نفسِها من تولى "جيش" أضف إلى ذلك أنهم أرادوا به القضاء على أنصار بني طولون من أعمام الأمير قضاءً تاماً، فنصبو عليه وصياً وهو أبو جعفر محمد بن أبي من كبار رجال بن طولون، وقد شاركه قادة من الجيش الطولوني وهم بدر الحمامي وفائق وصافي، فأصبحت الدولة منشقة بينهم، كل واحد منهم يسيطر على فريق من الجيش، يخضع له خضوعاً تاماً، وأصبحت شؤون الحكم في الدولة مقسمة بين أبي جعفر والقادة الثلاثة، إلا أن أبا جعفر أراد أن يكون له الأمر وحده دون شريك من القواد الثلاثة فعمد للدس والإيقاع بينهم ، فظهرت

(1) سيمر فراج: المرجع السابق، ص141، 142.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 88/3.

(3) المصدر السابق، 95/3. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق ص70.

(4) حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية، ص 133.

فتنه أخرى والتي أدت في نهاية الأمر إلى سقوط هذه الدولة ونهايتها، والتي انبعثت في بلده العباسة سنة (292هـ/904م) وأدت إلى مصرع هارون على يد أحد المغاربة، وانتهى مصير أبي جعفر الذي أنضم إلى القوات العباسية الزاحفة للقضاء على الطولونيين، ولم يجد شيبان بن طولون الذي تولى حكم البلاد ما يقاوم به هذه القوات الزاحفة إليها، فلم يكن هناك بدٌّ من التسليم، لِيُحْمَلَ إلى بغداد أسيراً(1).

2. ضعف الجيش وانحلالهِ:

نتيجة التناحر الذي كان على السلطة والتنافس الذي أصاب أفراد البيت الطولوني، ضعف الجيش واضطربت أحوال الديار المصرية، حيث كان الجيش في عهدي أحمد وابنه خمارويه يمثل القوة التي اعتمدا عليها في إقامة دولتهما وتوسيع نفوذهما، ولزيادة هيبتهم أمام الخلافة(2)، وعندما فرغت خزينة الدولة من الأموال قام قواد الجيش بعدة ثورات كانت سبباً من أسباب ضعف الدولة وانهيارها (3).

وكان من أسباب انحلال هذا الجيش هو تعدد عناصره، فقد تمت الإشارة إلى أن أحمد بن طولون ألف الجيش من أجناسٍ متعددة حيث أراد بذلك أن يضمن ولاءهم وأن تربطهم رابطة واحدة وهي الولاء له، ظناً منه أن خلفاءه سيسيرون على منواله، فلم يفعل هذا إلا ابنه خمارويه الذي بسبب تبذيره للأموال ظلت خزانة الدولة فارغة ولم يستطع بذلك إعطاء الجند مرتباتهم، مما أدى إلى انقسامهم. كذلك نجد أن أحمد بن طولون أستطاع أن يسيطر على هؤلاء الجند لما كان يتميز به من قيادة، وقدرة وذكاء، وما قام به من أعطيات لضمان ولائهم له ولخمارويه أيضاً، وبسبب غياب شخصيات قيادية لا تستطيع ملء ما تركه خمارويه، أدى هذا الأمر إلى عجز القوات عن الالتفاف حول أمير واحد قيادي يستطيع أن يملأ ما تركه من قبله مما جعلهم يتفرقون ويتآمرون من أجل السيادة والنفوذ وظهر هذا بوضوح في عهد هارون الذي عجز جيشه عن

---

(1) ابن خلدون: العبر، 308/4-309. كذلك سيمر فراج: المرجع السابق، ص144، 145، حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية، ص135، 136، أحمد مجاهد ومحمد مصطفى: المرجع السابق، ص 169.

(2) ستانلي لينبول: المرجع السابق، ص 95. كذلك عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق، ص 101، حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 139.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 101/3. كذلك أمينة بيطار: المرجع السابق، ص151، حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 140.

التصدي للأخطار الخارجية التي واجهت هذهِ الدولة[1].

3. **يقظة الخلافة العباسية:**

كانت الخلافة العباسية عند مجيء أحمد بن طولون تمر بفترة ضعف مما جعلها تفقد هيبتها وقوتها، وأدى ذلك إلى ظهور الدويلات المستقلة، رغم ولائها الديني الذي احتفظت به ومما وزاد الأمر سوءًا الثورات الخارجية التي عصفت بها، وكان أهمها ثورة الزنج التي قامت خلال الفترة (255-280هـ/868-893م)، ولكن عندما سيطر الموفق على الخلافة استطاع إنقاذها من الهاوية[2]، فقد تولى قيادة الجيش والشؤون الإدارية في الكوفة والحجاز واليمن ثم بغداد والجزيرة والبصرة والأهواز وفارس والعواصم، واستطاع الموفق بعد أن جمع في يده السلطتين العسكرية والإدارية في الدولة أن يقضي على ثورة الزنج التي استمرت خمسة عشر عاماً[3].

وبالرغم من انشغال الموفق بهذه الثورة، إلا انه سعى جاهداً للقضاء على الطولونيين، إلا أن مشاكل الخلافة لم تكن بالقدر الذي يسمح لهُ بالتدخل المباشر في مصر والشام[4]، وفي عهد المعتضد استطاع أن يستعيد نفوذ الخلافة وأن يظهر بصورة حاكم قادر على إدارة حكمه خاصة أنه ورث دولة مستقرة خالية من المشاكل عامرة بيت المال[5]، ودخل في علاقات مع الطولونيين في عهد خمارويه، إلا أن حقدهُ ظهر بعد مقتل خمارويه سنة (283هـ/896م)[6]، وازداد كذلك بعد وفاة زوجته قطر الندى فكشف المعتضد عن نيته ورغبته في القضاء على الطولونيين وظهر هذا بوضوح في عدم اعترافه بولاية هارون إلا بعد تنازله عن حلب وقنسرين والعواصم، فأصبح يتحين الفرص لاسترداد ما يمتلكه الطولونيون، واستمرت هذه الصحوة في أتم صورها في

---

(1) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 141.

(2) عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق، ص 103. كذلك حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 146.

(3) ابن كثير: المصدر السابق، 30/11. كذلك إلياس بك الأيوبي: تاريخ مصر الإسلامية، (القاهرة، 1932) 97/1، سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 75.

(4) عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق، ص 103.

(5) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 147. كذلك عبدالرحمن الرافعي وسعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق، ص 113.

(6) القلقشندي: مآثر الأناقة من معالم الخلافة، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، وزارة الإرشاد والأنباء (الكويت، 1964) 266/1.

عهد الخليفة المكتفي، حيث وصلت الدولة الطولونية إلى مرحلة لم تعد قادرة على إعادة ما كان بين يديها، بسبب تفرق شملها وضعف أمرائها، وتفكك جيشها، وصحوة الخلافة التي قدر لها أن تتخلص من متاعبها، وأن تسترد قوتها للقضاء على الطولونيين، وكما كان ضعف الخلافة العباسية سبباً في ظهور هذه الدولة كانت صحوتها ونهوضها وتخلصها من هذه المتاعب سبباً في القضاء على هذه الدولة نهائياً[1].

4. ضياع بلاد الشام:

يعد ضياع بلاد الشام من أهم النتائج التي ترتبت على ضعف الدولة الطولونية، وخاصة عقب مبايعة أبي العساكر بن خمارويه سنة (282هـ/895م)، حيث شهدت بلاد الشام أولى مظاهر الاختلال والسخط[2]، وبانحلال الجيش ظهرت الفتنة والانقسام الذي أدى إلى الضعف في هذه الدولة، ووصل إلى الشام التي كان فيها طغج بن جف نائباً عن خمارويه وهو من اشد الولاة سخطاً على الدولة وظهر واضحاً في رفضه مبايعة (جيش)، وعدم خضوعه له وكان هذا الأمر مؤشراً على بداية انهيار الدولة، لاسيما أن أموال بلاد الشام كانت بيد طغج[3]، ولم يكن لأبي العساكر القوة لاسترجاع نفوذه في الشام ولا إخماد حركات التمرد والعصيان، على غرار ما فعله أحمد بن طولون وخمارويه[4]، وبضعف أبي العساكر الذي لم يكترث إلى ما آلت إليه الدولة حتى عندما علِم بما قام به القادة من إسقاط اسمه وعدم اهتمامه بهذا الأمر[5]، مما جعل طغج يستغل هذا الأمر لصالحه، ولتحقيق أطماعه في بلاد الشام حتى بعد أن تولى هارون بعد مقتل أبا العساكر رفض بيعته التي مُنع منها تسعة أشهر. كذلك لم يكن هارون مؤهلاً لقيادة هذه الدولة لحداثة سنة مما جعل القادة يستبدون بالأمر، إلاّ أنهم أدركوا ضعفهم أمام طغج فقاموا بمكاتبته ومُساومته على أن يبقى لهُ نفوذه في ولايته كاملاً شرط إعلان ولائه

---

(1) سيمر فراج: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص148. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 76.

(2) أبو الفداء: المصدر السابق، 57/2. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص77.

(3) الكندي: الولاة والقضاة، ص 242. كذلك سمير فراج: المرجع السابق، ص149.

(4) سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 78. كذلك عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق، ص104.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 91/3.

وطاعته لهارون ومبايعته، وتم تسيير قوة بقيادة بدر الحمـــامى والحســـن بـــن أحمـــد الماذرائي[*] اللذين قاما بإصلاح الأوضاع في بلاد الشام وإقرار طغج على ولاية دمشق وسائر الأعمال فيها[1]. كما شهدت منطقة الثغور تمرداً حيـــث خرجـــت عـــن طاعـــة الطولونيين، ولم يستطع هارون إعادتها لطاعته، كما لم يستجب عاملها أحمد بن طغـــان لبيعة جيش. كذلك خليفته راغب الذي أصر على أن لا يبايع هارون، كما خرجت حلب هي الأخرى عن طاعة الطولونيين وأصبحت تحت السلطة العباسية مباشرة[2]، ولم يجد هارون أمام هذه الأحداث والتطورات ما يفعله وخاصة أن المعتضد بدأ يتدخل تـــدخلاً مباشراً في شؤون هذه الدولة وقد أفزعهم ذلك وعلموا أن تدخلـــه زعزعـــة لســـلِطان الطولونيين في مصر، فقام هارون في سنة (286هـ/ 899م) بعقد معاهدة مـــع الخلافـــة العباسية تنص على تنازل الطولونيين عن أعمال قنسرين والعواصم، وإبقـــائهم علـــى مصر والشام[3]، وبتنازل الطولونيين عن هذه الأعمال ضاع جزء مهم من أملاكهم.

5. ظهور القرامطة:

ظهرت هذه الحركة في قرية النهرين قرب الكوفة وكان زعيمهـــا مـــن منطقـــة خوزستان اسمه "حمدان قرمط" نسبة إلى قرمط بمعني مرض العين أو إلى رجل ينظـــر اسمه "كرميته"[**] وهم فرقة دينية لا تختلف عن الفرق الأخرى لبســـت ثوبـــاً سياســـياً وغرضها تحقيق أهدافها، حيث ظهرت على مسرح الأحداث في ســـنة (278هـ/891م) بعد القضاء على ثورة الزنج بحوالي سبع سنوات، في العراق وادعى صاحبها أنـــه مـــن سلالة عيسى عليه السلام ثم ادعى أنه من ذرية النبي (r) ومن أحد أحفـــاد محمـــد بـــن

)*(عند ابن خلدون: المصدر السابق (309/4) الحسين بن أحمد الماذرائي.

(1) ابن كثير: المصدر السابق، 77/11. كذلك ابن خلدون: المصدر السابق، 309/4، ابن تغـــري بـــري: المصدر السابق، 101/3.

(2) ابن خلدون: المصدر السابق، 308/4. كذلك أمينة بيطار: المرجـــع الســـابق، ص134، حســـن أحمـــد محمود: المرجع السابق، ص 150.

(3) ابن كثير: المصدر السابق، 80/11. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 118/3، حســـن أحمـــد محمود: المرجع السابق، ص 153.

) **(كرميته لحمرة عينيه، وهو بالنبطية "أحمر العينين" = ثابت بن سنان وابـــن العـــديم: تـــاريخ أخبـــار القرامطة، ترجمة الحسن الأعصم القرمطي، حققهُ سهيل زكار، دار الأمانة (بيروت، 1971) ص88.

الحنفية[1]، وزعم أنهُ عبدالله بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وظهر مطالباً بحقوق العلويين في الخلافة على أن دعوتهم تنزع إلى المساواة من ناحية أخرى[2].

وقد كان للقرامطة تأثير على الدولة الطولونية، حيث ازداد نشاطهم في العراق، واخذ زكرويه بن مهروية[**] زعيم قرامطة شمال العراق وغربها بالتوسع في سواد الكوفة ونشر نفوذه بواسطة أنصاره وأولاده وأصبحوا يشكلون خطراً على الخلافة آنذاك، إلا أنهم استطاعوا أن يقضوا على سبك الديلمي مولي المعتضد على الرصافة، ثم وجه إليهم الخليفة ضربات عنيفة بقيادة بدر غلام الطائي في نواحي الكوفة، فتمكن من مداهمتهم والقبض على الكثير منهم[3]، ثم اتجه القرامطة بعد ذلك إلى الشام بعد أن لقوا مقاومة عنيفة من الخلافة، وقد كان لظهورهم في عهد خليفتهم أبي سعيد الحسن الجنابي سنة (289هـ/901م) في بلاد الشام الأثر الكبير في تطور الأحداث في السنوات التالية، وكانوا السبب الرئيسي في القضاء على الطولونيين، فقد هاجم القرامطة في نفس العام أملاك الطولونيين، الذين تفرقت كلمتهم وتفرق شملهم وضعف جيشهم، حيث هاجموا دمشق الذي كان عليها طغج بن جف من قبل هارون بن خمارويه[4]، الذي "تهاون في الأمر، وظن أنهُ بعض الأعراب، بغير أُهْبة ولاعُدّة"[5]. وقد أدى هذا الأمر إلى هزيمة طغج ونهب عساكره ورجوعه إلى دمشق، وقد أرسل طغج إلى هارون بعد أن علم بزيادة قوة القرامطة وهيبتهم بأنه لم يعد قادراً على صدهم، إذ وصلوا إلى حد محاصرته في دمشق، ورغم قلة الإمكانيات لدى هارون، فقد أرسل جيشاً بقيادة بدر الحمامى وجماعة من القواد الذين توجهوا إلى الشام واستطاع الطولونيون هزيمة الجيش القرمطي وقتل قائدهم[6]، إلا أنهم سرعان ما جمعوا صفوفهم

---

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 504/6.

(2) سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 80. كذلك إسماعيل علي: المرجع السابق، ص804.

) **(عند ابن خلدون: المصدر السابق (309/4) ذكروية ابن مهداوية.

(3) ثابت بن سنان وابن العديم: المصدر السابق، ص 16. كذلك أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 142.

(4) البلوي: المصدر السابق، ص 50. كذلك المسعودي: التنبيه والإشراف، مكتبة الهلال (بيروت، 1981) ص338، ثابت بن سنان وابن العديم: المصدر السابق، ص 17، أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 142.

(5) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص 104.

(6) ثابت بن سنان وابن العديم: المصدر السابق، ص 23. كذلك أبو الفداء: المصدر السابق، 59/2، ابن

بقيادة الحسين بن زكرويه واستطاعوا هزيمة القوات الطولونية ودخلوا الشام واستولوا على حماة وبعلبك ومعرة النعمان[1].

وهكذا لم يجد الطولونيون وسيلة بعد هزيمتيهم إلا طلب المساعدة من الخلافة لصد هذا الخطر، فانتهز من خلالها المكتفي (289-901هـ) الفرصة للقضاء على الطولونيين واسترجاع هيبة الخلافة وقوتها، فأرسل جيشاً يقدر بعشرة آلاف، استطاع أن يقضي على القرامطة، بعد أن التقى بهم قرب حماة سنة (291هـ/903م)، وتم أسر زعيمهم زكرويه بن مهرويه وجماعة من أصحابه في العراق[2]، "وأمر المكتفي بضربهم وقطع أعناقهم"[3].

وبهذا لم تبق للخلافة إلا خطوة واحدة وهي القضاء على الطولونيين خاصة أنهم أصبحوا في رمقهم الأخير، وكان انتصارها هذا الخطوة الأولى التي جعلتها تتجه إلى مصر لاسترجاعها إلى حظيرة الخلافة.

غزو مصر وزوال الدولة الطولونية:

تُعد الخطوة الثانية التي اتخذها الخليفة المكتفي بعد قضائه على القرامطة وهي القضاء على الطولونيين، وما تبقى منهم، وهذا ما عملت عليه الخلافة لسنواتٍ طوال.

فقد أرسل الخليفة المكتفي في عام (292هـ/904م) جيشاً بقيادة محمد بن سليمان الذي شارك في القضاء على القرامطة، لغزو مصر، وكان محمد بن سليمان من الذين لعبوا دوراً بارزاً في تحريض المكتفي على قتال الطولونيين، مما جعل المكتفي يُعد لهُ جيشاً للقضاء عليهم[4]. قام محمد بن سليمان بمكاتبة دميانه قائد الأسطول العباسي في بلاد الشام والثغور يأمرهُ بالمسير بمراكبه إلى سواحل مصر وفلسطين، وقد أراد بهذا أن يكون قتاله للطولونيين برياً وبحرياً، وبالفعل استطاع سليمان أن يتقدم نحو بلاد الشام

تغري بردي: المصدر السابق، 104/13، أحمد حسين: المرجع السابق، 417/2.

(1) ابن خلدون: المصدر السابق، 309/4. كذلك سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص81، عمر محمد أبو القاسم: المرجع السابق، ص 108.

(2) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 108/3. كذلك أمنية بيطار: المرجع السابق، ص 105، سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 81.

(3) ابن خلدون: المصدر السابق، 309/4.

(4) أمنية بيطار: المرجع السابق، ص 152.

التي أخذ يجتاح مدنها واحدة تلو الأخرى دون أن يلقى مقاومة، وقد انضم إليه قادة من القواد الطولونيين منهم بدر الحمامي، وفائق، الذين دانو له بالسمع والطاعة، كما كتب إليه عامل فلسطين وصيف بن صوارتكين من قبل هارون بن خمارويه بطاعته، وبذلك ازدادت قوته، بعد انضمام هؤلاء القادة إليه(1).

استعد هارون لقتال محمد بن سليمان والذين انضموا إليه بعد أن وصلته أخبار زحفهم، ورغم ضعف الدولة وانحلالها إلا أن هارون قام بإرسال قواته عند العباسة، وإرسال قواته البحرية بقيادة وصيف القطرميز وخصيب البربري، إلى تنيس، فانهزم الأسطول الطولوني بعد أن دارت بين القوتين معركة أدت إلى سقوط هذه المدينة في أيدي العباسيين، كما سقطت بعد ذلك دمياط إثر توجه دميانه أمير البحر إليها، واستطاع أن يستولي على المراكب الراسية بها(2)، غير أن انصراف هارون لملذاته كان مدعاةً أن يقوم أحد أعمامه وهو شيبان لقتله سنة (292هـ/904م) ومن ثمَّ تولى الحكم من بعده، وقد زاد الأمر سوءاً انضمام باقي القادة الطولونيين إلى جيش محمد بن سليمان، الذي استغل هذا الوضع الذي آلت إليه الدولة، فتقدم وتجاوز مضربه في فلسطين، وانضمت إليه قوات الطليعة عند العباسة(3)، ورغم محاولات شيبان أن يكون بالمرصاد لقوات الدولة العباسية وأن يمنعهم من دخول المدينة، إلا أنه لم يستطع الصمود مما جعله يطلب الأمان من محمد بن سليمان(4)، الذي استطاع بعد ذلك أن يدخل مصر ويسترجعها وقام بحبس(5) من تبقى من بني طولون وصادر أموالهم ثم عمل على إحراق مدينة القطائع، وأشعل فيها النيران فالتهمت القصر والميدان والدور والأسواق، ولم يتبق من هذه الدولة العظيمة إلا مسجدها، وقد وصفها ابن تغري بردي بقوله "وزالت دولة بني طولون وكأنها لم تكن.. وكانت هذه الدولة من غرر الدول، وأيامهم

---

(1) الكندي: الولاة والقضاة، ص 244، 245. كذلك أمنية بيطار: المرجع السابق، ص 152، أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص 138.

(2) الكندي: المصدر السابق، ص 245، 246. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص110، أمنية بيطار: المرجع السابق، ص 153، أحمد عبدالمنعم الجمل: معالم تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي، دار المعرفة الجامعية (د.م، 2004).

(3) سيدة كاشف وحسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 84.

(4) أبو الفداء: المصدر السابق، 60/2. كذلك ابن تغري بردي: المصدر السابق، 137/3.

(5) ابن خلدون: المصدر السابق، 310/4. كذلك محمد جمال سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص 49، أحمد حسين: المرجع السابق، 499/2.

من محاسن الأيام"[1].

وقد رثى الشاعر أحمد بن يعقوب الدولة الطولونية عقب زوالها بقوله:

إنِ كُنتَ تسأل عن جَلالَة مُلِكهـــم فارتع وعج بمرابع الميـــــدان

وأنظر إلى تلك القُصورِ وما حَوت واسرَح بزِهرِة ذلك البُستـــــانِ

وإن اعتبرت ففيه أيضاً عبــــــرةٌ تُنَبيك كيف تصرف العصران[2].

وهكذا انتهت هذه الدولة بعد أن واجهت صراعات خفية وظاهرة، واتضح ذلك مـن خلال سرد الأحداث منذ تولي أحمد بن طولون، ثم ابنه خمارويه حتى تولي شيبان، الـذي انتهت في عهده هذه الدولة، التي حكمت مصر والشام ثمانية وثلاثين عاماً شهدت خلالهـا فترة من الرخاء والانتعاش، ظهر واضحاً في عهد أحمد بن طولون وابنه خمارويه ومـا قاما به من إصلاحات ومنشآت تمثلت في بناء المسجد والبيمارستان والقطـائع، وكـذلك إعدادهما جيشاً برياً وبحرياً استطاع صد الهجمات من آسيا الصغرى. كذلك فقد تمتعـت هذه الدولة باقتصاد زاخر وثروة استفاد منها أحمد وابنه مدة طويلة، ولكن بعد أن تولاهـا حكام ضعاف كثرة الصراعات الداخلية وطمع فيها أعداؤها من الخارج وأدى كل ذلك إلى سقوطها ورجوعها هي وبلاد الشام إلى حظيرة الخلافة العباسية.

---

(1) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 138،139/3.

(2) للتوسع في رثاء الدولة ينظر الكندي: المصدر السابق، ص 348، 349،350. كذلك المقريزي: الخطط: 323/1.

الخاتمـــــة

من خلال دراستي للدولة الطولونية تبين لي أن قيام هذه الدولة كانت نتيجـــة مـــا مرت بهِ الخلافة العباسية من ظروف سياسية وضعف خلفائها، أدى هـــذا الأمـــر إلـــى ظهور دويلات استطاعت أن تستقل عن الخلافة رُغم تبعيتها الاسمية لها، وكذلك مـــن العوامل الأخرى التي ساهمت في ظهور الدولة هو ما عانت منهُ الخلافة العباسية مـــن ثورات، ولعل أهمها ثورة الزنج التي استنزفت أموال الدولة وأنهكت قوتها.

فاستطاعت هذه الدولة أن تسيطر على مصر والشام لمدة أربعـــة عقـــود تقريبـــاً واتسمت في بداياتها بسمات القوة، حيث تكون الجيش القوي المدافع عن الدولـــة ضـــد أعدائها والقادر على التوسع على حساب غيرها من الدول، كما ظهر التشييد في كافـــة مجالاتها والتقدم في مختلف علومها، ولكن ما لبثت أن تعرضت هذه الدولة على شاكلة مثيلاتها لما تعرضت لها من عوامل الضعف والانحلال والتي أدت في نهاية الأمر إلى سقوطها.

وفي ضوء ما حوتهُ هذه الدراسة من معلومات عن هـــذه الدولة أتضح لـــي مـــا يلي:

1- وجد أحمد بن طولون، أول أمراء هذه الدولة، عاملاً مهماً مكنهُ من السيطرة على مصر وبسط نفوذهِ عليها، وهو ما تمر به مصر من ثورات وتعدد مراكـــز القـــوة فيها.

2- استطاع أحمد بن طولون تكوين جيش متعدد الأجناس تمكن خلالـــهِ مـــن تحقيـــق طموحاتهِ التي تجاوزت السيطرة على مصر فامتد نُفوذهِ حتى الشام ووصـــل إلـــى ليبيا.

3- شهدت البلاد في عهد أحمد بن طولون نهضة عمرانية وثقافية تمثلت في بناء البيمارستان ومدينة القطائع والتي غدت من أهم المدن لهذه الدولة زيادةً على قيامه بالعديد من التحصينات للثغور المصرية والشامية، كما واكبت الدولة مراحل تطور العلوم مما أدى إلى انتشار الأدباء والعلماء فيها.

4- تعد محاولة أحمد بن طولون نقلهِ للخلافة إلى مصر أكبر خطوة تدل على ما وصل إليه عهدهُ من قوة وإن لم يوفق في هذه الخطوة.

5- على الرغم من أن خمارويه "أول خلفاء هذه الدولة" قد قام باستكمال ما وقف عندهُ والدهُ وظهر ذلك في إنشاء بستانهِ وبركة الزئبق إلا أن استنزافه لأموال الدولة أدى إلى اضطراب جيشهِ وانقسامهِ وبالتالي ضعف الدولة عامةً.

6- بوفاة خمارويه دخلت الدولة في مرحلتها الأخيرة وذلك بتولي أمراء ضعاف لم يكونوا قادرين على تحمل أعباء الدولة، إضافةً إلى استلام أشخاص آخرين هذهِ المهام، وكان همهم الأول والأخير تحقيق مصالحهم الذاتية، الأمر الذي أدى إلى ضعف الدولة وبالتالي سقوطها وعودتها من جديد إلى حظيرة الدولة العباسية.

قائمـــــة المصـــــادر والمراجـــــع

أولاً: المصادر:

- القرآن الكريم (مصحف الجماهيرية)
- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد (ت: 668هـ/1269م).

عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت، 1965).

- ابن الأثير، عزالدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت: 630هـ/1232م).
  - الكامل في التاريخ، حققه واعتنى به عمر عبدالسلام تدمري دار الكتاب العربي (بيروت، 1999).
  - اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة القدسي (القاهرة، 1356)
- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت: 729هـ/1329م)

معالم القربة في أحكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه روين ليوي، مطبعة دار الفنون (كمبردج، 1937).

- ابن الأكفاني، محمد بن إبراهيم بن ساعد (ت: 749هـ/1348م)

نخبة الذخائر في أحوال الجواهر، عالم الكتب (بيروت، د.ت).

- ابن إياس، محمد بن أحمد (ت: 930هـ/1528م)

بدائع الزهور في وقائع الدهور، المطبعة الكبرى الأميرية (بولاق، 1311هـ).

- ابن أبيك، صلاح الدين خليل (ت: 764هـ/1362م)

الوافي بالوفيات، باعتناء س. ديدرنيغ، القسم السادس، يُطلب من دار النشر فرانز شتايز (فيسبادان، د.ت).

- ابن بطوطة، محمد بن عبدالله (ت: 779هـ/1377م)

رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (د.م، 1966).

- ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد (ت: 614هـ/1217م).

رحلة ابن جبير، دار صادر (بيروت، 1964).

- ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان (ت: 384هـ/994م).

طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية (القاهرة، 1955).

- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي (ت380هـ/996م).

صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت، د.ت)

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت: 597هـ/1200م).

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، (حيدر أباد الدكن، 1357هـ).

- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيدالله (ت:300هـ/912م).

المسالك والممالك، مكتبة المثنى (بغداد، د.ت).

- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت:808هـ/1405م).

  - العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة الأعلمي (بيروت، 1971م).
  - المقدمة، دار إحياء التراث العربي، ط3 (بيروت، د.ت)

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد (ت: 681هـ/1271م).

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة (بيروت، 1968).

- ابن الداية، أحمد (ت: 330هـ/941م).

الفلسفة السياسية عند العرب، حققهُ وقدم لهُ عمر المالكي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2 (الجزائر، 1980)

- ابن دقماق، إبراهيم بن أيدمر العلائي (ت: 809هـ/1392م)

الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر (بيروت، د.ت).

- ابن رستة، أبو علي أحمد بن عمر (ت: 310هـ/922م).

الأعلاق النفسية (ليدن، 1891)

- ابن زولاق، الحسن (ت: 387هـ/997م)
أخبار سيبويه المصري، قام بنقلهِ ونشرهِ وكتابة تراجمهُ محمد إبراهيم أسعد وحسين الدين، مطبعة النصر (القاهرة، 1933).
- ابن سنان، أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعد
سر الفصاحة، دار الكتب العلمية (بيروت، 1982م).
- ابن سنان، ثابت وابن العديم.
تاريخ أخبار القرامطة، ترجمة الحسن الأعصم القرمطي، حققهُ سهيل زكار، مؤسسة الرسالة (بيروت، 1971).
- ابن سينا، أبو علي الحسين بن علي (ت: 428هـ/1036م).
القانون في الطب، دار صادر (بيروت، د.ت).
- ابن شداد، عزالدين أبي عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت: 684هـ/1285م).
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام بالجزيرة، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان (د.م، د.ت).
- ابن الصيرفي، أمين الدين تاج الرياسة أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان (ت: 542هـ/1148م).
الأشارة إلى من نال الوزارة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي (القاهرة، 1925).
- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت: 709هـ/1309م).
الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر (بيروت، 1966م).
- ابن ظهيرة، أبو الطيب محب الدين أحمد بن محمد (ت: 885هـ/1480م).
الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، مطبوعات دار الكتب (القاهرة، 1969).
- ابن عبدالحكم، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله (ت:257هـ/871م)
فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى (بغداد، 1920)

- ابن عبدالظاهر، محي الدين أبو الفضل عبدالله (ت:692هـ/1293م).

- تشريف الأيام والعصور في مسيرة الملك المنصور وتتناول الحقيقة بين سنتين 678هـ و689هـ، حققه مراد كامل، راجعه محمد علي النجار، الشركة العربية للطباعة والنشر (د.ت، 1961).
- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، حققه وقدم له وعلق عليه أيمن فؤاد سيد، أوراق شرقية للطباعة والنشر (بيروت، 1996).

- ابن العبري، غريغوريوس بن أهرن الملطي (ت: 685هـ/1286م).

تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية (بيروت، 1958)

- ابن العديم، كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد (ت: 660هـ/1262م).

زبدة الحلب في تاريخ حلب، عنى بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان، المعهد الفرنسي (دمشق، د.ت).

- ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي (ت: 571هـ/1175م).

تاريخ ابن عساكر، اعتنى بترتيبه وتصحيحه عبدالقادر أفندي بدران، مطبعة روضة الشام (دمشق، 1330).

- ابن علي، يحي بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت: 1035هـ/1100م).

غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، مراجعة محمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربي (القاهرة، 1968).

- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمذاني (توفى أواخر القرن 3هـ أوائل 10م).

مختصر كتاب البلدان، مكتبة المثنى (بغداد، 1303هـ).

- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت: 276هـ/889م)

كتاب الأنواء في مواسم العرب، صُحح عن النسخ المحفوظة من مكتبة بودلين (أكسفورد، د.ت).

- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ (ت: 774هـ/1372م)
  - البداية والنهاية، مكتبة المعارف (بيروت، 1966).
  - طبقات الشافعية، تحقيق عبدالحفيظ منصور، دار المدار الإسلامي (بيروت، 2004).
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق (ت: 380هـ/990م).
  الفهرست، مكتبة خياط (بيروت، د.ت).
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت: 711هـ/1311م)
  لسان العرب، دار صادر، ط3 (بيروت، 1994).
- أبو شامة، عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين (ت:665هـ/1267م).
  الروضتين في أخبار الدولتين (القاهرة، 1278هـ).
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت: 732هـ/1234م).
  المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية (مصر، د.ت).
- الأتابكي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت:874هـ/1469م).
  النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة، 1932م).
- الأربلي، عبدالرحمن سنبط (ت: 717هـ/1317م)
  خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، وقف على طبعه وتصحيحه مكي السيد جاسم، مكتبة المثنى (بغداد، د.ت).
- الأزدي، جمال الدين خليل ابن ظافر (613هـ/1216م).
  أخبار الدول المنقطعة، تحقيق عصام هزايمة وآخرون، دار الكندي (الأردن، 1999).
- الأسدي، محمد بن محمد خليل
  التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبدالقادر أحمد طليمات، دار الفكر

العربي (القاهرة، 1967).
- الأصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت: 346هـ/957م)
المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال، مراجعة محمد شفيق غربال، دار القلم (القاهرة، 1961).
- بالغزي، كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى
نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية (حلب، د.ت).
- البحتري، أبو عُبادة الوليد بن عبيد
ديوان البحتري، عنى بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، ط2 (مصر، د.ت).
- البكري، أبي عبيدالله بن عبدالعزيز (ت/487هـ/1094م).
معجم ما استعجم، عارضهُ بمخطوطات القاهرة، وحققهُ وضبطهُ وشرحهُ مصطفى السقا، عالم الكتب (بيروت، د.ت)
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت: 279هـ/892م).
فتوح البلدان، نشره ووضع ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، د.ت).
- البلوي، أبو محمد عبدالله بن محمد المدني (لم تُعرف سنة وفاته)
سيرة أحمد ابن طولون، تحقيق محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة، د.ت).
- الترمانيني، عبدالسلام.
أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين (د.م. 1988).
- التنوخي، القاضي أبو علي الحسن (ت: 384هـ/994م).
- الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر (بيروت، 1978)
- المستجاب من فعلات الأجواد، عني نشرهِ وتحقيقه محمد كرد علي، مطبعة الترقي (دمشق، 1946).

- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر (ت: 255هــ/868م).
التبصير بالتجارة، ط2 (القاهرة، 1935).
- الحموي، شهاب الدين ياقوت (ت: 626هــ/1228م).
- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، اعتنى بتصحيحه د.س. مرجليون، الطبعة الهندسية بالموسكي، ط2 (القاهرة، 1923).
- معجم البلدان، دار صادر (بيروت، 1957)
- الحنبلي، أبو الفرج بن رجب (ت: 795هــ/1392م).
الاستخراج لأحكام الخراج، صححه وعلق عليه عبدالله الصديق، دار الحداثة للطباعة والنشر (د.م، 1982).
- الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي بن العماد (ت:1089هــ/1687م).
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر (بيروت، د.ت).
- الدمشقي، شمس الدين أبي عبدالله (ت: 726هــ/1326م)
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر (بيروت، د.ت).
- الذهبي، الحافظ شمس الدين أبي عبدالله (ت: 746هــ/1347م).
دول الإسلام، الأعلمي للمطبوعات (بيروت، د.ت).
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت: 748هــ/1348م).
تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط2 (بيروت، 1994).
- الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر (توفى بعد 666هــ/1267م).
مختار الصحاح، دار المعرفة (بيروت، 2005).
- الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني (ت: 1205هــ/1790م).
تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية (القاهرة، 1888).

- الزركلي، خير الدين.

الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (د.م، د.ت).

- الزهري، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر (متوفى في أواسط القرن السادس الهجري).

كتاب الجغرافية، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية (بورسعيد، د.ت).

- السكاكي، أبو يعقوب بن علي (ت: 626هـ/1228م)

مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي (القاهرة، 1937)

- السمعاني، أبو سعد عبدالكريم (ت: 562هـ/1166م).

الأنساب، تحقيق محمد عوامة، مطبعة محمد هاشم الكتبي (دمشق، د.ت).

- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن محمد (ت: 911هـ/1505م).

- بُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي (القاهرة، 1965)
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية (بيروت، 1997)

- الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (ت: 388هـ/998م).

الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، ط2 (بغداد، 1966).

- الشافعي، عبدالرحمن بن نصر بن عبدالله محمد الشيزري (ت:589هـ/1193م)

نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة السيد عبدالعزيز سالم، دار الثقافة (بيروت، د.ت).

- الشدياق، الشيخ طنوش.

- كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، تقديم فؤاد أفرام البستاني،

منشورات الجامعة اللبنانية (بيروت، 1970).

- طبقات الحُفاظ، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة (د.م، 1973م).

- الصابي، أبو الحسن الهلال بن المحسن (ت:448هـ/1056م)

الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية (القاهرة، د.ت).

- الصدفي، رزق الله منقريوش.

تاريخ دول الإسلام، مطبعة الهلال (مصر، 1907م).

- الطبري، أبو جعفر محمد جرير (ت: 310هـ/922م).

تاريخ الأمم والملوك، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر (بيروت، د.ت).

- الطحاوي، أبو جعفر (ت:321هـ/933م).

معين الأمة على معرفة الوفاق والخلاف بين الأئمة، تحقيق وتعليق حمدي الشيع، دار اليقين (المنصورة، 2007).

- غريط، محمد.

فواصل الجُمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان، المطبعة الجديدة (فاس، 1346هـ).

- القزويني، زكريا بن محمد (ت: 682هـ/1283م).

آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر (بيروت، 1969).

- القفطي، جمال الدين أبو الحسن (ت: 624هـ/1226م)

تاريخ الحكماء، مكتبة المثنى (بغداد، د.ت).

- القلقشندي، أحمد بن علي (ت: 821هـ/1418م).

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الفكر (بيروت، 1987).
- مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (الكويت، 1964).

- القمي، عباس (ت: 448هـ/1056م).
الكُنى والألقاب، مؤسسة الوفاء، ط2 (بيروت، 1983).
- الكُتبي، محمد بن شاكر (ت: 764هـ/1362م).
فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة (بيروت، د.ت).
- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت: 350هـ/961م).
- فضائل مصر، تحقيق إبراهيم أحمد العدوي وعلي محمد عمر، مكتبة وهبة (القاهرة، 1971).
- ولاة مصر، تحقيق حسنين نصار، دار صادر (بيروت، 1959).
- الولاة والقضاة، مهذباً ومصححاً بقلم رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين (بيروت، 1908).
- المالقي النباهي، أبو الحسن علي بن عبدالله بن حسن الجذامي (ت: 792هـ/1389م).
تاريخ قضاة الأندلس، "المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا" ضبطته وشرحته مريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية (بيروت، 1995).
- المالقي، أبو الحسن علي بن محمد المعافري.
الحدائق والغناء في أخبار النساء، تراجم شهيرات النساء في صدر الإسلام، تحقيق وتقديم عائدة الطيب، الدار العربية للكتاب (طرابلس، د.ت).
- المالكي، أبو بكر محمد بن محمد الوليد الفهري الطرطوشي (ت:520هـ/1126م).
سراج المملوك، حققهُ وعلق عليه نُعمان صالح الصالح، دار العاذرية (الرياض، 2005.

- المـــاوردي، أبـــو الحســـن علـــي بـــن محمـــد بـــن حبيـــب البصـــري (ت: 450هــ/1058م).

الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث (القاهرة، 2006).

- مجهول، مؤلف.

الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق سعد زغلول عبدالحميـــد، دار الشؤون الثقافية (بغداد، د.ت).

- مجهول، مؤلف.

العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق نبيلة عبـــدالمنعم داود، مطبعة النعمان (النجف، 1972).

- المرتضى، علي بن الحسين الشريف (ت: 355هــ/965م).

طيف الخيال، تحقيق حسن كامل الصـــيرفي، مراجعـــة إبـــراهيم الأبياري، دار إحياء الكتب العربية (د.م. 1962).

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت: 346هــ/957م).

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس (بيروت، د.ت).
- التنبيه والإشراف، مكتبة الهلال (بيروت، 1981م).

- المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله بن محمد (ت: 380هــ/990م).

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، ط3 (القـــاهرة، 1991).

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت: 845هــ/1441م).

- اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيـــق جمـــال الدين الشيال، دار الفكر العربي (القاهرة، 1948).
- المقفي الكبير، تحقيق محمد البعلاوي، دار الغـــرب الإســـلامي (بيروت، 1991).
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار "الخطط المقريزيـــة"، دار صادر (بيروت، د.ت).

- النقود الإسلامية المسمى بشذورة العقود من ذكر النقود، تحقيق وإضافات محمد السيد علي بحر العلـــوم، منشـــورات المكتبـــة الحيدرية، ط2 (النجف، 1967).

- النووي، أبو زكريا محيي الدي يحيى (ت: 676هـ/1277م)

رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، عنى بتحقيـــق أصـــوله رضوان محمد رضوان، دار الإرشاد (بيروت، 1968)

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت: 732هـ/1334م).

نهاية الإرب في فنون الأدب، مطابع كوستا تســوماس وشـــركاه (القاهرة، د.ت).

- النيسابوري، أبو الحســن مســلم بــن الحجــاج بــن مســلم القشــيري (ت: 261هـ/874م)

صحيح مسلم، حققه وصححه محمد فؤاد عبــدالباقي، دار الفكـــر (بيروت، 1999).

- اليافعي، أبو محمد عبدالله بن أسعد (ت: 768هـ/1366م).

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبــر مـــن حـــوادث الزمان، مؤسسة الأعلمي، ط2 (بيروت، 1970).

- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت: 284هـ/897م).
  - تاريخ اليعقوبي، بيروت (بيروت، 1960).
  - البلدان، طبعة دي غويه (ليدن، 1892م).

ثانياً: المراجع:

- الأبيض، أنيس.

بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مطبعة جردس بـــرس (لبنـــان، 1964م).

- أحمد، أحمد عبدالرازق.

تاريخ وآثار مصر الإسلامية من الفتح العربي حتـــى نهايـــة العصـــر الفاطمي، دار الفكر العربي (القاهرة، 2004).

- أبو خليل، شوقي.

الحضارة العربية الإســـلامية، منشـــورات كليـــة الـــدعوة الإســـلامية (طرابلس، 1987م).

- أبو بكر عبدالمنعم وسعاد ماهر وآخرون.

القاهرة في ألف عام 1969-1969م،دار الكاتب العربـــي (القـــاهرة، 1969م).

- الإسكندر، عمر وأ.ج. سفدج.

تاريخ مصر إلى الفتح العثمـــاني، مكتبـــة مـــدبولي، ط2 (القـــاهرة، 1996م).

- إسماعيل، محمود.

الأغالبة (184-296هـــ) سياستهم الخارجية، مكتبة وراقة الجامعـــة، ط2 (فاس، 1978م).

- أمين، أحمد.

ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، ط5 (بيروت، 1969م).

- الأنصاري، ناصر.

تاريخ أنظمة الشرطة في مصر، دار الشروق (القاهرة، 1990م).

- الأيوبي، إلياس.

تاريخ مصر الإسلامية (القاهرة، 1932م).

- الباشا، حسن.
الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1957م).
- باشا، علي مبارك.
الخطط التوفيقية، المطبعة الأميرية (بولاق، 1305هـ).
- بدر، مصطفى طه.
مصر الإسلامية (من الفتح الإسلامي حتى زوال الدولة الإخشيدية)، مكتبة النهضة المصرية، ط2 (القاهرة، 1959م).
- البستاني، بطرس.
أدباء العرب في الأعصر العباسية حياتهم، آثارهم، ثقافتهم، دار المكشوف، ط6 (بيروت، 1968م).
- البرغوثي، عبداللطيف محمد.
تاريخ ليبيا الإسلامي من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العثماني، دار صادر (بيروت، 1972م).
- برنار، صامويل.
وصف مصر، الترجمة الكاملة، الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، الجزء الثالث الموازين والنقود، تحقيق زهير الشايب، مكتبة مدبولي (القاهرة، د.ت).
- بروكلمان، كارل.
تاريخ الشعوب الإسلامية، نقلهُ إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط6 (بيروت، 1974م).
- البغدادي، انستاس ماري الكرملي.
النقود العربية وعلم النميات، الناشر محمد أمين دمج (بيروت، د.ت).
- البغدادي، محمد رضا.
تاريخ العلوم وفلسفة التربية العلمية، دار الفكر العربي (القاهرة، 2003م).

- بيطار، أمينة.
الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (132-358هـ/750-968م)، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي (دمشق، 1980م).
- بيومي، السباعي.
تاريخ الأدب العربي، الجزء الثالث من العصر العباسي بالمشرق، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1953م).
- تدمري، عمر عبدالسلام.
تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، عصر الصراع العربي البيزنطي والحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة (د.م، د.ت).
- التليسي، بشير رمضان وجمال هاشم الذويب.
تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار المدار الإسلامي (بيروت، 2002م).
- الجراري: عبدالله بن العباس.
تقدم العرب في العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوروبا، دار الفكر العربي (القاهرة، 1961م).
- جمال الدين، عبدالله محمد.
في تاريخ مصر الإسلامية، دار الثقافة للنشر والتوزيع (الفجالة، 1992م).
- جمعة، إبراهيم.
دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة مع دراسة مقارنة لهذه الكتابات في بقاع أخرى من العالم الإسلامي، دار الفكر العربي (القاهرة، د.ت).
- الجمل، أحمد عبدالمنعم.
معالم تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي، دار المعرفة الجامعية (د.م، 2004م).

- جواتياين، س.د.
دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق عطية القوصي، وكالة المطبوعات (الكويت، 1980م).
- حتي، فيليب.
تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، تحقيق كمـــال اليـــازجي، دار الثقافـــة (بيروت، د.ت).
- حتي، فيليب وادوارد جرجي وجبرائيل جبور.
تاريخ العرب مطول، ط4 (د.م، 1965م).
- حتي، فيليب وأنيس فريحة ونقولا زيادة.
لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحالي، دار الثقافة (بيروت، د.ت).
- حسن، حسن إبراهيم.
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضـــة المصرية، ط7 (القاهرة، 1965م).
- حسن، حسين الحاج.
حضارة العرب في العصر العباسي، المؤسسة الجامعيـــة للدراســـات والنشر والتوزيع (بيروت، 1994م).
- حسن، علي إبراهيم.
مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1993م).
- حسن، رضا السيد.
المعارك والأسرى بين العرب والروم، الدار العالمية للطباعـــة والنشـــر والتوزيع (بيروت، 1985م).
- حسن، زكي محمد.
الفن الإسلامي في مصر من الفتح العربي إلى نهاية العصر الطولوني، دار الرائد العربي (بيروت، د.ت).

- حسين، محمد كامل.
- أدب مصر الإسلامي (عصر الولاة)، دار الفكر العربي (القاهرة، د.ت).
- الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى أواخر الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1959م).

- الحصان، عبدالرازق.

الحسبة، مطبعة التفيض (بغداد، 1946م).

- حلاق، حسان.
- تعريب النقود في العصر الأموي الحياة الاقتصادية والمالية والإدارية، دار النهضة (بيروت، 1988م).
- دراسات في التاريخ والحضارة الإسلامية، تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، دار النهضة العربية (بيروت، 1988م).

- حمادة، محمد ماهر.

الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة 247-656هـ/861-1258م، دراسة ونصوص، مؤسسة الرسالة، ط2 (بيروت، 1982م).

- حميدة، عبدالرازق.

الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى الفاطميين، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1951م).

- الحويري: محمود محمد.

مصر في العصور الوسطى من العصر المسيحي حتى الفتح العثماني، المكتب المصري، ط2 (القاهرة، 2002م).

- الخربوطلي، علي حسني.
- الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (القاهرة، 1969م).

• الإسلام في الحوض البحر المتوسط، دار العلم للملايين (بيــروت، 1970م).

- الخضري، محمد.

محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية "الدولة العباسية" راجعه واعتنــى به نجوى عباس، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع (القاهرة، 2003م).

- الدباغ، مصطفى مراد.

الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنـا فلسـطين، دار الطليعة (بيروت، 1980م).

- الدبس، يوسف إلياس.

تاريخ سوريا في أيام الخلفاء إلى نهاية القرن الحادي عشر، المطبعـة العمومية (بيروت، 1900م).

- الدجيلي، عبدالصاحب عمران.

أعلام العرب في العلوم والفنـون، مطبعـة النعمـان، ط2 (النجـف، 1966م).

- الدقر، عبدالغني.

الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر 150-204هـ، دار القلم (بيـروت، 1972م).

- دحلان، السيد أحمد.

الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبويـة، المكتبـة التجاريـة الكبرى (مصر، 1354هـ).

- الدفاع، علي عبدالله.

العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية، مؤسسة الرسـالة، ط2 (بيروت، 1983م).

- دهمان، محمد أحمد.

في رحاب دمشق، دراسات عن أهم أماكنها الأثرية ومقالات عن أهـم حوادثها المجهولة وأبحاث ثقافية، دار الفكر (دمشق، 1982م).

- دياب، صابر محمود.
سياسة الدولة الإسلامية في حوض البحر المتوسط (القاهرة، 1987م).
- الرافعي، مصطفى.
حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة، دار الكتاب اللبنـــاني، ط2 (بيروت، 1968م).
- الرافعي، عبدالرحمن وسعيد عبدالفتاح عاشور.
مصر في العصور الوسطى من الفتح حتى الغزو العثماني، دار النهضة العربية (القاهرة، 1994م).
- الرحموني، محمد الشريف.
نظام الشرطة في الإسلام إلى أواخر القرن الرابـــع الهجـــري، الـــدار العربية للكتاب (د.م، 1983م).
- الرحيم، عبدالحسين مهدي.
تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الجامعـــة المفتوحـــة (طـــرابلس، 1995م).
- الرفاعي، أنور.
الإنسان العربي والتاريخ، دار الفكر (القاهرة، 1971م).
- رفقة، منيف.
تاريخ العرب والإسلام حتى الغزو العثماني، شركة مركز كتب الشرق الأوسط، (البصرة، د.ت).
- روسي، أتوري.
ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، تعريب وتقديم خليفة محمـــد التليسي، دار الثقافة (بيروت، 1974م).
- الريس، ضياء الدين.
الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، دار المعارف، ط3 (القـــاهرة، 1964م).

- زاده، طاش كبرى.

مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العلمية (بيروت، 1985م).

- الزحيلي، وهبه.

نظام الإسلام، منشورات جامعة بنغازي (بنغازي، 1974م).

- زكار، سهيل.

تاريخ العرب والإسلام منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد، دار الفكر، ط2 (بيروت، 1977م).

- زكي، عبدالرحمن.

القاهرة تاريخها وآثارها (969هـ-1825م) من جوهر القائد إلى الجبرتي، الدار المصرية للتأليف والترجمة (مصر، 1966م).

- زيدان، جرجي.

- أحمد بن طولون، دار الهدى الوطنية (بيروت، د.ت).
- تاريخ التمدن الإسلامي في عصر الإسلام، مطبعة الهلال (القاهرة، د.ت).

- سالم، السيد عبدالعزيز.

- البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية، 1993م).
- دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، جامعة بيروت (بيروت، 1970م).

- سالم، السيد عبدالعزيز وسحر السيد عبدالعزيز سالم.

محاضرات في تاريخ الحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية، 2001م).

- السامرائي، حسام قوام.

المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية خلال (247-334هـ/861-945م) قدم له عبدالعزيز الدوري، مكتبة دار الفتح (دمشق، 1971م).

- السامرائي، خليل إبراهيم وطارق فتحي سلطان وآخر.
تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي (132-656هـ/749-1258م) منشورات دار الكتب (الموصل، 1988م).
- سرور، محمد جمال الدين.
الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، دار الفكر العربي (القاهرة، 1966م).
- سعداوي، نظير حسان.
نظام البريد في الدولة الإسلامية، دار مصير للطباعة (الفجالة، 1953م).
- سليم، محمود رزق.
عصر سلاطين المماليك ونتاجهُ العلمي والأدبي، مكتبة الأدب ومطبعتها بالجماميز (د.م، د.ت).
- سليمان، محمود أحمد.
الجيش والقتال في صدر الإسلام (الأردن، 1987م).
- سومة، أحمد.
الشريف الإدريس في الجغرافية العربية، أشرفت على التنفيذ لجنة من نقابة المهندسين العراقية (د.م، 1974م).
- سيد يو، ل. أ.
تاريخ العرب العام إمبراطورية العرب، حضارته، ومدارسهم الفلسفية والعلمية والأدبية، نقله إلى العربية عادل زعيتر، عيسى البابي الحلبي، ط2 (حلب، 1969م).
- الشاعر، محمد فتحي.
الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، دار المعارف (القاهرة، 1992م).

- شافعي، فريد.
العمارة العربية في مصر الإسلامية "عصر الولاة"، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (القاهرة، 1970م).
- شبارو، عصام محمد.
قاضي القضاة في الإسلام، دار النهضة العربية، ط2 (بيروت، 1992م).
- الشريقي، إبراهيم.
التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرناً منذ العهد النبوي حتى العصر الحاضر، مؤسسة نوفل للطباعة والنشر والتوزيع، ط2 (د.م، 1971م).
- الشطشاط، علي حسين.
- تاريخ الجراحة في الطب العربي من القرن (3-7هـ/9-13م)، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1999م).
- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار قباء (القاهرة، 2001م).
- الطبيب والمترجم والناقل ثابت بن قرة الحراني، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1990م).
- الشكعة، مصطفى.
الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب النثر، الدار المصرية اللبنانية، ط3 (القاهرة، 1993م).
- شكيبة، مكي.
السودان عبر القرون، دار الثقافة (بيروت، د.ت).
- شلبي، أحمد.
التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1967م).

- شلبي، أبو زيد.
تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، مكتبة وهبة (القاهرة، 1964م).

- الشيال، جمال الدين.
دراسات في التاريخ الإسلامي، دار الثقافة (بيروت، 1981م).
- الصالح، صبحي.
النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، ط2 (بيروت، 1976م).
- الصعيدي، حازم عبدالمتعال.
النظرية الإسلامية في الدولة مع المقارنة بنظرية الدولة في الفقه الدستوري الحديث، دار النهضة المصرية (القاهرة، 1977م).
- ضيف، شوقي.
تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات بمصر، دار المعارف، ط2 (القاهرة، 1990م).
- الطالبي، محمد.
الدولة الأغلبية (184-296هـ/800-909م) التاريخ السياسي، نقله إلى العربية المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي (بيروت، د.ت).
- طلفاح، خير الله.
القضاء عند العرب، مطبعة المعارف (بغداد، 1973م).
- العارف، عارف.
المفصل في تاريخ المقدس، مطبعة المعارف (القدس، 1961م).
- العبادي، أحمد مختار.
في التاريخ العباسي والفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية، د.ت).

- العبادي، أحمد مختار والسيد عبدالعزيز سالم.
تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، جامعة بيروت العربية (بيروت، 1972م).
- العبادي، عبدالحميد، ومحمد مصطفى زيادة وآخر.
الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها، مكتبة نهضة مصر، ط3 (القاهرة، 1958م).
- عباس، إحسان.
تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري، دار ليبيا للنشر والتوزيع (بنغازي، 1967م).
- عبدالحميد سعد زغلول.
العمارة والفنون في دولة الإسلام، منشأة المعارف (الإسكندرية، د.ت).
- عبدالفتاح، صفاء حافظ.
نظم الحكم في الدولة العباسية في أوائل القرن الثالث الهجري إلى دخول بني بويه بغداد، دار الفكر العربي (القاهرة، 1985م).
- عبدالمنعم، حمدي.
ديوان المظالم نشأته وتطوره واختصاصاته مقارناً بالنظم القضائية الحديثة، دار الشروق (بيروت، 1983م).
- العدوي، إبراهيم أحمد.
تاريخ العالم العربي وحضارته في العصر الإسلامي، دار نهضة مصر (القاهرة، د.ت).
- عدي، نديم.
تاريخ الأدب العربي، مكتبة ربيع، ط3 (حلب، 1954م).
- عرنوس، محمد محمد.
تاريخ القضاء في الإسلام (القاهرة، 1934م).

- عكوش، محمود.
تاريخ ووصف الجامع الطولوني، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة، 1927م).
- علي، إبراهيم فؤاد أحمد.
الموارد المالية في الإسلام، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3 (القاهرة، 1972م).
- علي، أحمد إسماعيل.
تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي (132-463هـ/749-1070م) دراسة تاريخية سياسية اجتماعية اقتصادية عسكرية، دار دمشق (دمشق، 1983م).
- علي، وفاء محمد.
  - الزواج السياسي في عهد الدولة العباسية، دار الفكر العربي (القاهرة، 1988م).
  - صفحات من تاريخ العباسيين، دار الفكر العربي (القاهرة، د.ت).
- عليان، شوكت محمد.
السلطة القضائية في الإسلامية "دراسة موضوعية مقارنة"، دار الرشيد (الرياض، 1982م).
- علام، نعمت إسماعيل.
فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، دار المعارف، ط2 (مصر، د.ت).
- عنان، محمد عبدالله.
مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، مكتبة الخانجي، ط2 (القاهرة، 1969م).
- عيسى، أحمد.
تاريخ البيمارستان في الإسلام، دار الرائد العربي، ط2 (بيروت، 1981م).

- عيسى، شحاته.
القاهرة، دار الهلال (القاهرة، د.ت).
- غيانة، بوجنيا.
تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت، 1966م).
- غيث، زكي محمد وآخرون.
محاضرات في التاريخ الإسلامي، مطبعة الأزهر (القاهرة، 1995م).
- غنيم، محمد بك.
محاسن السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك، مطبعة العلوم (القاهرة، 1938م).
- غورفروا، م.
النظم الإسلامية، نقله إلى العربية فيصل السامر وصالح الشماع، دار النشر الجامعية (د.م، د.ت).
- فرج، فؤاد.
القاهرة، تاريخ المدن القديمة ودليل المدينة الحديثة، مطبعة المعارف ومكتبتها (مصر، 1944م).
- فرغلي، أبو محمد.
الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، 1991م).
- فريد، محمد.
تاريخ الدولة العليا العثمانية، دار الجيل (بيروت، 1977م).
- فكري، أحمد.
مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف (الإسكندرية، 1961م).
- فهمي، عبدالرحمن، سامح عبدالرحمن فهمي.
المسكوكات الإسلامية (فجر الإسلام والعصور الأموية والعباسية والفاطمية)، (القاهرة، 2001م).

- فهمي، علي محمود.
التنظيم البحري الإسلامي شرق المتوسط من القرن الأول حتى الرابع الهجري/السابع عشر الميلادي، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية (د.م، 1997م).
- القاضي، النعمان.
الحديث الشريف راوية ودراية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (القاهرة، 1975م).
- القطب، القطب محمد.
نظام الإدارة في الإسلام، دراسة مقارنة بالنظم المعاصرة، دار الفكر العربي (القاهرة، 1978م).
- قطب، محمد علي.
علوم الحديث، دار الإرشاد (بيروت، 1967)
- كاشف، سيدة إسماعيل.
  - أحمد بن طولون، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر (د.م، د.ت).
  - مصر في عصر الولاة من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، د.ت).
  - مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، دار الفكر العربي (القاهرة، 1947م).
- كاشف، سيدة إسماعيل وحسن أحمد محمود.
مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، د.ت).
- كحالة، عمر رضا.
  - أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، ط3 (بيروت، 1977).
  - العالم الإسلامي "مختصر تاريخ الدول الإسلامية"، المطبعة الهاشمية، ط2 (دمشق، 1958م).

- العلوم العملية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونيـــة (دمشـــق، 1972م).
- علوم الدين الإسلامي، مطبعة الحجاز (دمشق، 1974م).
- الفنون الجميلة في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونيـــة (دمشـــق، 1972م).
- مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإســـلام، مطبعـــة الحجـــاز (دمشق، 1974م).

- كرد علي، محمد.

- الإسلام والحضارة العربية، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة، د.ت).
- خطط الشام، المطبعة الحديثة (دمشق، 1925م).

- الكروي، إبراهيم سليمان وعبدالتواب شرف الدين.

المرجع في الحضارة العربية الإســـلامية، منشـــورات ذات السلاســـل (الكويت، 1984م).

- كريم، سامح.

أعلام في تاريخ الإسلام في مصر أفكار للتجديد ومواقف للحياة، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، 1996م).

- لومبار، موريس.

الإسلام في مجده الأول من القرن (2 إلى القـــرن 15هـــــ/8-11م)، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديـــدة، ط3 (المغرب، 1990م).

- لينبول، ستانلي.

سيرة القاهرة، ترجمه عن الإنجليزية حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن وإدوار حليم، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1993م).

- ماهر، سعاد.

- البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقيـــة، وزارة الثقافـــة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (القاهرة، د.ت).

- مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (القاهرة، 1979).

- متز، آدم.

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية محمدعبدالهادي أبوريدة، أعد فهارسهُ رفعت البدري، مكتبة الخانجي ط4 (القاهرة، 1967م).

- مجاهد، أحمد ومحمد مصطفى النجار.

دراسات تاريخية الدولة الأموية والعباسية، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1967م).

- محمد، محمد وصفي.

دراسات في الفنون والعمارة العربية الإسلامية، دار الثقافة للطباعة والنشر (القاهرة، 1980م).

- محمد، نبيلة حسين.

محاضرات في تاريخ الشام في العصر الإسلامي، مكتبة كريدية إخوان (بيروت، 1983م).

- محمود، حسن أحمد.

حضارة مصر الإسلامية "العصر الطولوني" دار الفكر العربي (القاهرة، د.ت).

- المختار، فريال داود.

المنسوجات العراقية الإسلامية من الفتح العربي إلى سقوط الخلافة العباسية ببغداد، منشورات وزارة الإعلام (العراق، 1976م).

- المسري، حسن علي.

تجارة العراق في العصر العباسي، جامعة الكويت (الكويت، 1982م).

- مشرفة، عطية.

القضاء في الإسلام، شركة الشرق الأوسط، ط2 (د.م، 1966م).

- مصطفى، صالح لمعي.
التراث المعماري الإسلامي في مصر، دار النهضة العربية (بيـــروت، 1984م).
- مصطفى، محمود.
الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي، قدم له شوقي، ضيف، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر (القـــاهرة، 1967م).
- المعارف، عارف.
المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف (القدس، 1961م).
- معروف، ناجي.
أصالة الحضارة العربية، دار الثقافة العربية، ط3 (بيروت، 1975م).
- مفتاح، صالح مصطفى.
ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان (طرابلس، 1978م).
- مليجي، أحمد محمد.
النظام القضائي الإسلامي، مكتبة وهبة (القاهرة، 1984م).
- المنشراوي، خضير عباس محمد.
تاريخ علم الرياضيات عند العـــرب، منشـــورات جامعـــة قـــاريونس (بنغازي، 1999م).
- مؤنس، حسن.
تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون ورد ضمن كتـــاب الحضارة المصرية، العصر اليوناني والرومـــاني والعصـــر الإســـلامي، المؤسسة المصرية العامة (القاهرة، د.ت).
- مولوي، حسين.
الإدارة العربية، تعريب إبراهيم العدوي، المطبعة النموذجية (الحلميـــة، 1985م).

- النبراوي، فتحية.
تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، الدار السعودية، ط4 (جدة، 1987م).
- نتنج، أنتوني.
العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1974م).
- نصر الله، حسن.
تاريخ بعلبك، مؤسسة الوفاء (بيروت، د.ت).
- اليوزبكي، توفيق.
دراسات في النظم العربية الإسلامية، مطبعة جامعة الموصل (الموصل، 1975م).
- يوسف، عبدالرؤوف.
دراسة في الزجاج المصري، ورد ضمن كتاب أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مطبعة دار الكتب (الجمهورية العربية المتحدة، 1979م).

ثالثاً: الدوريات والموسوعات

أبو زهرة، محمد:

القضاء الإداري في الإسلام، مجلة حضارة الإسلام، العدد السابع، السنة الأولى، المطبعة الهاشمية (دمشق، 1961م).

أمين، حسين.

سامراء في ظل الخلافة العباسية، موسوعة العتبات المقدسة، دار التعارف (بغداد، د.ت).

الباشا، حسن.

تصميم جامع ابن طولون، مجلة منبر الإسلام، العدد الثاني عشر، السنة السابعة والعشرون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (القاهرة، 1970م).

البدري، خليل.

موسوعة شهيرات النساء، دار أسامة للنشر (الأردن، 1998م).

بيطار، أمينة.

الحياة الاقتصادية في بلاد الشام بين سنتي 132هـ و359هـ، مجلة دراسات تاريخية، العدد الرابع (دمشق، 1980م).

تدمري، عمر عبدالسلام.

أسرة عيسى بن الشيخ في صيدا وجنوب لبنان في القرنين الثالث والرابع الهجريين، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد الثالث والعشرون، السنة الثانية، دار النشر العربية (بيروت، 1980م).

جمعة، سعاد أحمد.

الإبداع الفني في الصناعات المعدنية في العصور الإسلامية، مجلة منبر الإسلام، العدد الرابع، السنة الثانية والثلاثون، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (القاهرة، 1974م).

حجرز، جمال.

زخرفة الأخشاب في الفن المصري الإسلامي، مجلة رسالة الإسلام، العدد الأول، السنة الثانية، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية (القاهرة، 1950م).

حرب، الغزالي.
الألعاب الرياضية في التاريخ والشعر، مجلة تاريخ العرب والعـالم، السـنة الثالثة، العدد الثالث، تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كـل شـهر (بيروت، 1981م).
حسين، أحمد.
موسوعة تاريخ مصر، دار الشعب (القاهرة، د.ت).
الحياري، مصطفى علي.
حياة الناس في مدن الثغور "مدينة طرسوس"، مجلسة دراسـات تاريخيـة، العدد الرابع (دمشق، 1980م).
رمزي، أحمد.
جامع ابن طولون، مجلة الرسالة، العدد خمسمائة وخمسة وأربعون، السـنة الحادية عشرة، دار الرسالة (القاهرة، 1943م).
الروضان، عبد عون.
موسـوعة شـعراء العصـر العباسـي مـن (132هـ/750م) إلـى (350هـ/165م) دار أسامة للنشر والتوزيع (عمان، 2001م).
الزاوي، الطاهر أحمد.
مختار القاموس مرتب على طريقة مختار الصحاح والمصباح المنير، الدار العربية للكتاب (د.م، 1981م).
زكي، عبدالرحمن:
الجيش المصري في العصر الإسلامي من الفـتح العربـي إلـى معركـة المنصورة، موسوعة الجيوش الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية (القـاهرة، د.ت).
زيادة، نقولا.
المحتسب، مجلة العربي، العدد خمسمائة وإحـدى عشـر، وزارة الإعـلام (الكويت، 2001م).
زيود، محمد.
نظام الحسبة في الإسلام، مجلة دراسات تاريخية، السنة التاسـعة، العـددان التاسع والعشرين والثلاثين (دمشق، 1988م).

الشرباصي، أحمد.
أحمد بن طولون ورفقهِ بأهل الذمة، مجلة الرسالة الإسلامية، العدد الثـــاني، السنة الرابعة، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية (القاهرة، 1950م).
شلبي، أحمد.
موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، "الفكر الإسلامي منابعه وآثاره"، مكتبة النهضة المصرية، ط8 (القاهرة، 1986م).
عاد، يوسف.
الكتابة، مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة التاسعة، العدد التاسع والتســعين، تصدر عن دار النشر العربية (بيروت، 1987م).
عابدين، علية.
الملابس في العصر الإسلامي في مصر، مجلــة منبــر الإســلام، العــدد الخامس، السنة الثانية والثلاثين، المجلــس الأعلــى للشــؤون الإســلامية (القاهرة، 1974م).
العبيدي، صلاح حسين وطلعت رشاد.
أثر العمارة العراقية في العمارة المصرية فــي العصــر العباســي، مجلــة المؤرخ العربي، العدد الأربعين، السنة الرابعة عشر، تصدر عــن الأمانــة العامة لاتحاد المؤرخين العرب (بغداد، 1989م).
العشماوي، محمد سعيد.
الحسبة، مجلة العربي، العدد أربعمائة وسبعة وخمســون، وزارة الإعــلام (الكويت، 1996م).
غربال، محمد شفيق.
الموسوعة العربية الميسرة، الدار القوميــة للطباعــة والنشــر (القــاهرة، 1965م).
الغيطاني، جمال.
القاهرة عالم المآذن، مجلة العربي، العدد مائتين وثلاثة وأربعون، تصدرها وزارة الإعلام (الكويت، 1979م).
فراج، سمير.
موسوعة التاريخ الإسلامي، "الدولة الطولونية"، مركز الراية للنشر والإعلام (القاهرة، 2007م).

فهمي، عبدالرحمن.

موسوعة النقود العربية وعلم النميات فجر السكة العربية، مطبعة دار الكتب (القاهرة، 1964م).

قراعة، سنية.

قطر الندى، مجلة العربي، العدد مئة وواحـــد وأربعـــون، تصـــدرها وزارة الإعلام (الكويت، 1970م).

كاشف، سيدة.

دراسات في النقود الإسلامية، المجلة التاريخية المصرية (القاهرة، 1963م).

مسعود، جبران.

الرائد مُعجم لغوي عصري، رُتبت مفرادتهِ وفقاً لحروفها الأولى، دار العلم للملايين، ط6 (بيروت، 1990م).

مصطفى، إبراهيم وأحمد حسن الزيات وآخرون.

المعجم الوسيط، مطبعة مصر (القاهرة، 1960م).

مصطفى، محمد.

بناة القاهرة المسلمون، مجلة الرسالة، العدد خمسمائة وأحد عشـــر، الســـنة الحادية عشر، دار الرسالة (القاهرة، 1943م).

مطلوب، محمد.

القضاء وأحكامه في الشـــريعة الإســـلامية، مجلـــة كليـــة الآداب، العـــدد والعشرون، دار الجاحظ (بغداد، 1976م).

رابعاً: الرسائل العلمية:

أبو القاسم، عمر محمد.

العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر والخلافة العباسية زمن الطولونيين (254-292هـ/868-905م) رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الفاتح (طرابلس، 2004م).